روايات الهلال

جنكيز ضاغجي

السنوات الرهيبة

ترجمة: د. محمد حرب

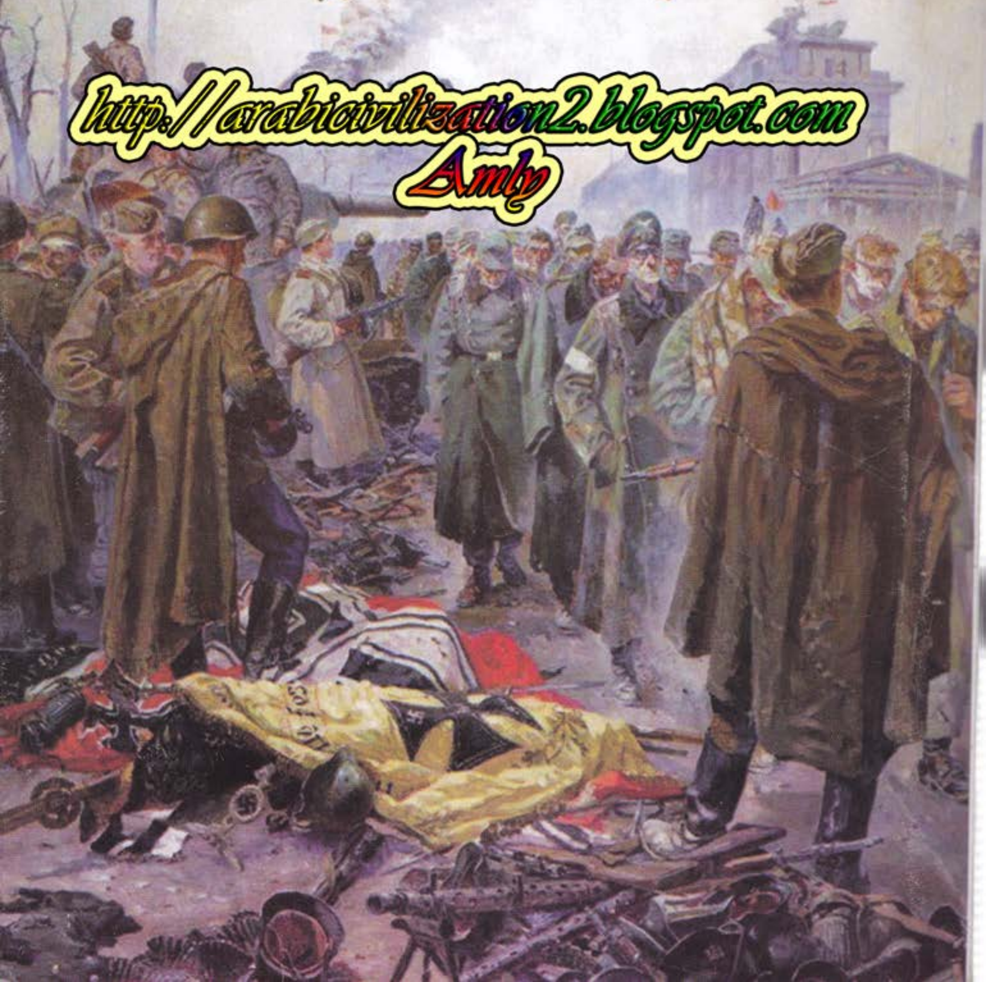

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى
تصـــدر عن مـــؤسـســـة دار الهـــلال

رئيس مجلس الإدارة

حلمى النمنم

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفنى

محمود الشيخ

مدير التحرير

هالة زكى

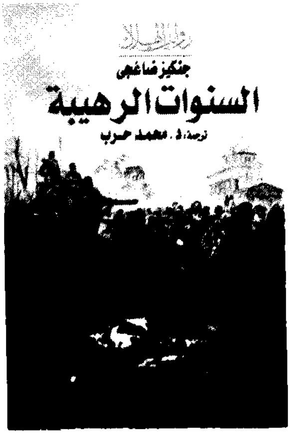

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوربا وأسيا وأفرقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٤٥ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)

ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).

المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ

تلغرافيا: المصور ـ القاهرة ج.م.ع.

تلكس: Telex 92703 hilal u n

فاكس: FAX: 3625469

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس ـ الكويت ١٫٢٥٠فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١٫٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١٫٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣٫٥ جنيه

الإصدار الأول يناير ١٩٤٩

العدد ٧٥٣- أكتوبر ٢٠١١م - ذوالقعدة ١٤٣٢هـ

البريد الإلكترونى darhilal@idsc.gov.eg

بريد الاشتراكات Email: subscription dep@yahoo.com

من روائع الأدب العالمى

السنوات الرهيبة

(جنكيز ضاغجى)

رواية تصور مأساة المسلمين
فى شبه جزيرة القرم السوفيتية
إبان الحرب العالمية الثانية

ترجمة وتقديم
د. محمد حرب

رقم الإيداع : ٢٠١١/١٥٩٣٧

الترقيم الدولى :I . S . B . N 977-07-1503-4 X

إهـــــداء

* إلى الأســـتـــاذ التـــركى الجليل؛
* عـــالم اللغـــة العـــربيـــة القـــدير،
* علامة الدراسات الشرقية الكبير :

نهــــــاد جتــين

* أستاذى الذى أكرم وفادتى عندما كنت أطرق بابه – ومازلت– طالبا التزود من علمه وفضله وأدبه وعرفانه.
* أبستاذى الذى حببنى فى العلم النافع وشجعنى عليه .

أجـزل الله ثوابه ونفع به طلاب العلم والفـضل والأدب.

الدكتور / محمد حرب
المدينة المنورة
١٤٠٨ - ١٩٨٨

مقدمة

جنكيز ضاغجى، وقضيته

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

هناك تشابه كبير بين مأساة فلسطين العربية ومأساة القرم التركية : فشعب فلسطين أخذت منه أرضه وطرد من دياره، وشعب القرم أخذت منه أرضه وطرد من دياره .

فى فلسطين : حدثت هجرات يهودية إلى فلسطين إلى أن استولى اليهود بالقوة المسلحة على هوية الأرض الفلسطينية وأعلنوا فيها دولة يهودية (عام ١٩٤٨م) وفى القرم حدثت هجرات يهودية وصقلبية روسية إلى أن استولى الروس بالقوة المسلحة على هوية الأرض القرمية وأعلنوا فيها دولة (عام ١٩٤٦م) (١) .

والقرم شبه جزيرة تقع شمال البحر الأسود، يحيط بها بحر القازاق من الشرق ويحيط بها البحر الأسود من الجنوب والغرب. والقرم منطقة تابعة الآن للاتحاد السوفييتى .

وصل الإسلام إلى القرم عن طريق التتار، إذ اعتنقته القبيلة الذهبية عام ١٣٤٠م وكان قد أسس دولتها باطوخان أحد أحفاد جنكيز خان عام ١٢١٨م، واستقر التتار فى المنطقة وعمروها (٢) .

(١) محمد حرب، الروائى جنكيز ضاغجى وأحلام المسلمين فى القرم، العربى، العدد رقم ٢٦٣، أكتوبر ١٩٨٠ .

(٢) محمود شاكر، المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٨ - ٦٩.

وعندما دمر تيمورلنك القبيلة الذهبية، تفرقت دولتها إلى ثلاث «خانيات»، كانت القرم واحدة منها. وتولى الحكم فيها عائلة كيراى (منذ ١٤٢٧ إلى ١٧٨٣) . وكانت روسيا تشكل فى ذلك العهد خطورة ضد القرم لأن روسيا كانت آخذة فى التوسع فاضطر محمد كيراى عام ١٥٢١م أن يقود جيوشه لتأديب روسيا، فحاصر موسكو وأخضع حكامها له وأجبرهم على دفع الجزية، إلا أن دولت كيراى حاكم القرم قاد جيوشه لفتح موسكو عام ١٥٧١م (١) .

وعندما أصاب الضعف خانية القرم، فضل حكامها أن يكونوا عمالا لإخوانهم العثمانيين بدلا من أن يخضعوا لخصومهم الروس، خاصة بعد أن قويت روسيا واستطاعت عام ١١٨٥ هـ قتل ثلاثمائة وخمسين ألف قرمى (٢) .

وفى عام ١٧٨٣م كانت روسيا تحتفل بجلوس كاترينا الثانية على العرش. وكان شاهم كيراى يحكم القرم، وكان هذا تابعا للدولة العثمانية، إلا أنه كان واقعا تحت تأثير الروس، وكان هؤلاء يلعبون لعبة مزدوجة فى القرم إذ ذاك، فهم من ناحية مع شاهم كيراى يؤيدونه ويظهرون له الود والإخاء ومن ناحية أخرى كانوا يحرضون معارضيه على الثورة ضده (٣).

قامت كاترينا الثانية بإهداء شاهم كيراى مجموعة من المستشارين الروس قدمتهم قيصرة روسيا لخدمة حاكم القرم، وبتأثيرهم فرض هذا الحاكم على جيشه الزى العسكرى الروسى وقام بتطبيق الأسس العسكرية الروسية فى بلاده، وسار خطوات واسعة فى «تغريب» القرم، وأخذ فى

---

(١) محمد حرب، المرجع السابق .

(٢) محمود شاكر، المرجع السابق، ص ٦٩ .

(٣) محمد حرب، اغتيال مصطفى جميل القرمى وعلاقته بمأساة المسلمين فى الاتحاد السوفييتى . البلاغ، الكويت، ١٩ فبراير ١٩٧٨ م .

إعداد أسطول لكى يسيطر به على البحر الأسود كما صور له المستشارون الروس. ولتحقيق هذا الطموح كان لابد من المال وبالتالى فرض ضرائب فادحة على شعبه ثم ألغى الأوقاف. وأفاد الروس من هذا الجو الذى عملوا هم على ظهوره، فحرضوا معارضى شاهم كيراى على أن يضربوا ضربتهم، فقاموا بثورة وما كان من شاهم كيراى إلا الفرار إلى روسيا (١) .

قامت القوات الروسية باحتلال القرم بحجة حماية حليفهم شاهم كيراى وإعادته إلى العرش. أما الواقع فقد احتل الروس القرم منذ ذلك الحين وحتى الآن. وكان قائد القوات الروسية إذ ذاك هو الجنرال بوتمكين وبعد أن غزا هذا الجنرال القرم (عام ١٧٨٣م) اتضح أنه يحمل أمر الامبراطورة كاترينا بإلحاق القرم بالامبراطورية الروسية. كما كان بوتمكين يحمل الصلاحية الكاملة لطرد شعب القرم والقضاء على دينه وثقافته، وكان عدد القرميين فى عام الغزو الروسى هذا يبلغ مليونا ونصف مليون نسمة، كلهم من الأتراك التتار. وتركزت السياسة الروسية تجاه شبه جزيرة القرم فى إجبار أتراك القرم على الهجرة الجماعية «حتى تخلو شبه الجزيرة منهم تماما»، ويحل العنصر الروسى محلهم (٢) .

ونتيجة لتطبيق هذه السياسة قامت الحكومة الروسية بتنفيذ وصية الأمير منشكوف الخاصة بتهجير القرميين إلى داخل روسيا وإلى الولايات الروسية البعيدة، ولا سيما أن الحكومة الروسية كانت - ولا تزال - تعمل على الوصول إلى المضايق والمياه الدافئة، وهذه استراتيجية روسية ثابتة .

وظل القرميون وهم تتار أتراك، خاضعين للحكم القيصرى، وكان هذا الحكم ينظر إلى القرميين على أنهم «خونة مستعدون للتعاون مع ألد أعداء روسيا وهى الخلافة العثمانية» (٣)

---

(١) محمد حرب، المرجع السابق.

(٢) Mustecip-Ulkusal, Kirim Turkleri, Turk Dunyasinda El Kitabi, S. 1144, Ankara 1976.

(٣) محمد على البار، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ١٢١، جدة، ١٩٨٣ .

«ولذا عندما نشطت الحركة الإصلاحية فى روسيا والمطالبة بالحريات الدينية والحريات المدنية، وتكون الدوما (البرلمان الروسى عام ١٩٠٥م) نشط المسلمون فى كل مناطق روسيا وعلى الأخص فى القرم مما جعل الحكام الروس يتخوفون من هذه الحرية ويصدرون أوامرهم إلى وزير الداخلية بالحد من نشاط «المسلمين» وتكميم أفواههم ومنع فتح مساجد جديدة وتشديد الرقابة على زعمائهم».

لهذا وجد فلاديمير ايلتش لينين، عندما قام بثورته البلشفية فى أكتوبر ١٩١٧ م. المساندة من جميع مسلمى روسيا. ولا سيما أن لينين وعد المسلمين فى كل روسيا، وكرر وعده فى خطبه وفى منشوراته بأن المسلمين سيحظون بالحرية الدينية الكاملة بل وبالاستقلال الذاتى فى شئونهم. وأيد قيام دولة القرم الإسلامية باسم جمهورية القرم الشعبية فى ١٩١٧/١٢/١٣م، وأجريت فى القرم انتخابات عامة لأول مرة لاختيار حكومة وطنية رأسها (جلبى نعمان جهان) فى ظل الثورة البلشفية. لكن البلاشفة لم يكونوا جادين فى إعطاء القرم الاستقلال، لأن ٣٠,٠٠٠ من جنود البحرية والعمال البلاشفة لم يعترفوا بسلطة الحكومة الوطنية، وقام هؤلاء بمساعدة الروس المهجرين إلى القرم من يهود وصقالبة، بإسقاط حكومة القرم وحزبها (ملى فرقه) وإعدام رئيس الجمهورية المنتخب وإلقاء جثته فى البحر .

أصدر لينين فى أبريل ١٩١٨م أمره بالزحف على البلاد الإسلامية التى كانت خاضعة للقياصرة الروس. وفى أبريل ١٩٢٠ حاصرت القوات البلشفية، بلاد القرم وشددت الحصار حتى حدثت مجاعة ضخمة. وفى تقرير مقدم إلى عصبة الأمم أن الذين لقوا حتفهم من جراء تلك المجاعة أكثر من مائة ألف، فى حين ذكرت جريدة ازفستيا الصادرة فى ١٩٢٢/٧/١٠

أن الذين مـاتوا بسبب الجـوع من التتـار القرميـين بلغ أكثر من ستين ألفا (١).

وفي عـام ١٩٢٨م اعـترض ولى إبراهيم رئيس حكومـة القـرم على قـرار جوزيف ستالين الخـاص بإقـامـة دولة يهودية فى القرم، واحتج ولى إبراهيم على تدفق الهجرات اليهودية إلى بلاده، فـأصـدر سـتـالين الحكم بإعدام ولى إبراهيم وكل أعضاء حكومته .

لكن لم تنفذ فكرة إقامـة وطن قومى لليهود فى شبه جزيرة القرم، إلا أن الهجرات اليهودية الروسية إلى القرم كانت قد استقرت فى هذه البلاد (٢).

وفى عام ١٩٢٩م أصدر ستالين أمرا بنفى ٤٠,٠٠٠ قـرمى من بلادهم إلى سيبيريا (٣) .

ونقص عدد التتار القرميين داخل بلادهم، من مليون ونصف مليون نسمة عام ١٧٨٣م إلى ١٥٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٦ .

إلا أن القرار الخطير، قرار طرد شعب من أرضـه، أصدره سـتـالين فى ١٨ مايو عـام ١٩٤٤ وهو قرار خاص بنفى وطرد كل أتراك القرم من وطنهم الأصلى القـرم إلى صـحـراء آسـيـا الوسطى وبلادها. وقـامت عربات السكة الحديد المخصصة لنقل الحيوانات بنقل تتار القرم إلى المعسكرات التى خصصت لهم فى آسيا الوسطى .

وسبب هذا القرار أن القرميين – نتيجة ضيقهم بالروس – تعاونوا مع الألمان عندما احتل هؤلاء القرم فى الحرب العالمية الثانية (٤) .

---

(١) محمد علي البار، المرجع السابق، ص ١٢٣ .

(٢) Abdullah Bizden, Gengiz, Gagci, Turk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, C. 2, S.

(٣) المرجع السابق.

(٤) محمد حرب، اغتيال مصطفى جميل القرمى وعلاقته بمأساة مسلمى القرم، مرجع سابق ذكره.

القسم الأول

المدخل

– اسمي صادق، صادق طوران، وأنت ؟ ما اسمك ؟

أجبته بقولي :

– اسمي جنكيز .

كانت شخصيته تماثل اسمه، شخصية ذات أبعاد عريضة ومغزى عميق، كان من السهل قراءة آثار الماضى العميقة مسطورة على وجهه. وفى عينيه مسحة ألم متخلفة من الأعوام الماضية. كان – بمنكبيه العريضين وصدره الفتى – يترك فى الإنسان شعورا بأنه يحمل على كاهله عبء حياة ثقيلة شديدة الوطأة . كان يبدو كمن يبكى بكاء حارا وقد ألقى بنفسه على كرسى، أمام باب الشارع وقد أخذ رأسه بين يديه . مشيت لأجلس بجواره. رأيته كمن يفكر فى أشياء ويتذكر أشياء، ويفعل هذا بينما يستغرق فى التفرج على خطوات السائرين أمامه. فكرت فيما بينى وبين نفسى فيما إذا كنت سأستطيع التوفيق فى حمله على التكلم والإفصاح عن ألمه، فإذا فعل هذا فقد يستريح. وبينما كنت أقترب منه، قلت له بصوت فى غاية الهدوء :

– يا صادق، هل تذكر أحمد الفلاح، زميلنا الذى كان يؤدى الخدمة العسكرية معنا؟ لم يرفع صادق رأسه، لكنه قال :

– أحمد ؟! المرحوم أحمد؟! أمن المعقول أن أنساه؟ لا أنسى أيضا، أننا دفناه بالقرب من برفومايسكى كانت إصابة أحمد بالغة، وجرحه غائرا عميقا، ولم ينج منه. حملته على الكلام فلقد حدثنى طويلا عن فواجع الحرب ومآسيها وحدثنى عن نفسه وعن عائلته، كما سألنى عن أحوالى، وعن أعمالى .

كان المساء قد أخذ فى الهبوط، والظلال السوداء المحتمية بأسطح روما تهرب من أفق الغرب المحمر، لتهبط فى بطء متجهة نحو الشوارع .

مد يده نحوى وصافحنى وقال لى :

– لو تزورنى غدا صباحا، فسأحكى لك ..

شددت على يده قائلا له بأننى سأزوره . افترقنا . عدت إلى الفندق .

أنرت مصباح حجرتى الهادئة الموحشة. مددت يدى إلى كتاب مختارات من الشعر التركى، وكان الكتاب فوق المنضدة. ألقيت بجسمى فوق السرير وفتحت الكتاب، وأخذت أقلب أوراقه ببطء، وإذا بعينى تتوقفان أمام بيت من الشعر يقول : «أنا تركى، وأنا عدوك، حتى لو لم يبق من أمتى إلا أنا فقط» أغلقت الكتاب، وأغلقت عينى ورحت أفكر فى صادق. كنت أقول لنفسى : إن صادق رجل مل دنياه ، وخاف البشر. كنت أفكر فى صادق بينما كان خياله يتراءى لى أمام ناظرى. صادق .. هذا الرجل الخائف ماذا يمكن أن يفعله بعد هذا ؟! وأنا ..؟! ماذا سيكون مصيرى؟ لست أنا فقط، بل نحن كلنا .. نحن الذين خرجنا من هذه الحرب ، أحياء .. كيف كنا ؟ وماذا سنكون؟ ما الذى كان فى أيدينا أن نعمله ؟ وماذا ستكون نهايتنا .

وفى اليوم التالى، ذهبت إلى بيته . فتحت لى الباب امرأة عجوز تبدو فى الثمانين من عمرها، بل حتى فى المائة. ضحكت هذه المرة بوجهها المتغضن، ضحكت وكأنها تخفى عنى شيئا. بادرتها بقولى :

– بون كيورنو سينيوريتا.

ردت على قائلة : بون كيورنو .

ثم مدت إلى يدها بلفافة من الورق كانت تخفيها وراء ظهرها، وقالت لى:

– سينيور صادق ترك لك هذه المجموعة من الأوراق .

– وأين هو ؟

– ذهب ، ذهب ولن يعود .

تبادلنا النظرات لحظات دون أن نلفظ بكلمة . ثم مددت يدى وأخذت اللفافة .

– كراسيا سينيوريتا . آرى فيدرسى .

– بريكو، بريكو – آرى فيدرسى سينيور .

وأغلقت المرأة الباب . لكن كلماتها كانت فى أعماقى واقفة تتردد .. ذهب ولن يعود .. ولما ابتعدت عن البيت بمسافة، فتحت اللفافة ، فوجدت بداخلها

أربعة دفاتر. فتحت الدفتر الأول ونظرت إلى صفحته الأولى . وجدت عليها كلمة (مذكرات) مكتوبة بأحرف كبيرة وتحتها توقيع باسم صادق طوران .

تصفحت أوراق هذا الدفتر على عجل. فى صفحة من صفحاته توقفت عيناى على عبارة هزتنى. أرعبتنى . أفزعتنى . تقول العبارة : «أدركنا يارب فإننا ننتهى . إننا فى طريقنا إلى الزوال». وضعت الدفاتر تحت إبطى، وأخذت طريقى إلى الفندق. سرت بخطوات إنسان هرم متعب أعياه الإجهاد. بحثت فى اليوم التالى عن صادق، فى كل مكان، لكننى لم أعثر له على أثر . أين ذهب ؟! وماذا حدث؟! طال تفكيرى ولم أتوصل إلى حل .

مرت على هذه الحادثة سبع سنوات. كنت فى ذلك الوقت فى لندن . وفى الخارج كانت منازل المدينة رطبة موحشة مظلمة . فى ذلك الوقت أيضا ساد حجرتى مساء حزين .

دخلت زوجتى علىّ وفى يدها رسالة وهى تقول :

– لك رسالة !

فتحت الظرف . كانت الرسالة من صديقى ميرزا صبرسكى، وهو مسلم من تتار بولندا، وكان المقام قد استقر به بعد الحرب، فى الأرجنتين، تحدث صبرسكى فى خطابه حديثا طويلا عن حياته وأحواله ومعيشته، ثم ختم رسالته هذه، بالعبارة الآتية : «تلقيت خبرا من أوروجواى مؤداه أن أحد مسلمى القرم التتار واسمه صادق طوران ، وكان يعمل هناك فى أعمال الغابات الشاقة، قد توفى إلى رحمة الله . ومع أنى لا أعرفه ولا أعرف عنه شيئا . إلا أنى أدعو الله له بالرحمة، فقد مات غريبا عن بلاده» .

سقطت الرسالة من يدى، ووقعت على الأرض ، تدلت يداى إلى جانبى، وأنا بعد، فى مقعدى الذى أجلس عليه، أحسست وكأن لكمة سددت إلى حلقى . أحس بالاختناق . لا أستطيع الكلام. ثم أخذت أفيق تدريجيا، ثم تذكرت «صادقا» بين دموع انهمرت من مآقى فجأة، يا لك من دنيا ! صادق طوران ! من أين أخذه قدره وإلى أين ألقى به نصيبه.

وها هى ذى مذكرات صادق طوران، أعيد قراءتها باكيا بلوعة وحرقة من أعماقى :

(١)

«غادرت بلادى آخر مرة فى خريف عام ١٩٤٢ . كان فراق وطنى أمرا صعباً ومراً . كنت أحس بأننى لن أستطيع العودة إليه مرة أخرى . فى المحطة ، كانت أمى ، وكان أبى والأقارب قد حضروا لوداعى . وكنت أنظر إليهم من مقصورتى بالقطار ، وأفكر فى أيامى الحلوة، والمرة أيضاً .كانت هذه هى المرة الأخيرة التى أراهم فيها . رفعت أمى يدها اليمنى نحوى ، وكان على كتفيها شال طويل أطرافه متدلية. تناولت أمى طرفاً من هذا الشال ، وأخذت تمسح به دموعها المنهمرة من عينيها . أطلق القطار آخر صفاراته . ثم أخذ دخان أسود يخرج من مقدمة القطار ليحجب الرؤية بيننا . ومن نافذتى بالقطار ألقيت نظرة على أرض الأجداد ، التى سلبوها منا . أمعنت النظر إلى الأرض طويلا ، كانت هذه الأرض السليبة - وهى تحت عجلات القطار - تشدو بأنشودة السنين الدامية ، استمعت إلى هذه الأنشودة ساعات وساعات . كنت أتضرع إلى الله ، داعياً ، قائلاً :

- يارب ! لا تحرمنا من هذى الأرض ، نريد أن نبقى فيها ، ونعيش فيها، حتى لو نحيا فيها جياعا عراة ، حتى إذا متنا أيضاً ، فلنمت فى هذه الأرض ، إنها وطنى يا ربنا . إن هذه الأرض هى أرضنا ، وهى بلادى ، مهما اغتربت فى أية بقعة كانت فى هذه الدنيا ، يارب ! كن معنا طالما أننا نعيش.

***

كنا - وقت حلول المساء - نلعب لعبة القباطنة ، نرفع عموداً فوق ربوة صخرية كانت بجوار القرية ، ونفتح شراعا ، فإذا بصوت أمى من بعيد ينادى ، فقلت لأخى الصغير :

- هيا يا بكر ، فأمنا مقبلة نحونا ، والليل أقبل !

لكن بكراً لم يكن عادة يستمع إلى كلامى ، بأذن صاغية ، وكان معروفاً بأنه أكثرنا عناداً ، استمر بكر فى اللعب دون أن يأبه بشئ ، وبعد فترة

تتراوح ما بين عشر دقائق وربع ساعة ، ظهرت أمى على الربوة المقابلة كانت تهمهم وكانت تقول بصوت عال:

- يا لكما من ولدين ! لا حول ولا قوة إلا بالله ، سأضربكما الليلة ضربا مبرحاً بديلا عن طعام العشاء . هيا إلى البيت !

لم يكن بكر يشتهى وليمة العلقة والضرب بالعصا . وسريعا ما ينطلق من على الربوة جاريا ، وكنت بدورى أتبعه جارياً أيضاً . كانت أمنا تصيح من خلفنا قائلة:

- واحد منكما يدخل الأغنام إلى الحظيرة ، ويأتى الآخر بالماء إلى أبيكما ، وكان بكر يأخذ اتجاهه نحو مجموعة البيوت المقابلة ليأخذ الأغنام ، كان يتجه إلى الرعاة . أما أنا فكنت آخذ الإبريق من بيتنا ، وأعبر المقابر ؛ لكى أذهب إلى عين ماء تسمى «عين محرم الخباز» . كنت اقتربت من العين فإذا بى أرى على بعد مائتى متر عربة نقل مغلقة سوداء واقفة أمام «التعاونية». صادفت فى الطريق عساكر مسلحين بالسونكى ، وقد تسبب منظرهم فى إدخال فزع غريب فى نفسى . ملأت الإبريق سريعاً من عين الماء . وكان لابد أن أكون فى البيت قبل أن يعود أبى من الحقل . كان من عاداتنا أن يكون الماء البارد موضوعا على مائدة الطعام كل مساء فى وجبة العشاء ، أدخل أخى بكر الأغنام والماعز إلى الحظيرة ، وقامت أمى بكنس البيت وتنظيفه . طبخت أمى الطعام وأعدت المائدة . نحن الآن فى انتظار والدنا . يوزع ليل الصيف ، من خلال النوافذ المفتوحة ، هدوءا يمزق القلوب، على حجرات البيت ، تبدو أمى مهمومة تنظر بين الفينة والفينة إلى الباب . الملاعق فى أيدى الصغار ، وكلنا ننتظر الأب . أذكر جيداً أننى كنت قد جعت جوعاً شديدا فمددت يدى نحو طبق الخبز . قضمت لقمة ولكنها فى فمى، فإذا بأمى تنظر إلىّ فى حدة، ولكنها لم تنطق بكلمة . وفى نفس هذه اللحظة بالذات ، إذا بشخص ينطق بصوت مهموس كأنه يخاف أن يعكر صفو سكون الغرفة ، ويقول :

- يا خالة ! .. يا خالة !
ردت عليه أمى قائلة :
- من أنت ؟! ماذا حدث ؟! وماذا تريد ؟!
- لا أستطيع أن أقول لك كل هذا من بعيد يا خالة ! تعالى !

نهضت أمى وسارت نحو النافذة . وبعد دقيقة أو اثنتين اختفى الرجل الذى كان يتحدث من خلف النافذة . أما أمى فقد تجمدت فى مكانها وكأنها قطعة من حجر لا تستطيع قولاً ولا حراكا . اقتربت نحوها بخوف مرير ، أحسسته لأول مرة فى قلبى الطفل ، وقلت لها :

- ماذا حدث يا أمى ؟ أين أبى؟ لماذا تأخر ؟
- أبوك لن يأتى .. اقتادوه إلى السجن ، إنه لن يأ..

لم تكمل أمى كلامها ، ذلك لأنها اختنقت بالدموع التى ملأت ما بين أهدابها ، ثم انهمرت هذه الدموع فجأة ، ومرة واحدة ، من فوق خديها ، إلى أسفلهما.

تحولت اللقمة الوحيدة التى أخذت فى مضغها منذ هنيهة ، إلى سم زعاف فى أمعائى.

مستحيل أن تغيب من أمام عينى صورة أمى بشفتيها المرتعشتين وخديها اللذين كانت تجرى عليهما الدموع . لم تستطع أمى فعل شئ غير ترديد عبارة : «لن يأتى!» وأخذت تجثم على الأرض رويداً رويداً . أما نحن فقد احتضن أحدنا رقبتها ، وأخذ الآخر بطرف ردائها ، وأخذنا ننظر إلى عينيها الدامعتين . كانوا قد قبضوا على رجل البيت وأودعوه السجن. . ولرجل البيت ، أولاد وأطفال بالإضافة إلى أمهم ممزقة القلب .

***

أذكر جيداً مبنى المدرسة ، وكان مبنى لطيفا مسوراً بأسوار من حجر ، وله سقف من صفيح أحمر، وهو يأخذ مكانه بين بيوت صغيرة تغطيها أسقف ترابية ، وكنا نحن الأطفال نفرح ونلعب ونضحك مثل الطيور التى

تزقزق بين أغصـان الأشـجار وبين الأوراق الخضـراء فى الربيع. كنا ننسى قسوة الحياة الموجودة فى بيوتنا منذ الدقيقة التى ننطلق فيها نحو المدرسة لنعبر عتبتها . كانت معلمتنا صفية : امرأة طويلة القامة ذات وجه أبيض دقيق الملامح ، وكانت طيبة القلب ، وهذه الطيبة كانت تعكس على وجهها جمالا روحانيا . وكنت أكن لمعلمتى صفية حباً نظيفا خالصا . لكن ، حدث ذات صباح ، أن كانت معلمتنا صفية مختلفة معى تماما . عندما أقبلت علينا فى ذلك اليوم ودخلت علينا الفصل قمنا نحن الأطفال بتحيتها كالعادة فى كل مرة ، قمنا ، وقفنا ، ثم جلسنا . لكنها لم تنظر لأحد ولم يكن وجهها يبتسم . اقتربت منى ، وبعد أن وقفت لحظات لم تتكلم فيها نادتنى قائلة:

- يا صادق!

قمت واقفاً ، أما هى فقد استمرت فى حديثها إلى وهى تنظر إلى حديقة المدرسة من خلال النافذة المفتوحة ، قالت :

- يا صادق ، أنت ممنوع من دخول المدرسة بعد اليوم ، ذلك لأن ... هل فهمت يا صادق ؟!

قلت لها :

- فهمت .

أحسست لحظتها أن معلمتنا صفية أيضاً مثل مدرستى ، قد انتزعت من قلبى انتزاعا . جمعت كتبى ، وخرجت من الفصل ، وأصبحت المدرسة فى نظرى مكانا يثير الخوف فى نفسى.

وعندما كنت بعد ذلك أريد الذهاب إلى بيت عمتى ، كنت آخذ طريقى لفاً من عند جداول الماء ومن بين الحدائق بدلاً من الطريق الذى يمر بالمدرسة وبعد أسبوعين من طردى من المدرسة ، كنت عائداً من طريق عين ماء محرم الخباز ، وإذا بى أسمع صوتاً من خلفى يناديني ويقول :

- صادق ! قف ! قف يا أخى

وقفت . كانت معلمتنا صفية هى التى تكلمنى . أخذتنى رعشة . خطر

ببالى أن أرمى الإبريق من يدى وأجرى هارباً . ولكن ! كان بعضنا يقرب من بعض لدرجة أنى كنت أحس بها وبتنفسها الدافئ فى وجهى .

– دقيقة واحدة يا صادق ! دع الإبريق على الأرض .

نفذت ما أمرتنى به معلمتى . قامت بدس مجموعة من الأوراق النقدية فى يدى ، ثم قالت :

– اعط هذه لأمك يا صادق ، ولكن إياك أن تضيعها.

ثم تركتنى ومشت . ولم أر معلمتنا صفية بعد ذلك . وبعد شهرين حل بالقرية بعض القازاقيين . وقد أخذوا معهم عند مغادرتهم القرية ، نصف أهلها ، وكانت معلمتنا صفية من بين هؤلاء.

حل الشتاء فجأة فى ذلك العام ، كان البرد شديداً مثل السم . نزل البرد وغطى الجليد الأرض . كانت المنازل تقبع فى هدوء عجيب مستمر ، وكان الجليد يتدلى من سقيفتها الخارجة عن مستوى المبانى ، لكن البحر كان يضرب كالمجنون بموجاته على الصخور ، أما النسوة فكن يجلسن أمام المدافئ المنطفئة فى البيوت الموحشة، وزوجات أبنائهن يشاركهن البكاء ، والجميع فى انتظار الصباح.

جاء إلى القرية من يحمل الخبر الآتى : «سينقل المسجونون من يالطا إلى آق مسجد » نمت فى ذلك المساء ، متأخراً ، والعاصفة الثلجية فى الخارج تعوى بلا توقف . كان إخوتى الصغار يغطون فى نوم عميق . تبكى أمى أمام المدفأة ، وعلى عينيها منديل أبيض كنت أنا فى السرير أتوسل إلى الله قائلاً: «يارب ! هات لى أبى».

سكنت الريح فى الصباح ، وقامت أمى من أمام المدفأة ، التفعت بشالها القديم وخرجت تمشى فى اتجاه شارع آق مسجد وهو شارع يمر بجانب منازلنا. وتبعناها أنا وأخى . النساء يتلفعن بالشالات ، الأطفال يرتدون ملابسهم القديمة المرقعة، أذرعهم نحيفة كالعصى . كان لون الأطفال بنفسجياً فى هذه الليلة المقمرة الندية . والجميع ينتظرون سيارات النقل

الكبيرة على الطريق المرصوف ! انتظرنا طوال اليوم فى جو صعب شديد البرودة . وقبيل المساء ، جاء شخص من وسط الطريق متجهاً نحونا وهو يجرى ويصيح قائلاً:

- إنهم قادمون!

وإذا بكلمة «قادمون» هذه ، تأخذ شكل موجة صوتية انتقلت من شفة إلى شفة ومن فم إلى فم ومن قلب إلى قلب ، وأعقب ذلك أدعية وبكاء وعويل وصراخ . زوجة الحاج مصطفى كانت تقف صامتة منذ برهة ، وفجأة إذا بها تتمدد على قارعة الطريق المرصوف وأخذت تشد شعرها وهى تصيح وتضرب رأسها بالأرض قائلة:

- يا حبيبى يا حاج مصطفى ! يا زوجى الطيب ! ماذا اقترفنا من ذنب؟! ما هى جريمتنا ؟! ماذا فعلنا ؟! يارب ! يارب!

اندفعت النساء الشابات نحوها . سحبنها من على قارعة الطريق . ظهرت سيارات النقل من بعيد . عجلاتها بسلاسلها قد غطاها الجليد. كانت السيارات تقترب وهى ترسل إلينا أصوات احتكاك عجلاتها بالطريق . أصوات أخرى اختلطت بصوت زوجة الحاج مصطفى . صرخات أخرى تداخلت مع صرخاتها

- يا زوجى حسين . يا حبيبى أحمد . يا ابنى . أى ذنب جنيناه.. النجدة !.

أما أنا فكنت أبحث عن أبى وسط المسجونين المصفوفين داخل العربات التى تمر من أمامنا لكنى لم أره . كانوا كلهم يشبه بعضهم بعضا . كلهم ملتح.. كلهم نحيل ضعيف كما كانوا كلهم مخيفين .. لكنى سمعت صوت أحدهم يظهر من بين الأصوات - عندما كانوا يمرون أمامنا - ينادى هذا الصوت باسم أمى ويقول :

- لا تبك يا فاطمة ! لا تبك ! ادع لى ! دعواتك يا فاطمة !

كان هذا الصوت - غالباً - صوت أبى ، أما أمى التى سمعت هذا

الصوت ، فقد اختنقت فى بكاء متحشرج مختنق وهى تضرب قبضات من يدها على صدرها.

وذهب المسجونون . أما أهاليهم - وقد تركوهم من خلفهم - فقد عادوا إلى منازلهم . هذه المنازل التى أصبحت الآن لا عائل لها ، هؤلاء الأهل يعودون إلى منازلهم يتامى وهم يكنسون جليد الشوارع بأقدامهم الملفوفة بقطع من القماش القديم . عادوا بأثوابهم البالية المرقعة . عادوا إلى مدافئهم ومواقدهم المنطفئة.

***

سمعنا من السائقين أن أبى قد أخلى سبيله . لكنه لم يعد للقرية. أما نحن فقد خرجنا بدورنا من القرية بعد شهرين ورحلنا إلى آق مسجد . مررت فيما بعد وكان ذلك فى شتاء عام ١٩٣٩ بقريتنا ، قبل ذهابى إلى الخدمة العسكرية . فوجدت بيتنا فى القرية تسكنه عائلة روسية فرونجلية . وقد سقطت أشجار البلوط التى كانت شامخة أمام بيتنا ، والسلم الخشبى قد انكسر. وكانت هذه العائلة الروسية تستخدم عتبة بابنا بديلا لخشب الوقود.

أخذ والدى بعد خروجه من السجن يطوف عاطلاً عن العمل بالشوارع مدة أسبوعين ، وبدأ الجوع يؤثر فيه. رآه أحد المسلمين ذات مرة وهو ينام فوق الحصى والتراب فى السوق ، فرق لحاله ، وأخذه إلى داره ، وقدم له الطعام وأعطاه ملابس . وكانت أسرة هذا الرجل المسلم كثيرة العدد ، ولا يكاد منزله يسعهم ، لذلك أعطى أبى كوخاً ملاصقاً لداره . فقام أبى بمساعدة هذا الرجل الطيب بتغطية سقف الكوخ بالصفيح ، وقاما بفتح نوافذ الكوخ ونظفاه من الداخل . ثم أرسلا إلينا خطابا يقولان لنا فيه «أن احضروا» فذهبنا ، وقبل أن ندخل منزلنا هذا ، جلس أبى وأمى على عتبته وأمسك كل منهما بيد الآخر ، وأخذا فى بكاء طويل.

وجد أبى عملاً ، وقمت أنا طوال الصيف ببيع الماء فى السوق، عند مجئ

الصيف كنت أبيع اللب . كانت الحياة صعبة ، لكنا لم نكن نريد شيئاً كثيراً. لقمة فى الصباح ولقمة فى المساء مع كوب من الماء . وأحيانا حساء البقسماط الجاف كان يكفينا.. لم نكن نشكو . وعلى فرض أننا أردنا الشكوى : فمن من ؟ ولمن ؟

هل نحن فقط الذين كنا جياعا لا نملك الخبز ، ولا نملك بيتنا ؟! الحمد لله لقد انقضى الصيف . لكن شتاء هذا العام كان بالنسبة لنا مصيبة ! الرياح جامحة تأخذ بأغطية سطح الكوخ الصفيحية لتلقى بها . نفد الوقود : لا خشب ، لا حطب، لا فحم . أحضر جارنا محمد آغا آخر ما كان عنده من الروث الناشف . أوقدناه طول اليوم . نفد . بل وحتى لم يكف ، لأننا لم نستطع أن نسخن عليه كوبا من الماء ، للطفل الصغير ، كان محمد آغا يتردد إلينا ، يسأل عنا ، يريد أن يطمئن علينا ، لكنه لم يكن يستطيع عمل شئ غير الدعاء لنا . كان يدعو الله لنا فيقول :

– ساعدكم الله وكان فى عونكم.

ذهبت ذات يوم مع أخى بكر لنسرق فحماً لنستخدمه وقوداً للتدفئة، وبينما نحن نستل قطع فحم من عربة، أمسكوا ببكر ، أما أنا فجريت ، هربت . قام حوالى ثلاثة أو أربعة أشخاص وكانوا سائقين بضرب بكر . احمر وجهه احمراراً شديداً . ما أظلم الانسان ياربى ! فى سبيل بعض قطع من الفحم ، يضربون طفلا صغيراً فى العاشرة من عمره هذا الضرب الفظيع ! دفن بكر رأسه الجريح بين ذراعى أمه . أما والدنا فقد أدار رأسه نحو الحائط ، وأخذ كلاهما فى البكاء ، أبى وأمى . أما الصغار فقد لووا رقابهم واتجهت أنظارهم : مرة نحو أبى ، وأخرى نحو أمى.

ليست لدينا القدرة على محاربة عدونا المسلح الذى أسرنا وقذف بنا من بيتنا ووطننا وديارنا ، ونحن على هذه الحالة من البرد والجوع . وماذا فى أيدينا غير المعاناة والدعاء أن يكون الله فى عوننا ؟!

فى أوائل شهر ابريل ، مرض اثنان من إخوتى الصغار ، مرة واحدة ،

ودفنا (أسماء) المسكينة العزيزة على قلوبنا ، وكان ذلك فى نهاية إبريل . بعد ذلك بأسبوعين بالضبط ، أخذنا (صبرى) ذا الوجه الملائكى الصغير ، والشعر المجعد لنضعه بجوار أخته (أسماء) . وبذلك لم يبق فى العائلة من الأولاد إلا بكر وأنا . كنت فى السادسة عشرة من عمرى ، وأمى تريد أن تبعث بى إلى بلدة آى واصل . كان لعمدة هذه البلدة واسمه صبرى ابنة فى الرابعة عشرة من عمرها . كانت أسرتها تريدنى أن أتزوجها ، لكن كنت والفتاة ، مازلنا صغيرين ، وأمى تريد أن تتعجل هذه المسألة وكان أبى يعارضها فى ذلك فقد كان أبى يعقد على آمالاً كباراً . كان يريدنى أن أدرس وأتعلم ، أخذنى النعاس ذات مساء فجلس أبى يتحدث مع أمى قائلاً:

– لن أرسل صادقا إلى القرية .. إنه لم يولد ليعمل فى الكولخوز.

غيرت أمى رأيها بعد ذلك عندما جاء الربيع . وقد حصلت على عمل فى المدينة ، واستطاع أبى الحصول على عمل . وفى أول شهر مايو ، أحضر لنا خالى منصور ، من القرية ، كيساً من الدقيق ، فصلح بذلك حالنا.

وذات ليلة من ليالى الصيف الحارة ، كنت عائدا من عملى متجها إلى البيت وكنت أشعر بسعادة . قابلت والدى عند أول شارع القنطار ، فقال لى والدى:

– تعال يا صادق ! تعال ولنبعد من هنا إلى الناحية الأخرى من الشارع، فهى أكثر هدوءاً وخالية من الناس ، ولأقول لك شيئاً .

وضع يده على كتفى وأخذنا نسير نحو مقهى «جارداق» ، توقف أبى لحظة أمام المقهى ونظر إلى عينى ، كان والدى فى هذه الليلة يبدو وكأنه ازداد حدبا قليلا فى ظهره. لكن عينيه كانتا تلمعان بالفرحة والفخر.

قلت له :

– ماذا يا والدى؟!

– شئ مهم ، لكنى أريد موافقتك أولاً قبل أن أحدثك فيه . موافقتك شرط

لكى أتحدث.

واستمر والدى فى حديثه مبتسما .

– هل توافق ؟!

قلت له وأنا أضحك

– أوافق يا والدى.

– كيف حال عملك ؟

– لا بأس به يا والدى . قال لى المعلم فاضل إنه سيطلب من صاحب المطعم ، رفع مرتبى الشهرى من خمسين روبل إلى ستين . باع بالأمس نصف كيس دقيق ، فأعطانى نصف المبلغ.

– أنا لا أريد نقودا بهذا الشكل.

– وأنا أيضاً لم أكن أريد قبولها ، لكنه وضعها لى بالقوة فى يدى يقول إن هذا مال الحكومة . إن له فلسفة خاصة يا أبى ، إنه يقول مادامت الحكومة حكومة عمال وفلاحين ، إذن فالمال والبضائع لابد أن تكون للعمال وللفلاحين .

– على كل حال ، والمهم ، أننى أريدك أن تترك هذا العمل .

– أصحيح ما تقوله يا أبى ؟!

– نعم صحيح.

– ولكن ماذا عن الستين روبل فى الشهر ؟! أتمزح يا أبى ؟!

– أريدك بالفعل أن تترك عملك هذا .

– يعنى لو كانت النقود.. أقصد إذا كان ثمن القمح هو...

– لا يا صادق، فهناك شىء آخر.

– وماذا بيدى أن أفعله ؟ أليس عملى هذا أفضل من رمى الفحم بالمقذاف إلى العربات فى مخازن الفحم ؟

– أفضل طبعاً، لكن هناك أعمالاً أفضل.

سكت والدى، نظر إلى وجهى. دمعت عيناه ولمعتا بابتسامة ظهرت على

طرفى شفتيه، وقال :

– أريدك أن تتعلم يا صادق . أريدك أن تدرس وتصبح رجلاً. أنت تعلم أننى فى حاجة إليك، ولكن لست أنا فقط المحتاج إليك . كل الناس ينظرون إلى الشباب مثلك وكلهم أمل. كل الناس فى حاجة إليكم.

سكت والدى مرة أخرى، نظر إلى وجهى ثانية . كنت أدرك أن مسئولية كبيرة ملقاة على عاتقى . سرنا واستمر أبى فى التحدث معى قائلاً:

– المصائب التى حلت بنا، عانى الآخرون منها بدورهم . قاسينا كلنا ألم المحنة شعباً وأمة يا صادق . إذا لم يحرر الأمة شبابها فمنْ يحررها ؟! كل آمالنا معقودة عليكم . إنى أدرك أنك متيم جداً بالتعلم. كنت الأول فى كتاب القرية، قالت لى السيدة صفية كثيراً «اهتم بتعليم صادق» ولكن ماذا كان بيدى، فما أفدح ما مر بنا من مصائب فى السنتين الأخيرتين. لكن الوضع قد تغير الآن ولله الحمد. أحس بأننى قوى .

– حسناً يا والدى، وهل يقبلوننى فى المدرسة ؟

– نعم. إنى ذهبت إلى المدرسة الإعدادية فى (قياباش) وتكلمت هناك مع نيازى أفندى البالطاوى ناظر المدرسة. وهو من الجيل القديم. كلمته بصراحة . قلت له إننى كنت محبوساً . نبه على بألا أتحدث مع أحد فى ذلك. وقال لى أن أرسلك إليه فى بداية العام الدراسى. سيعقد لك امتحاناً ، فإذا نجحت فيه، فسيدخلك الصف السابع. إياك أن ترفض يا صادق . حذار من هذا . نيازى أفندى وافقنى كذلك على أن الأمة فى حاجة إلى شبابها المثقف. وافق على صحة رأيى .

توقف والدى عن الكلام ، ثم قال :

– إيه ! ماذا تقول ؟!

سكت ولم أنطق بحرف. أما هو فكان دائب النظر فى عينى. مسكين والدى ! كان واضحاً أنه يرضى بتحمل كل أثقال الدنيا وآلامها ومصاعبها على كتفيه. لكنه كان ينتظر موافقتى . وكان عليه بعد ذلك تحمل كل شىء:

العمل من الصباح حتى منتصف الليل، يجوع ليؤكلني، يكد ليريحني، وذلك في سبيل هدف واحد: أن أكون رجلاً . في تلك الليلة كنت أقرأ هذا في عينيه.

****

انتقلت مدرسة قياباش، في صيف عام ١٩٣٧ إلى شارع قرابيم في مبنى مكون من ثلاثة طوابق، كان المبنى أبيض اللون، نظيفاً، ممتازاً. ومن نافذة الفصل كنا نرى مئذنة مسجد طوقال، وهي مئذنة دقيقة رقيقة ترتفع إلى السماء كما لو كانت تخبئ في داخلها أسرار كل الأسطح المجاورة. لا أدري لذلك سبباً. لكنني كنت أدرك أنني كنت الوحيد تقريباً من بين زملائي في الفصل، الذي يسعد جداً بهذه المئذنة. وأحياناً كنت أثناء الدروس أنظر إلى المئذنة وأستغرق في التفكير. وأحياناً كنت لا أسمع حتى سؤال معلمنا الذي يسألنيه. في ذلك الوقت كان سليمان - زميلي في نفس المقعد- يلكزني برسغه أن أنتبه . كنت كلما أنظر إلى المئذنة أحس بالإيمان يغمرني، وكانت الحياة تملأ المنازل المجاورة لها. لقد كنت جزءاً من تلك المئذنة، جزءاً منها بروحي، رغم أن دروسنا كانت كلها ضد الدين، ورغم أنهم كانوا يعلموننا في المدرسة الإلحاد والفكر الشيوعي. كان هناك رباط موجود في كل بيت وفي كل سطح وفي كل عتبة منزل، يربط كل الناس والحياة، بل وكل الوجود بتلك المئذنة . هذا ما كان يخيل إلي. كان ذلك في العام الأخير في المدرسة والامتحانات تقترب . وكنت اتفقت مع زميلي سليمان على أن ندخل معهد الطب في مدينة آق مسجد، إذا نجحنا في الامتحان وبمعنى أصح إنني ضغطت على سليمان ليوافق على هذا القرار، لأنه كان يود دخول مدرسة الضباط لكن صداقتي المخلصة لسليمان انتصرت على رغبته هذه . أذكر جيداً أننا كنا ذات يوم دراسي وبالذات في حصة الجبر أن دق الجرس فإذا بمقاعد التلاميذ تطقطق، وكذلك أدراجها . خرج التلاميذ واتجهوا إلى الممر، ورويداً رويداً أخذ الفصل يخلو من التلاميذ، ولم يبق أحد في داخله إلا أنا.

بجانب النافذة، وفى هدوء عميق كنت أنظر إلى مئذنة جامع طوقال، وإذا بصوت بجانبى يقول :

– صادق ! صادق !

فالتفت، فإذا بسليمان .

– ماذا هناك ؟ وإلى من تنظر فى الخارج ؟!

– لا أحد. الشمس محرقة لدرجة أن الشوارع خلت من الناس.

– لا ، إن أحدهم هناك.

– أين ؟!

– على مئذنة مسجد طوقال .

– إن المسجد «مشمع» بالشمع الأحمر منذ أشهر، كما أن أبواب المسجد مغلقة بالمسامير .

قال :

– انظر جيداً.

نظرت هناك بعيداً.. نحو مئذنة مسجد طوقال، وهو بين خضرة الحديقة حيث تمتد المئذنة نحو السماء كإبرة دقيقة الصنع. كان سليمان محقاً. كان فى المئذنة شخصان. وبعد ثلاث دقائق تقريباً، اختفيا عن الأنظار . التفت إلى سليمان، وقلت له :

– هذه أول مرة أرى إنساناً فى مآذن مدينة آق مسجد. إن الأذان مازال يتردد فى القرى حتى الآن، لكن فى آق مسجد..

قال سليمان بصوت غليظ، وقبل أن أتم كلامى :

– لا عليك !.. إنهما لم يصعدا المئذنة ليؤذنا !

– إذن فلم ؟!

– إنهم سيهدمون المسجد.

انغرست كلمة «سيهدمون» هذه، فى قلبى كالسكين. أخذ جسمى كله يرتعد، فأدرت ظهرى إلى النافذة كما لو كنت أود التخلص من هذا الخوف

الذى سيطر على قلبى فجأة.

– كفاك هراء . هل هدموا مسجداً من قبل حتى يهدموا مسجدنا هذا .

– نعم يهدمونه، ولم لا ؟ عندما كنت قادماً إلى المدرسة صباح اليوم، رأيتهم يربطون المئذنة بسلاسل حديدية، وكانت هناك آلة ضخمة ترابط فى حديقة المسجد .

– من هم هؤلاء الذين تتحدث عنهم ؟

– الروس.

كان سليمان معلقاً نظره بالمسجد. أما أنا، فلسبب غير معروف، كنت أعاود تصورى للمساجين وهم يمرون أمام منزلنا فى شتاء عام ١٩٣٢. كنت وكأننى أسمع كلمات أبى صادرة من عربة النقل التى كانت تقل المساجين. كلماته ترن فى أذنى قائلة : «ادع لى ! ادع لى».

أيقظنى من استغراقى هذا، سليمان . قال لى وهو بجانبى :

– انظر يا صادق ! إن هذه المئذنة تتهاوى !..

نظرت إلى المئذنة فوجدتها تهتز. هذا الشىء الذى كان يتزلزل أمامى ، كان شيئاً يحيينى ! يبعث فى الإحساس بالحياة.. أمسكت سليمان بيدى المرتعشتين.. لم يكن سليمان يفهمنى، بل حتى لم يكن ينظر إلىّ. كانت عيناه معلقتين بالمئذنة. كان يصيح بانفعال طفل وجد شيئاً غريباً .

– إنها تسقط ! تسقط !

ألقيت نظرة أخرى فإذا بمئذنة مسجد طوقال تختفى من أمام ناظرى. ومع اختفاء المئذنة، انطفأ بالتالى جمال الحديقة، وارتفع من بين الخضرة دخان عديم اللون نحو السماء ، كنت بكل كيانى مازلت أسير ذلك الشئ الذى كان يهتز – منذ حين– فى نفسى. انهارت المئذنة، وانتهت، أما أنا فلم أكن أستطيع أن أنهار ولا حتى أن أقف على قدمى. كنت أفر، كنت أهرب. إلى أين ؟ ولماذا ؟ لا أدرى. كانت الحياة بالنسبة إلى، كلمة لا معنى لها : أصبح كل شىء فى نظرى عدماً. الفصل فى المدرسة، سليمان، المنازل فى

الخارج، الناس، وكل شيء . انهارت المئذنة، ومع انهيارها وانهيار الشيء الذي يحييني، خرجت من الفصل ولا أدرى كيف خرجت ولا أستطيع أن أتذكر كيف نزلت من على السلم. أكثر ما أذكره هو أننى كنت أجرى فى شوارع المدينة هلعاً وباندفاع والعرق يتصبب من جبهتي، ومن خدى. وبمجرد أن دخلت منزلى انكفأت على قدمى أمى المسكينة. لم تكن تدرى ماذا حدث . كانت تبكى وهى تقبل جبهتى دون توقف قائلة :

- تكلم يا بنى ! ماذا حدث ؟!

أما أنا فلم أكن أستطيع قول شيء.. لم أكن أستطيع حتى أن أبكى. وفى اليوم التالى أخذنى أبى إلى الطبيب، ولم أكن مريضاً. أمسك الطبيب بصدرى وبكتفى ، وقال وهو يضحك :

- اذهب إلى المدرسة يا صادق. لست مريضاً . أنت سليم كالحديد.

ولم أذهب إلى المدرسة. ولم يجبرنى أبى أيضاً على الذهاب. كان هذا الرجل يعيش فى روحى وفى قلبى. كان عالماً مليئاً بالحياة . كان فى الليل يحكى لنا سيرة قوزى قوربيج وجورا باطور.

أخذنى فى جولة، فوصلنا قرب مسجد طوقال. وعندما اقتربنا من الحديقة بسورها الحديدى حيث كان المسجد - قبل هدمه - يقع فى وسطها، بدأت جبهتى تتصبب عرقاً بارداً. لم أكن أود الذهاب إلى هناك . لكنى لم أفصح لوالدى عن هذا. كان والدى أحياناً يمسك بيدى عنوة ويمشى ثم يشير إلى بقايا المسجد التى أمام الحديقة ويقول :

- انظر يا صادق . أماكن عبادتنا التى بذل فيها أجدادنا العرق والمال، تراها الآن تحت نعال أحذية أعدائنا !

ولم أنظر حيث أشار، فالعرق البارد مازال يتصبب من جبهتى. وقلبى فى صدرى يدق كما لو أنه مطرقة ! كنت أريد أن أهرب . كان أبى يفهم هذا غالباً ويدرك كل الأسرار التى تعتلج فى نفسى. ولكن لا أدرى لماذا لم يكن يترك يدى ؟ كان يقول :

– انظر ! انظر إلى هذه الأطلال التى تخلفت من هدم المسجد.

أجل لقد منحنى القوة والشجاعة عندما قال :

– ينبغى لنا أن ننظر إلى هذا ولا نخاف. أعداؤنا هم الذين عليهم أن يخافوا، أما كيف ؟! إن ظلمهم لنا دليل خوفهم منا. لو لم يخافوا منا لما ظلمونا. إنهم يعملون منذ مائة وخمسين سنة للقضاء علينا. مائة وخمسين سنة، ولهذا فنحن اليوم حفنة قليلة من التتار فى هذا الوطن، فى القرم. ولأنهم لم يقضوا علينا تماماً فستظل نفوسهم غير هادئة. لكنهم حتى إذا قضوا علينا، فإنهم لابد سيقفون أمام أرواحنا يرتعشون . انظر جيداً يا صادق إلى هذه الأطلال ! أنت قطعة من هذه الأطلال .. إن هذه الأرض هى التى ولدتك، هذه الأرض غذتك، ربتك، واعلم أنك لا تقف وحدك، فمعك تاريخ غنى لأمة عظيمة، ومعك أيضاً مستقبلها اللامع، إن مآذننا ترتفع فى السماء من مدينة بغجة سراى وحتى مدينة كاشغر. إنهم يسمون بعضنا بالتتار، ويطلقون على البعض الآخر منا: الجراكسة. يسمون بعضنا بالتركمان والبعض الآخر بالقوزاق، بل وبأسماء أخرى: الأوزبك والآذريين والقراقالباق والششن والأويغور والقاباردى والباشقير والقيرغيز. كل هذا كذب يا صادق. إن البحر لا يتجزأ ـ نحن أتراك ـ تتار، وكما يعرف قلبك هذا، فقلوب جميع الباشقورد والقيرغيز والقوزاق تعرف هذا . تحرك يا صادق بحركة قلبك. ولا تنكب على أطماع الدنيا الفارغة.

وبعد أن قال أبى كلماته هذه، ارتاح قلبى وشعرت بالسعادة وتغير موقفى وعدنا إلى منزلنا والسعادة العظيمة تغمرنى، وأشعر بالفخر غير المتناهى.

إذن فأبى ليس أبى فقط، لكنه شىء عظيم أكثر مما هو عظيم، وعزيز أكثر مما هو عزيز.

كان المساء يرخى سدوله عندما كنا ندخل مدينة بغجة سراى. اضطراب لا نهائى يهبط مع المساء على أسطح المنازل الواطئة. كنا نسمع أحياناً

أصواتاً من هنا ومن هناك، متقطعة، مبحوحة، مهمومة. كان الضوء فى بعض المنازل يحترق وينطفئ ، وفي بعضها الآخر كانت المصابيح موقدة وتبدو كأنها تريد أن تفرح ولو قليلاً، فى ساعات المساء الحزينة، كان هنالك أمام بعض المنازل بعض كبار السن يرتدون السراويل الواسعة الفضفاضة، وعلى رؤوسهم القلانس، وفى أيديهم العصى، وبهدوء يغوصون فى الظلام وهم يضربون على الأرض بعصيهم ورؤوسهم منحنية نحو الأمام. حياة المساء فى بغجة سراى كانت تبدو لى فى البداية ساكنة منكسرة. لكنها فى الواقع لم تكن كذلك. لم يكن الإنسان فقط، بل حتى الطقس والسماء والمياه والمنازل، تبدو كأنها تسمع فى صمت تلك السعادة التى كانت موجودة على هذه الأرض قديماً. هذه الأرض التى تحتوى مقابر خاناتنا على مياه جوروك صو .

كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها بغجة سراى التى لم أقف على سرها إلا فى اليوم التالى حين بدت بغجة سراى أمام ناظرى كأنها البانوراما الساكنة الحية. عندما كنت أنظر إليها فى أحلك أيامى سواداً، أحس بأن النيران المشتعلة فى نفسى قد تحولت إلى دخان ثم تهدأ. بتنا فى تلك الليلة فى منزل خالتى، وفى اليوم التالى، تركت والدى ، وأخذت أتجول فى بغجة سراى بمفردى . تجولت فى القلاع المحيطة. أخذت فى مشاهدة إحساسات قلبى فى أطراف قلعة (جوفوط) لم أشعر فى لحظة قط من لحظات حياتى أننى سعيد مثلما كنت سعيداً فى تلك اللحظة.

كانت مدينة بغجة سراى تمنحنى الأمل وتمنحنى القوة، ترفع روحى المعنوية وتقوى إيمانى، كان الوقت، وقت ميل الغروب، وأخذت آخر إشعاعات ترسلها الشمس، فى النزول من على مآذن جوامع السلاطين الكبيرة؛ لتمشط أبراج الحريم وحدائق قصر الخان وتلاله. ثم تأخذ الأشعة فى التراجع نحو الغرب. تفرجت على الأطفال الذين استندوا إلى درابزين الجسر الخشبى ليلعبوا لعبة الحرب... كنت أنظر إليهم وأفكر فى جميع بغجة سراى ثم

وبهدوء، أخذت طريقى إلى قصر الخان وعندما اقتربت من باب القنطرة، أحسست فى نفسى بفرحة يشوبها الحزن، ترى كم كيراى (حاكم) وكم آغا (سيد وأمير) مر من هنا. دلفت إلى فناء القصر: النوافذ الزجاجية الملونة، الشادروانات وقد جفت منها المياه، عيون الماء ، أبراج الحريم .. كل هذا بدا وكأنه اختلط بسعادة الماضى ثم غط فى سبات عميق .اتجهت فى جولتى نحو مقبرة الخان الحاكم، وكانت فى مواجهتى. ها هم أولاء حكامنا يرقدون تحت نصب حجرية تعلوها عمائم منحوتة من الحجر ! ... هؤلاء الحكام كانوا حتى الأمس القريب حجر عثرة أمام أعداء الوطن وأعداء الشعب والشرف.. دافعوا عنه، من منطقة الإيديل وحتى سواحل نهر الطونة (الدانوب). منعوا تقدم العدو من على الطرق والمراعى وكل المنطقة أما الآن فلم يبق فى قصورهم غير أشباحهم وغيرى . سرت نحو الباب الخلفى من القصر فإذا بحديقة واسعة حيث كانت الحمامات المرمرية تأخذ مكانها هنا أما الآن فالحديقة مهملة . وكل جناح فى القصر قد تحول إلى خراب. سقط جسمى إعياء من التعب، وكذلك حدث لذهنى تمددت فى ظل شجرة السنط، واستغرقت فى التفكير فى تاريخى المجيد وتاريخ أجدادى العظام أخرجت قلمى، وفتحت كراستى، وأردت أن أكتب قصيدة بعنوان : «انطقى أيتها الجدران» لكن الجدران لم تنطق بشىء وسرعان ما أغلقت عينى واستغرقت فى ذلك الهدوء الروحى الذى يسود المكان .

أرى هناك بعيداً ، منزلاً صغيراً يتوسط الخضرة والأشجار، وثلاثة من كبار السن يجلسون أمام المنزل. البياض الناصع يغطى شعر رؤوسهم ولحاهم . خدودهم حمراء. الثلاثة طوال القامة، سليمو البنية. أما أعمارهم فيعلمها الله ذلك لأنهم يعطون تصوراً أنهم خلقوا يوم خلقت الدنيا، يوحى حالهم بأنهم سيعيشون أبد الدهر. وأمام هؤلاء الثلاثة : صبيان صغيران فى حوالى الثانية عشرة من عمرهما، يتصارعان. جسمان نحيلان يتصارعان يمسك بعضهما بعضاً. شفاهما مزبدة، والعرق يتصبب من

خدودهما يعمل أحدهما على أن يطرح الآخر أرضاً . نهضت من مكانى واتجهت إلى هذا الجمع الكهول الثلاثة رأونى، لكن لم تبدر منهم حركة تشعر باهتمامهم بمقدمى . كل واحد منهم يحمل عصا يلوح بها كانوا يصيحون بالصبيان، يشجعون أحدهما على الآخر بقولهم:

- خذه ركبة !

- اطرحه أرضاً !

- اضربه كعباً !

وأخيراً انهزم واحد من الصبيين . عاد المنتصر منهما ليجلس مع الكهول الثلاثة يقول :

- هيا يا جدى نفذ وعدك .

أما الجد فقد كان يبدو فى غاية السرور بنتيجة هذه المصارعة، كما يبدو وكأنه وعد الصبى ليحكى له الحكاية ، لأن الكهل بدأ كلامه قائلاً: «كان ياما كان . كان فى أول الزمان» تدخلت أنا فى الكلام مازحاً بقولى : «ولا يحلو الكلام إلا ...».

أدار العجوز رأسه نحوى ونظر إلى بجفاف ، لكنه لم ينطق بكلمة، ثم انحنى على زميليه وهمس لهما بشىء . واقترب الثلاثة بعضهم من بعض وأخذوا فى التحدث فى أمر ما همساً. ثم بدأ العجوز الأول فى الكلام وهو الذى كان سيقص القصة على الصبى.

- أحب أرسلان بن عظمت ، فتاة حباً ملك عليه شغاف قلبه، فأرسل من يطلبها له من أبيها. فقال والد الفتاة لأرسلان:

- أيها الفارس إن شعر ابنتى حرير، وعيونها تفاح وجسمها غصن. وأنت شاب يافع لم تنضج تجربتك بعد. سيفك لم يخرج من غمده بعد، فكيف أزوجك من ابنتى ؟!

اهتز فتانا الشجاع من هذا الكلام الذى تفوه به والد الفتاة. التاعت نفسه يا ويلاه ! فترك البلاد فى نفس اليوم، وساح . مضت أربع سنوات لم

يعد فيها إلى بلاده، كما لم يرسل لأحد عنه خبراً .

في ذلك الزمان، كان فى (بوجاق) مصارع رهيب طبقت شهرته الآفاق يسمى أرسلان. ترى أكان هذا المصارع المشهور هو فتانا الفارس الشجاع أم غيره ؟ لا أحد يعرف هذا لأن كثيراً من هؤلاء المصارعين كان يحمل اسم أرسلان. وهم أيضاً كانوا فى شهرة واسعة سواء فى (جان بولاط) أو فى (يداسان) أو فى غيرها.

وأخيراً ، وفى ذات مساء دخل المدينة من ناحية القصر فارس وكان كالصاعقة. اقترب من القصر، كان مصارعاً تبدو عليه سمات العظمة والأبهة : قلنسوته كانت كقلنسوة السلطان محلاة بالماس. كان حزامه ومهمازا حصانه وركاب سرجه من الذهب الخالص. توقف هذا الفارس أمام المقهى الذى كنا نجلس فيه. نظرنا بتفرس إلى هذا المصارع الغريب، نظرنا إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. ترى من يكون ؟ لم يكن هنا أحد يعرف سره.

صاح الفارس المصارع بنا قائلاً :

– ألم تعرفونى !

صاح واحد من بيننا وقال :

– سبحان الله ! إن هذا الفارس المصارع إنما هو أرسلان الذى نعرفه .

نعم ، كان هو أرسلان بن عظمت ، الفارس المقدام ، الذى أبدى من ضروب الإقدام والشجاعة الشىء الكثير فى جيش بوجاق ! كما أغار على قرى ومدن بولندا . لا يستطيع أحد أن يحصى عدد الأسرى الذين وقعوا بين يديه من كثرتهم . إن الجواهر التى يملكها ، لا يقوى الحساب عليها . أصبح اسم أرسلان رعباً فى قلوب الذين يعيشون فى أرض الخان الحاكم . واسمه كان يتردد فى كل مكان حتى فى القصر ، كنا ذات يوم نجلس فى المقهى نذكر حروبه ، وكان أرسلاننا هذا أيضا فى المقهى . ثم دخل مصارع

غريب أكثر طولاً من أرسلان ، على رأسه قلنسوة مشغولة من الحديد ، يحمل سيفاً فى يده وكانت يده مغطاة بقفاز من حديد . توقف هذا المصارع المدجج بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، توقف عند الباب تتقد عيناه شراراً ، ركز نظراته على أرسلان المقدام ، ثم قال :

– أيها الفارس أرسلان بن عظمت ! ما أظلمك !

وقفنا ، ووقف كل من فى المقهي ، ننظر إلى المصارع الأجنبى الذى استمر فى حديثه قائلاً :

– لقد أحرقت بلادنا ، وقتلت أبى ، وبعت فتياتنا فى مدينة (كفه) أسيرات فى سوق الحريم .

ثم أخرج قفازه وألقاه تحت قدمى أرسلان وصاح به قائلاً :

– أيها المصارع ! هل تخلو الدنيا من فاقد لروحه فى سبيل وطنه ؟! إما الأسر أو الموت ! لك أن تختار بينهما ، فاخرج أمامى ، يا أرسلان !

استطاع مقدامنا أرسلان أن يعرف هذا الأجنبى . إنه مصارع بولندا صارح أرسلان قائلاً بعد أن دفع القفاز الحديدى بسيفه:

– لقد أعملت فى بلادكم القتل والحرق ، هذا هو ما حدث أيها المصارع البولندى ، ولقد أسرت ثلاثة آلاف بعتها إلى حريم السلطان فى مدينة (كفه) لكن فعلت كل هذا بشرف . قابلت الفارس بفروسية ، وأشهرت السيف أمام السيف ، ورفعت السهم أمام السهم . والمصارع الذى يموت فى سبيل وطنه مصارع ، أيها المصارع . أما الأسر فيعنى الإساءة إلى شرفى وإلى عائلتى لذا فإنى أفضل الموت!

وبمجرد أن قال هذا ، استل سيفه واندفع إلى الأمام .

سررنا نحن كثيراً أملاً فى مشاهدة معركة بين مصارعين ، إلا أن أحد موظفى القصر كان فى المقهى ، ولما عرف الأجنبى ، انطلق فجأة نحو الأمام وصاح قائلاً:

– إنى أعرف هذا البولندى ، إنه سفير ! إنه سفير! اقبضوا على

أرسلان! اقبضوا على أرسلان! قام المصارعون وغيرهم ممن فى المقهى بالإمساك بأرسلان .

قال الأمير أرسلان متوسلاً :

– دعونى ! أستحلفكم بالله أن تتركونى !

قال أحد المصارعين الموجودين بالمقهى وكان الشيب يملأ شعر رأسه ولحيته :

– قف يا أرسلان ! ماذا دهاك؟! هل يستل أحد سيفه فى وجه سفير فوق أرض الخان ، حاكمنا؟

قال أرسلان وهو يقاوم :

– أيها السادة ، ألم يدعنى هذا المصارع لقتاله ؟ لا تعترضوا طريقى ! الشريف لا يتحمل هذا أيها السادة !

قال المصارعون القدامى :

– نعم أيها المقدام أرسلان . إن الحق معك . هذا المصارع هو الذى دعاك للقتال . لكن خبر استلالك للسلاح ضد السفير ، إذا انتشر ، ألا يأمر خاننا المعظم بالقبض عليك وفصل رأسك عن جسدك ، ثم يأمر بتعليقك على «خازوق» أسوة بالكفار؟!

قال أرسلان :

– لكن المسألة الآن وصلت إلى الشرف لذلك يبدو تعليقى على الخازوق أمراً هيناً .

ولم يتركوا أرسلان بن عظمت . ولما عرف السفير أن أمره انفضح لم يره أحد مرة أخرى فى بغجة سراى .

اصفر لون الفارس أرسلان وامتقع . لم يعد يستطيع النظر إلى وجه أحد ، بحجة أن شرفه قد خدش . أراد أصدقاؤه أن ينسوه مصارع بولندا ، بقولهم:

– اصبر يا أرسلان . اصبر ، الصبر مرّ لكن ثمرته حلوة . إلا أن

أرسلان المقدام لم يستطع النسيان . نسى فتاته ، لكنه لم يستطع نسيان المصارع البولندى . كان يبكى ويقول : شرفى ! شرفى ! ولما وجدوا أن هذا الحال لا ينتهى . قام الموجودون فى المقهى فى تلك الليلة بالذهاب إلى (كالكاى) ووصفوا له حالة المقدام أرسلان . فقال (كالكاى) :

– نعم . نعم . إن أرسلان مقدام لا يعرف الخوف ولكن إذا مس أحد سفيراً فى بلاد الخان فمعنى هذا أن يطير رأسه ، ويعلق على خازوق عقاباً كعقاب الكافر .

لكن (كالكاى) وعد بأنه سيعرض الأمر على الخان المعظم فى أول فرصة تسنح . وعندما علم الخان من كالكاى بأن أرسلان شهر سلاحه فى وجه سفير بولندا ، اشتد غضبه فأصدر الأمر بقطع رقبة أرسلان على الفور ، إلا أن كالكاى انكفأ على قدمى الخان وتوسل إليه قائلاً :

– مولاى الخان العظيم ! إن المقدام أرسلان لم يرتكب ذنباً ، فالسفير هو الذى بدأ . إن المقدام أرسلان بن عظمت ، صنديد لا مثيل له فى (بوجاق) كلها .

وعندما فطن السادة فى المقهى أن المصارع الأجنبى سفير ، اختفى السفير من بغجة سراى . ولا أحد يعرف الآن أهو فى أراضى بلادكم أم فى بلاده لكن أرسلان المقدام يموت من الهم . وربنا العظيم ، شديد الرحمة .

قال الخان :

– إذن ائذن له ليذهب ليبحث عنه وليتصارع معه ويعمل ما بدا له ، لكنه إذا رفع يده على السفير فى أراضى مملكتى فإنى آمر بقطع رأسه ورميه إلى الكلاب وألعن أجداده .

وعندما سمع الأمير أرسلان بن عظمت هذا ، سر سروراً عظيماً . وغادر البلاد ساعة صدور الإذن له ، وظل عامين يجوب بلاد الأعداء ، بحثاً عن غريمه ، لم يترك مدينة ولا قرية إلا وسأل فيها ، لكنه لم يجد مصارع بولندا

فى أى مكان . وذات يوم سمع أن المصارع البولندى قد وقع أسيراً فى قوزاق الدنيبر ، فذهب إلى الدنيبر . وكانت المعلومات التى سمعها أرسلان صحيحة . وعندما علم القوزاق بأن أرسلان الفتى المشهور يبحث عن المصارع ، طلبوا ذهباً فى مقابل تسليمه البولندى ، لكن ما قيمة الذهب عند المقدام أرسلان الذى يريد المصارعة فى سبيل شرفه ! دفع المقدام أرسلان المال المطلوب وتسلم الأسير ، وقال له فى نفس اليوم الذى تسلمه فيه :

– انظر أيها الشجاع ! لقد اشتريتك ، لكنك الآن لست أسيراً . أعتقتك . لكن لك أن تختار مكاناً شرط أن يكون بعيداً عن أراضى الخان حاكمنا . وهناك نتصارع . ذلك لأنك مادمت دعوتنى للمصارعة فلابد أن نتصارع .

أجابه المصارع البولندى:

– أيها الأمير أرسلان الذى لا نظير له فى جيش (بوجاق) ! لقد أنقذتنى من يد القوزاق عديمى الحياء . فلتسمح لى أن أكون ذراعك التى تبطش بها فإذا رأيتنى أستحق هذا الشرف ، فدعنى لكى أحارب فى سبيلك وليس ضدك ، لكى أحارب حتى أموت من أجلك .

وبعد أن أجابه البولندى بهذا المنطق ، عاد الاثنان إلى بلاد القرم وقد تصادقا وتزوج الأمير أرسلان من الفتاة التى كان يحبها ، وبعد قليل أسلم المصارع البولندى وانضم إلى جيش الخان جندياً مخلصاً صادقاً» .

ولما انتهى الجد من حكايته ، قام والتفت إلى قائلاً:

– من أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟

قلت :

– جئت إلى بغجة سراى ، أريد مشاهدة قصر الخان .

– هل أنت تتارى ؟

اكتفيت بهز الرأس بالموافقة.

قال الجد :

– أنا من هنا . ومن الصعب وجود أحد يعرف بغجة سراى أكثر منى ؟ تعال وسأصطحبك فى جولة لترى بغجة سراى .

قال لى الجد هذا وسار ، وتبعته أنا . وكلما سرنا ، قلّت أشجار اللوز وأشجار السنط ، كنا ندخل غابة مظلمة موحشة . كان الطريق الضيق الذى نسير فيه يبدو وكأن أحداً لم يطأه بقدمه منذ مئات السنين . كانت الأشجار الشوكية تعترض طريقنا كما كانت الزهور السامة تتواجد حولنا . الأشواك تنغرس فى قدمى ، والنباتات المتسلقة تبدو كأنها تريد أن تأسرنى . كانت تتسلق على وجهى وعينى . توقفت لحظة . تلفت حولى . فإذا بالجد يختفى ليس له أى أثر فى المكان . كنت أسمع ضربات قلبى فى هدوء المكان .

صحت بأعلى صوتى منادياً :

– يا جدى !

وإذا بصدى صوت يأتى إلى مسامعى قائلاً :

– سر يا بنى ، سر !

جريت وناديت :

– أين أنت يا جدى ؟!

وقفت لأستمع . ولا جواب . يغرد طائر بين الأشجار وفوق رأسى مباشرة يدى وساقى ترتعشان . كنت أظن أن الوحوش من نمور وصقور تستعد لتفترسنى .

– ياجدى ! أين أنت يا جدى ؟!

وإذا بالصوت الذى سمعته منذ حين يأتى بطيئاً إلى مسامعى ، ليقول :

– سر ! تقدم !

وسريعاً تقدمت إلى الأمام . كنت وأنا أسير ، أحطم فى طريقى النباتات الشوكية المتسلقة التى تعلقت بقدمى ، وبيدى . وبعد أن تقدمت قليلاً ، رأيت جدولاً مائياً يترقرق فى مسيره بين الأشجار فى أرض مستوية جريت نحو الجدول والعرق يتصبب منى والتعب قد نال منى .

وعلى الضفة الأخرى من الجدول ، رأيت الجد العجوز وقد وقف كتمثال من حجر . أدرت رأسى نحو الغابة الرهيبة التى كنت أعبرها منذ حين ، خيل إلىّ أن الفهود مازالت تطاردنى . اندفعت من شدة هلعى نحو الجدول . أدمت الأحجار ركبتى . وعندما عبرت إلى الضفة الأخرى التى بها الجد صرت أضحك على خوفى الذى كان يتولانى منذ لحظة . كل المخاوف الآن ، أصبحت وراء ظهرى . أصبحت الآن فى اطمئنان . لم أعد خائفاً مثلما كنت. ولكن أين بغجة سراى ؟! أين قصر الخان ؟ بل أين أنا ؟ المكان محاط بالجبال العالية والوهاد ، قلت للجد العجوز متسائلاً وكان يقف أمامى بلا حراك :

- إلى أين تذهب يا جدى ؟

لم يجب العجوز . رفع عصاه بعد قليل وأشار إلى قمة الجبل الذى أمامنا ، ثم تقدم دون نظر إلى وجهى .

أدركت وإن كان متأخراً أن العجوز رجل لا يوثق فيه . وأننى أصبحت فى موقف حرج عسير التخلص منه . ولكن ماذا بيدى أن أفعل ! أمامى نهر واسع وغابة مظلمة .. الجبل .. العجوز الصامت .. ولا طريق ولا أثر من حولنا . كان العجوز يتلفت إلىّ ونحوى ، ثم وبدون اهتمام بى يأخذ طريقه فى مواصلة السير . جلست على حجر وأخذت أبكى بكاء حاراً .. ثم وببطء أخذت فى النهوض من مكانى وسرت خلف العجوز ، كرهاً أو طوعاً ، أردت أم لم أرد .

عبر العجوز أرضاً صغيرة منبسطة ، تسلق الآن التلال . كنت أسير تحت الشمس الحارقة ، وفوق الأرض الشوكية ، وقدماى تصطدمان بالحجارة الحادة الأطراف زاحفاً على أشجار قصيرة جافة ، كما تزحف الثعابين ، كنت أقوم وأقعد ، لكنى كنت أواصل المسير . كان حلقى يجف . ومع كل هذا ، كان العجوز هو أملى الأخير ، تحت هذه الشمس الجهنمية ، وعلى هذه التلال الجافة التى ينقطع فيها أثر الحياة لكنى كنت أحياناً أفقد

أثر العجوز ، وساعتها كنت أصيح بقدر ما ملكنى الجهد :

– يا جدى ! يا جدى !

كان العجوز يظهر أمامى أحياناً ، وأحياناً يختفى . فهمت أن نهايتى اقتربت ، إذن فالعجوز قد أتى بى إلى هذا المكان لكى ألقى حتفى . أريد السير لكنى لا أقوى على النهوض . إنى أنهار ولم تعد بى رغبة فى النهوض. ياربى ! أمتنى ياربى ! اللهم اقبضنى إليك . رفعت رأسى ثانية . ألقيت نظرة حولى ، لعلها آخر نظرة لى إلى الدنيا ، وحتى لو كانت هى الأخيرة على الحياة ، إلا أنى كنت أريد أن أموت ناظراً إلى الدنيا . انتصب العجوز أمامى كأنه تمثال حى . كنت أموت ، ومع ذلك فلم يفتح العجوز فمه . لم يكن لدى هذا الرجل أدنى إحساس فقد كان مجرداً من الشعور . أما أنا فلن أطلب منه نجدة ولا أن يمد لى يد رحمة . صحت وأنا أعتدل والدم ينزف من ركبتى ، قائلاً :

– اقتلنى أيها الرجل الظالم ! اقتلنى حتى أستريح .

اقترب العجوز منى . رفع عصاه ودفعها فى صدرى ، وقال :

– اذهب لتموت . لتموت يا ابن العاهرة ! أنت لم تولد لتعيش . أنت ولدت لتموت . اذهب ومت ، وسيموت الآلاف بسببك . إن الأرض التى تسير عليها ستبتل بدموع آلاف الأمهات وآلاف الأطفال . ستئن هذه الأرض بصرخاتهم .. اذهب لتموت وليتك مت قبل أن تولد . فاذهب ومت .

قال العجوز هذا وهو يشير إلى هاوية على جانبى الأيمن . نظرت إلى الهاوية ، فوجدت فى قاعها عظام وجماجم آلاف من الناس وقد اختلط بعضها ببعض ، وبين العظام رأيت ثعابين سامة قد لفت حول نفسها واستدارت . كانت تتدفأ فى الشمس . الموت قد ظهر بكل ما يثيره من فزع أمام عينى . انكفأت على قدمى العجوز وأخذت فى التوسل إليه وأنا أقبل – وبلا توقف – يديه وقدميه ، وأقول :

– سامحنى يا جدى ! سامحنى .. أريد أن أعيش . اعف عنى يا جدى .

قال العجوز بصوت خفيض :

- انهض يا بنى ، وسر !

سرت ، وقد أغلقت عينى اللتين انتفختا واحمرتا من البكاء وأنا أقول :

- لقد ولدت لأعيش . ولدت لأعيش .

تماسكت . لم أبك . ولم أنتظر نجدة ، بل ولم أسأل العجوز مرة أخرى إلى أين نذهب ، لكن سرت فى قلبى - بالتدريج - فرحة : الفرحة بالحياة ، حب الحياة . لم أكن أدرى إلى أين كنا نذهب . لكن المكان لا يهمنى . كل ما كنت أريده هو الحياة والسرور . رفعت رأسى ونظرت نحو الأمام . كنا فى تلك اللحظة فى هضبة مفروشة بالخضرة . وكان الهواء عليلاً رقيقاً يهب . توقفت ولم يعد فى نفسى أدنى خوف . جاء العجوز وجلس بجانبى أشار إلى مكان لأجلس عليه ، وبجانبه جلست . انحنى على أذنى وهمس قائلاً :

- لقد وصلنا يا بنى . انظر إلى أسفل . إن بغجة سراى تستيقظ الآن من النوم !

انحنيت من على الجبل الذى نحن عليه ، ونظرت إلى أسفل : صباح يشوبه الضباب . مدينة تأخذ فى الظهور رويداً رويداً بفعل أشعة الشمس . المآذن الدقيقة ترتفع إلى السماء . المنازل . زجاج القصر يضوى كالمرايا . كانت تتناثر أمام عينى مدينة أسطورية .

سألت العجوز عن اسم هذه المدينة الجميلة ، فقال وكأنه يهمس :

- إنها بغجة سراى .

حسبت المدينة بشكلها هذا ، الجنة بعينها . الزهور المتعددة قد تفتحت فى الحدائق . أقفاص العصافير فى نوافذ المنازل . الشادروانات الفستقيات. الحمامات المرمرية . ورويداً رويداً أخذ الناس يسيرون فى الشوارع بملابسهم الحريرية النظيفة ، كما بدأت القوافل تدخل المدينة . أخذت مدينة بغجة سراى تبدأ حياة يوم جديد من حياتها الهانئة السعيدة .

وفجأة ظهر فى الأفق البعيد ثمانية فرسان تقريباً وأخذوا فى الاقتراب من المدينة وهم يثيرون عاصفة من الغبار حولهم .

– يا جدى ! هل ترى هؤلاء الفرسان ؟

– أراهم يا بنى . هؤلاء قادمون من (قازان) وسيدخلون القصر .

– ولماذا يا جدى ؟

قال لى العجوز بصوت خفيض :

– اعتدى الروس على (قازان) فأرسل خان قازان خبراً بذلك ، يطلب النجدة .

الفرسان يدخلون القصر بسرعة البرق . وكأن الحياة توقفت تماماً لوقت ما . ثم سريعاً بدأت استعدادات فى القصر ، بل وفى كل المدينة ، وأخيراً فتحت أبواب المدينة ودقت الطبول والمزامير ، ثم خرج شخص يحمل سيفاً ويرتدى لباساً براقاً . أعقبه الأمراء المسلحون ثم خرج الجنود صفوفاً من المنازل ومن القرى ومن السهول ومن الغابات . كلهم يخرجون خلف الخان المعظم الذى ترك قصره . كانوا يسيرون وكأنهم أنهر تصب فى البحر . كلهم تجمعوا فى مكان فتكون منهم الآن بحر زاخر من الجنود . وقف الخان المعظم ليلقى خطاباً وهو شاهر سيفه . الحناجر كلها تردد كلمتى : الانتقام ! الثأر . تخرج الكلمتان من الحناجر لتهز الأرض ، لتصل إلى عنان السماء . خرج الجميع دفعة واحدة ، ساروا فى الطريق المؤدى إلى الشمال .

غيمت السحب الرصاصية اللون ، الثقيلة ، على سماء الشمال . كان لون هذه السحب آخذاً فى السواد . وكان الجو يوحى بأن عاصفة ستهب . سألت العجوز وكان يجلس بجانبى غارقاً فى التفكير :

– إلى أين يسير هؤلاء الجنود الكواسر ؟

أجابنى بقوله :

– نحو الشمال .

سألته ثانية .

– وهل سيعودون ؟

أغلق عينيه برموشهما البيضاء بياض لحيته وقال :

– لن يعودوا .

وسالت دموعه على خديه . دموعه التى تجمعت بين أهدابه ثم أخذت تتساقط .

فتحت عينى ورفعت رأسى الذى ثقل على . ماذا الذى كنت أرى ؟ أكان حلماً ذلك الذى رأيت ؟! نعم . انت رؤيا . ولقد أيقظنى من حلمى هذا صو وقع حذاء ذى نعل حديدى من تلك التى يرتديها الجنود الروس .

(٢)

روما، في ١٩٤٦/٤/٣

أقرأ، هذا المساء، ما سجلته حتى الآن. أقرأه وأفكر، ترى لمن أكتب ؟ من يا ترى ذلك الذي تعنيه هذه الكتابات ؟ لا أحد ! إذ ليس هنالك من أحد سيقرأها، ليس من أحد سيعيرها انتباها. وإني أدرك هذا جيدا. فلست بكاتب. كما أن فيما أكتب حقيقة تكمن، لا تهم أحدا. هذه الحقيقة إنما تقبع في داخلي أنا فقط. تماثيل الأبطال الموتى لا تعلوها الموتى، إنما الأحياء فقط يعلونها. فيجب أن أبقى على قيد الحياة لكي أجسد أرواحهم في نصب تذكاري، بعد أن أقوم بإخراج هذه الأرواح من داخلي. لقد ترك هؤلاء الأبطال الموتى، آثارا جميلة خلفهم، تركوها ورحلوا. وأنا اليوم، أجد نفسي وقد انتزعت انتزاعا من الحياة. لذا أخاف آثارهم وأخاف نفسي، والناس، والدنيا، أنا لا أحيا وإنما أحارب لكي أحيا. ماذا أمامي ؟ ليس إلا الظلام والخوف، لذا لا أستطيع التقدم إلى الأمام. ولأني لا أستطيع رؤية الحياة التي أمامي فإني أنظر إلى الوراء ؛ دائما، فربما يسرع ماضي أيامي إلى مساعدتي . ربما يقول لي من أنا، فيفصح عن أسرار حياتي المستقبلية. ربما يأتي ماضيّ ، ذات يوم، ليدفعني لاجتياز الكوارث الدامية التي سببتها لي تلك الأيام الماضية الرديئة، ويوصلني إلى بر السلامة بعد أن ينقذ روحي وجسدي أيضا، الذي أصابه الوهن والضعف، ينقذه من قسوة الأيام السوداء التي تنتظرني . ترى ماذا لو لم يأت. لابد لي أن أهرب كذلك من «المذكرات» هروبي اليوم من الحياة. يقول الطبيب النفسي الذي يعالجني: إنني لو تكلمت معه وأفضيت إليه بمكنون نفسي فسيكون كلامي مساعدا على شفائي. ويقول لي : «سيأتي اليوم الذي تنسى فيه مخاوفك». لكني أظن أن الذي يحييني حتى الآن إنما هي المذكرات وليس الطبيب. لكني لا أستطيع أن أقول هذا للطبيب.

*

في خريف ١٩٣٨، خرجنا من الحظيرة إلى «شارع قاضي العسكر»، ذلك لأن وضعنا الاجتماعي، كان يتحسن من يوم إلى يوم. كان أبي يكسب جيدا. وكان أخي بكر قد وصل إلى سن الخامسة عشرة. يعمل مع والده ويتعلم منه المهنة. أما أنا فقد وجدت في شهر أغسطس من نفس العام عملا في جريدة «العالم الجديد» وأعطيت والدي المرتب الذي اكتسبته في شهر، لكي يدفع به إلى موظفي البلدية ليعطونا منزلا جديدا. هذا المنزل أيضا قديم. كان شيئا قذرا. شمرنا عن سواعدنا مدة شهرين كاملين حتى نظفناه من الداخل ومن الخارج. وزرعنا أمامه حديقة وطلينا أبوابه بالطلاء، وبذلك حولناه إلى بيت نظيف نظافة الورود. وعادت أمي التي كنت أرى - في أكثر الأيام - في عينيها علامات الشيخوخة، عادت تضحك. لقد عمنا كما عم جميع شعبنا في القرم، الاضطراب والتشرد منْ جراء ظلم البلشفيين، هذا الظلم الذي لم ينقطع منذ عشرين عاما. لذلك نحينا قضيتنا، مؤقتا، على جانب، وأخذنا نشتغل بالحياة اليومية.

ترى هل أدرك المسئولون الروس أن حفنة التتار التي بقيت في بلادها القرم، ولم تغادرها : لا يمكنها أن تضر الحكومة في شئ ؟ أم لم يدركوا هذا بعد ؟ إن النفي الجماعي كان قد توقف على ما يبدو ، لكنا كنا نحس أن أشخاصا من هؤلاء الذين أنجبتهم الأمة وعرفوا بين الناس بالعلم من : أطباء وأساتذة، يختفون فجأة حتى من المعلمين والشيوخ وأئمة المساجد في القرى والمناطق النائية وكذلك الذين لم يتمكنوا من تحمل آلام أمتهم الأسيرة، في نفوسهم ووجدانهم فأطلقوا آهة الألم، وكذلك الذين شربوا حتى ثملوا ففاضت قلوبهم على ألسنتهم بمكنونات ما في صدورهم فتكلموا وأفصحوا عن آلامهم دون قصد منهم، يختفي من هؤلاء بعضهم، اختفاء مفاجئا غريبا. كانت الأمة القرمية تحب وطنها الأصلي ، تحب أرضها أكثر من كل شئ ؛ حتى أكثر من نفسها. لذلك كانت صامتة، راضية بكل ظلم،

راضية بكل شئ، فيكفى أنها تعيش فى أرض الآباء والأجداد. كانت القرى القريبة والبعيدة التى عركتها أدمى نكسات التاريخ، تستعيد نهضتها رويدا رويدا. كان القروى يحب أرض آبائه الأقدمين كما يحب إنسان عينه تماما، رغم أن الدولة أعلنت أن الحدائق قد أصبحت من ممتلكات الكولخوز، فقد كان الفلاح يجمع محصوله وفاكهته ويسلمها للحكومة. ثم يذهب ويقف فى الصف من أجل كيلو من القمح. وينتظر حتى منتصف الليل ؛ إلى أن يحين دوره أمام أبواب الجمعية التعاونية. لم يكن غيره يعرف دموع عينيه التى يذرفها على أرض أجداده عندما كان يعمل منحنى الظهر فى حقله وحديقته وبستانه الذى أخذوه منه. ولم يكن يشعر أحدا بذلك، لأن تلك الأرض كانت أرضه. وذلك الوطن كان وطنه.

أصبحنا جيرانا لزميلى سليمان وعائلته. وكان ذلك بعد انتقالنا إلى «شارع قاضى العسكر». ولقد خاب أملى فى أن أصبح طبيبا منذ عملى بجريدة العالم الجديد. عاد سليمان إلى أفكاره القديمة، لكنه لم يكن يحب أن يدخل مدرسة الضباط المتوسطة إلا إذا كنت معه. ورفضت أنا بشكل حاسم هذا، رغم أنه طلب من والدى أن يتدخل فى تغيير رأيى. وكان ذلك دون أن أشعر، إلا أن والدى كان يترك لى القرار مثلما كان يفعل معى من قبل، حين تركت مدرسة قاياباش. كان فصل الشتاء قد بدأ. واستدعيت إلى التجنيد : أنا وسليمان، فى نفس اليوم. على هذا بدأ حلم سليمان يتحقق. فى يوم الاستدعاء ذهبنا إلى قيادة «سيمفروبول راى فويين كوم». كان هناك ما يقرب من عشرة من الشباب الروس ينتظرون جالسين فوق حقائب يد خشبية فى الممر. كانوا قذرين وكانوا مقززين. يدخنون السيجارة ويبصقون على الأرض بين الفينة والأخرى. ورائحة عرق تضيق بها نفس الإنسان تتصاعد من بناطيلهم السميكة القطنية.

وقفنا فى الممر بجانب الحائط فى انتظار دورنا. وبعد قليل فتح باب الغرفة، ومد ضابط أحمر الوجه رأسه من فتحة الباب وقرأ اسم سليمان

أولا ثم اسمي، ودخلنا معا الغرفة وجدنا في الداخل ثلاثة أطباء قاموا بفحصنا جيدا ثم جاء نفس الضابط، وأخذنا إلى غرفته، وقال لنا بمجرد دخولنا الغرفة :

– اسمي ايفان الكسندروفيتش شيشكوف.

ومد يده إلينا وصافحنا. ثم جلس على المقعد الوثير من وراء المائدة المغطاة بمفرش أحمر، ثم أشار أن نجلس، فجلسنا. إني أرى الآن وجهه جيدا. كنا جميعا نضحك. لكنه كان يضحك ويخفي وراء هذا الضحك والابتسام قصدا خفيا. أتصور أنه حتى في نومه كان هذا القصد الخفي بما يحدثه من آثار مرهقة ينعكس على وجهه. كان يرتدي بذلة ضابط سياسي في الجيش السوفييتي. وكانت هذه البذلة تخفي – وبدرجة أخرى – ذلك القصد . كان لشيشكوف عينان كبيرتان خضراوان خبيثتان. شفتاه الغليظتان اللتان تتدلى أطرافهما لأسفل تضفيان على وجهه قباحة خاصة.

اتجه شيشكوف بناظريه، مدة، نحو سقف الغرفة، لمحنا بنظره وقال :

– أيها الصديقان ! لقد استدعيتما للعمل في صفوف الجيش الأحمر، والتقرير الذي في يدي يقول إنكما شابان مثقفان. والاتحاد السوفييتي، يفتح أبواب التقدم للشباب المثقف من أمثالكما، ونحن نقدم لكما إمكان الدراسة في مدرسة القيادة الوسطى. وإمكان زيادة معلوماتكما. وإني لواثق بأنكما ستفيدان من هذه الفرصة إلى أقصى حد، وإنكما ستصبحان من الشباب النافع لهذا الوطن.

كنت أدرك أن رفض هذا الاقتراح من شأنه أن يفتح أمامي وأمام سليمان، بل وأمام أسرتينا، الجديد من الكوارث . لم يكن سليمان يحب أن يجرح شعوري، لكنه كان من ناحية أخرى سعيدا باقتراح الكوميسير شيشكوف . وشرحت لأبي المسألة في مساء نفس اليوم.

صدق أبي أيضا على ما فكرت فيه من أن رفضي لاقتراح شيشكوف

كان سيصبح خطأ جسيما. جاء سليمان، وتحدثنا طويلا عن مدرسة الضباط، وعن الحياة الجديدة التى تنتظرنا. كان سليمان يرى فى الجيش مستقبلا جيدا ومضمونا. ولا أذكر كم مرة ذكرنى بهؤلاء الروس الذين كانوا فى ممر قيادة «راى فويين. كوم» . فى قوله :

– صادق ! إنك لن تستطيع الحياة مع هذه المجموعة من الكفار مدة سنتين كاملتين، وأمامك طريقان. إما أن تصبح ضابطا فتأمرهم وإما أن تهرب وتختفى. إن طينتنا مختلفة عنهم يا صادق.

كان أبى يؤيد سليمان زميلى. ربما يرجع هذا لأنه وجد فكرته صحيحة، أو أنه أراد أن يقوى من معنوياتى. لذلك قال لى :

– كونا كما تريدان . المهم أن يكون كل منكما عظيما. فكل ساحة فى هذا الوطن تحتاج إليكما. تعلما وتعرفا بأشخاص جدد. ماذا ستكون فائدتكما إذا نفوكما من القرم ؟! إنهم يقضون على أطبائنا، فكونا على الأقل ضابطين. إن الضباط لابد أن ينفعوا أمتهم ذات يوم.

وأخيرا، قررنا الالتحاق بمدرسة القيادة الوسطى. أخفينا ذلك عن أمى. مسكينة أمى . إنها تظن أننى سألتحق بالجندية، وسأعود بعد عامين من الخدمة الإجبارية، وسأتزوج بابنة المختار عمدة آى واصل. تركت مسألة التحدث مع أمى حول ظروفى الجديدة إلى بكر وإلى والدى، على أن يفتحا هذا الموضوع معها، بعد ذهابى .

*

بدأنا فى شتاء عام ١٩٣٨، الدراسة بمدرسة القيادة الوسطى فى أوديسا. كانت مواد التعليم السياسى فى المدرسة أكثر من التدريب ومن نظريات الحرب. وبعد ستة أشهر، جاء شيشكوف الموجه السياسى، إلى المدرسة. كان يخفى مقصده الخفى تحت نفس الابتسامة، التى يحملها حملا فى وجهه. كان هذا الرجل يتعقبنا خطوة خطوة. كل كلمة نتفوه بها، بل وكل فكرة نفكر بها، كأنها ملكه الشخصى. لم يكتف بحديثه لنا، عدة ساعات عن

تعاليم الماركسية وانهيار الرأسمالية الغربية، وانتظار البروليتاريا المسحوقة فى كل أنحاء العالم، الخلاص والنجدة من الاتحاد السوفييتى، والجيش الأحمر. كان يخيل إلى أحيانا أنه يريد دخول قلوبنا بمقصده الخفى المبهم هذا الذى يحتفظ به فى ثنايا وجهه، وأنه يريد أيضا أن يدخل عقولنا ليمتلك كل أفكارنا. كان كلما وجدنا مجتمعين معا ؛ أى مجموعة من الشعوب المسلمة فى الاتحاد السوفييتى فى هذه المدرسة من آذريين أو قيرغيز أو تتار، فسريعا يندس بيننا مبتسما يسألنا عما نتكلم فيه وسبب فتح موضوعات الحديث. وكان يفعل ما يستطيعه من وسائل لكى يجعلنا لا نتحدث إلا بالروسية. وفى بعض الأحيان كان يرغب فى قراءة الخطابات التى تصلنا من أوطاننا، ويبدى رغبته هذه بشكل لطيف يحمل طابع المزاح.

وفى ربيع عام ١٩٤٠ انتقلت مدرستنا من أوديسا إلى مكان قريب من الحدود الرومانية، ثم عدنا إلى أوديسا بعد ثلاثة أشهر من التدريب المستمر. وفى أغسطس تخرجت فى مدرسة القيادة الوسطى فى أوديسا برتبة «ملازم ثان». وبعد إجازة أسبوع، تم تعيينى فى قيادة الفصيلة الثانية بالكتيبة ٩٤ فى الفرقة السابعة والخمسين. أما صديقى سليمان عزيز فقد تم تعيينه فى قيادة الفصيلة الثالثة فى نفس الكتيبة ٩٤، وكنا معا حتى عملية الدفاع عن كراس نويا.

ربيع عام ١٩٤١ . نحن الآن فى أحد المعسكرات بالقرب من آق كرمان. مضت سنتان على فراقنا لوطننا القرم. قدمت للقيادة طلبا للتصريح لى بإجازة فرفضوا الطلب. تلقينا أمرا بتعليم الجنود وتدريبهم أصول طريقة ضوفاروف، كان رأسى يغلى كالمرجل . تدريب. تدريب ... كانت إشارة الطوارئ والإنذار تنطلق مرتين وأحيانا ثلاث مرات فى الليلة الواحدة. كنا ندفع بالدبابات إلى الغابات وإلى السهول. كنا آنذاك نسحق حقول الفلاحين وندهس محصولاتهم. الفلاحون هناك لا ينظرون إلينا نظرتهم لصديق. كما

أن الشرطة العسكرية السياسية لا تجعلنا نقترب من الأهالى. يقولون إن فى كل أرض «محررة» جديدا، أعداء للشيوعية. ثم يأتى جنود مديرية الشرطة السرية ويأخذونهم. لا أدرى إلى أين يأخذونهم. لكنى أدرى أن الفزع قد بلغ بالفلاحين مبلغا، جعلنى أتذكر معه هؤلاء الذين نفتهم السلطة السوفييتية من قرانا عامى ١٩٣٢ - ١٩٣٦. كنت أتصور وأنا داخل خيمتى بعد التدريب، كأنى داخل إلى بيتنا. أشعر بالحرية، ربما ساعة وربما أكثر وأنا بمفردى فى خيمتى، حتى انطلاق صفارة الإنذار التالية. أكون بمفردى مع أفكارى وبالقرب من زاوية السرير صورة لكل أفراد عائلتى وصورة أخرى لبكر بمفرده. أتحدث إليهم وأنا أنظر إلى صورهم. أنا معهم حتى صفارة الإنذار التالية. أكون كما لو أنى أستمع إليهم. كم أود أن يكون بكر بجانبى أنظر الآن إلى صورته:

يركب على حصان. على رأسه قلنسوة شركسية ضخمة حتى حاجبيه السوداوين اللذين يبدوان وكأنهما مرسومان بالقلم يلبس ملابس شركسية والخنجر يتدلى من وسطه.. أذكر أن هذه الصورة التقطت له وهو فى السوق وكان يركب فوق حصان خشبى. كان فى الثالثة عشرة من عمره. وهو الآن يقترب من نهاية السابعة عشرة من عمره. لكن مازالت الرحمة ترتسم فى عينى ذلك الطفل ذى الثلاثة عشر ربيعا. إنه لا يشبهنى كثيرا. إن فى نظراته اختراق ظلمات الحياة ورؤية جميع الأسرار. خطابات أمى يكتبها بكر. وعندما أقرأ كل خطاب ترسله لى أتذكر أمى وهى جالسة بجوار المدفأة تلتحف شالها فى وسطها، أراها بعينى المغلقتين، أمام المدفأة وهى تمسك تبغا فى دقة عود الثقاب بينما تملى على بكر خطابها. ويضيف بكر من عنده فى آخر كل خطاب، بضعة أسطر. يقول بكر فى أحد الخطابات :

«مضت - حتى الآن - سنتان، منذ التحاقك بالجندية. تقدمت أمنا فى السن قليلا فى هاتين السنتين. كانت أمنا تضع وأنت معنا شالا واحدا على وسطها أما الآن فتربط ثلاثة شالات. تأخذ هى مكانها بجوار

المدفأة وتجلس. ننام نحن وهى مازالت فى مكانها تأخذ التبغ واحدة تلو الأخرى . تستيقظ فى الصباح مبكرة جدا. وأول عمل تقوم به تقديم القهوة إلى والدى وهو مازال بعد فى سريره. وأول حديث يبدآن به، لابد أن يكون عنك».

يقول بكر فى آخر خطاب له : «كانت أمنا صباح الأمس تنظر من النافذة مثلما يحدث كل يوم وكأنها تنتظر ساعى البريد. وعندما تراه يمر من أمام النافذة تهتف به أن يدخل لتملأ له حقيبته بالقمح والسمن والسكر والكمثرى والتفاح المجفف . مسكينة ! تظن أنها كلما أكرمت ساعى البريد فسيأتيها بخطابات كثيرة منك. وأنت يا أخى الكبير عليك بدورك أن تراعى خاطرها وتكتب لها كلما سنحت لك الفرصة ووجدت وقتا. إنك كتبت فى خطابك الذى تسلمناه الأسبوع الماضى أنك وصلت إلى أوديسا . عندما كنت أقرأ خطابك على أمنا فى تلك الليلة كان عندنا بعض الضيوف يشربون القهوة : إنهم جيراننا محمد آغا وزوجته الخالة زمينة، وبعض المعارف الآخرين . قرأت خطابك على أمنا، ولما انتهيت من قراءته سألتنى قائلة : «أين أوديسا هذه ؟» رد عليها والدنا قائلا : إن أوديسا تقع فى مكان أقرب من المكان الذى كنت أنت فيه من قبل، ومع هذا يا صادق، فإن المسكينة كانت تريد أن تعرف هل أوديسا هذه داخل بلادنا القرم أو خارجها، أما أنا فوقفت بجانبها لأقول لها :

– يا أماه ! ألم تمرى ولو مرة من «طاوشان بازار» وأنت تتجهين من «يالطا» إلى آق مسجد.

قالت :

– نعم مررنا من هناك يا بنى.

– ألم تشاهدى المبانى الحجرية الحمراء على ناصيتى الطريق بعد «طاوشان بازار» بمسافة ؟

– نعم يا ابنى.

قلت لها :

– هذا المكان يسمونه أوديسا يا أمى .

استغرق والدنا وضيوفنا فى القهقهة من جراء هذا الحوار. أمنا أيضا ضحكت. لكنها استغرقت فجأة أثناء ضحكها، فى التفكير، وانهمرت دمعتان من عينيها المشوقتين إليك. انحنيت عليها وربت على كتفيها وقبلتها من جبهتها.

قالت لى المسكينة :

– أنت أيضا يا بكر ستذهب، وسأفقد عقلى بعد ذلك تماما.

تسلمت هذا الصباح خطابا ولفافة، أرسلتهما لى أسرتى. انتظرت انتهاء التدريب اليوم بفارغ الصبر. وعند المساء، تركت الجنود للجاويش وذهبت إلى خيمتى. تمددت على السرير، وأنا مجهد مرهق والحذاء العسكرى فى قدمى. بملابسى . والغبار والطين يملآن وجهى.

أقرأ خطاب بكر، يقول :

«أخى الكبير صادق يا من نحبه كثيرا ونحترمه كثيرا، مضى أسبوع ولم نتلق منك خطابا، أمنا قلقة، تقول : «هل أخذوا ابنى إلى مكان أبعد من أوديسا ؟». إن كل خطاب منك إليها شفاء. لابد أن تكتب لها كثيرا يا صادق. جاء خالنا بالأمس من القرية، خالنا منصور، أعد لك هذه اللفافة هذا المساء. وإنى أرسلها إليك مع هذا الخطاب. ستجد فى هذه اللفافة خمسا من تبغ قيزيل طاش وملوية وخوخ وتفاح وكمثرى من محصول القرية. كما وضعت أمى شيئا ملفوفا فى قطعة قماش مرقع. أظن أنها تعويذة. انتحى والدنا جانبا بخالنا منصور وأخذا يتحدثان فيما بينهما حديثا طويلا. ويبدو أن والدى يريد أن ينتقل إلى القرية . لكنه لم يتخذ قراره بعد. يبدو متخوفا من هذا . إن كونك ضابطا فى الجيش الأحمر يشجعه على هذا . أما أنا فأقف ضد هذا الرأى. إنك تعلم أنهم إذا قرروا نفى أحد، فإنهم لا يعترفون إن كان الواحد منا ضابطا أو مدنيا.

إنهم يسوقون كل شعب القرية . ثم إنك تعلم أن بيتنا فى القرية قد سكنته عائلة روسية فرونجلية . وخالى يقول : إننا نعيش تحت سقف واحد، والبيت يتحملنا.

لا أدرى ماذا سيحدث بعد ذلك . لكنى سأكتب لك مرة أخرى عن هذه المسألة وسأخبرك عما يحدث فيها. يخيل إلينا عندما نقرأ الصحف أننا نسمع أصوات قرع الطبول فى أوروبا. آه لو ترى يا صادق - أجارنا الله - - مجموعات الجنود داخل مدينة آق مسجد ! كلهم روس. يقولون إن الكثير من التتار يجندون فى الجيش الأحمر. لكنهم يرحلون خارج منطقتهم .. أمنا تقول إن الحرب ستندلع لا محالة . إنها تحس بذلك .. هذه التجمعات لا تحدث إلا قبل الحروب. تبكى وتقول ماذا سيحدث لابنى ورائحة الحرب فى الجو ؟! يبدو أنها تتحدث بالحقيقة، فهناك أخبار واردة من آفيار تقول إن المدافع الرشاشة توضع على الأسطح هناك. يقولون إن المدافع قد نصبت فى جبال آى بترى وفوق الهضاب أيضا لكن الصحف لا تكتب شيئا. لا ندرى إن كانت المدافع ضدنا أم ضد تركيا. يمكن أن تكون ضدنا وضد تركيا أيضا. وعلى ذكر الصحف : خطر ببالى أن أرسل إليك صحيفتين فى لفافة إحداهما (الكمومسمولتز) والأخرى (القرم الحمراء) واسمهما القديم، عندما كنت أنت هنا : (القوة اليانعة) والثانية (العالم الجديد). تغيرت أسماء الصحف كما تغيرت الحروف أيضا.

حلت الحروف الحمراء محل الحروف اللاتينية فى كل مدارس التتار وصحفهم. يقولون إن الحروف الروسية أكثر ملاءمة لأصوات اللغة التتارية من الحروف اللاتينية. ها ! ها ! أريد الضحك بدلا من أن أبكى . إنى واثق من أنك تهتم بالحروف الجديدة .. تحياتى إليك. أرجو من الله أن تكون بخير وسلامة ، وأن تعود فى أقرب وقت إلى الوطن».

دوخنى خطاب بكر، وكذلك فعلت الصحف. تسد حلقى إحساسات

وذكريات مرة تتجسم فى نفسى فتضيق بها ضيقا واضحا. رأسى يدور، وعيناى تسودان. أريد أن أجرى وأنا أحمل الصحف فى يدى من أول المعسكر إلى آخره، وأصيح قائلا :

– يا قتلة ! أيها القتلة !

تزبد الأمواج فى داخلى كأنها فى أشد أوقات البحر الأسود هياجا. لكنى لا أستطيع أن أخرج هذه الموجات من داخلى فألقيها بعيدا. أريد أن أخنق هذه العواصف فى داخلى بأن أضغط قبضتى وأسددها إلى فمى. إنها تخنقنى. ورويدا رويداً أتحول إلى حالة من السكون النهائى مع دموعى وهى تسيل من على خدى .. إلى متى ؟! لا أدرى . أنظر إلى الصحف . كل الكلمات التتارية والجمل التتارية مكتوبة بحروف روسية .. كلما أنظر إلى هذه الحروف أجد نفسى تنفر وتشمئز من لغتى . من هذه اللغة العذبة التى تحدثت بها أمهاتنا وهن يهدهدن أطفالهن الصغار . هذه الحروف الروسية قبيحة وجلفة إلى حد أننى لا أدرى لماذا أنظر وكأننى أرى يد طفل تتارى تكتب على سبورة الفصل ، اللغة التتارية بحروف روسية . رأس صغير بلا عينين ويد ضعيفة لا تختفى صورتها من أمامى . أبكى ؟! لا ! أريد أن أضحك . كتبت لأبى أن يرسل إلى فى رسائله بعض أسطر من ملاحمنا الوطنية . ترى . هل سيرسل أبى إلى «السيرة النبوية» و«ملحمة جورا باطور» بأحرف روسية ؟!

لم تعد لى حاجة إلى البكاء ، فإنى أعلم أن التتارى الأصيل لن يقرأ هذه الصحف أتذكر كلمات أبى : «إنهم يخافوننا يا صادق ! إنهم يخافون من وجودنا ومن كياننا» . كم كان والدى على حق ! إنى لا أبكى الآن فإنى أعلم أن أعداءنا يخافون منا . إنهم يريدون ترويسنا (١) . لأنهم يخافون منا . أجد نفسى سعيداً الآن . كما أجد جسدى وهو فى داخل البذلة الروسية

(١) الترويس جعل الشيء أو الشخص روسياً ، نسبة إلى روسيا .

العسكرية متيناً كالصلب !

المسـاء والظلام يرخيـان سـدولهـمـا على المكان ببطء ، ورياح تهب من البحر الأسود فتمنح قلبى الأمان ، وتمنح جسدى الراحة . وأنا هنا وحيد . أنظر إلى الصحف ضاحكاً يصيح سليمان من الخارج قائلاً :

– هل أنت فى الداخل ؟!

– نعم . ادخل.

يدخل سليمان خيمتى . شعره المقصوص حديثاً ، مفروق فى الوسط . كم تجذب بذلته الرسمية العيون ! مسكين ! كم يحب هذه البذلة الرسمية . وكم يفخر بها .

يقترب من سريرى ويقول :

– ألى الآن تقرأ الجريدة ؟

– نعم خذها أنت أيضاً واقرأ .

قذفت بالصحف أمام سليمان . يريد قراءتها ولا يستطيع . ينظر بدهشة إلى الكتابة .

– ايه ! فيم تفكر ؟

– الكلمات تتارية وأحرفها روسية .

– ها هـو ذا خطاب بكر . يقـول : إن كل الكتـابات سـتصـبح بعـد هذا بالأحرف الروسية . ما رأيك فى هذا ؟

– وماذا أقول ؟! لا أدرى !

تتجمع الآلام فى نفسى مرة أخرى . لكنى أغضب من سليمان هذه المرة. لماذا لا يفكر مثلى ؟

– مـاذا يعنى «لا أدرى» ! انظر إلى هذه الحـروف واقـرأ . مـاذا تسـمى هذا ؟

يقذف بالجريدة إلى الأرض:

– وماذا سأقول : فلتكتب بأى شكل مناسب نحن يا أخى مجندون . كما

أننا بعد ذلك سنكتب بسلاحنا وليس بالقلم .. فالجيش الألمانى الآن على حدود بولندا .

وقبل أن يتمم سليمان كلماته ، إذا بى أقفز من فوق السرير وأجمع الجرائد من على الأرض وأدفع بها إلى أنفه وأنا أقول :

– أنت لا ترى إلا ارتداء البذلة العسكرية ولا تعرف إلا التبختر بها وتحية النساء ، هذا ما تجيده . لكن إياك أن تمس أحاسيسى التى أكنها لأمتى بأى أذى ، لا تمس أحاسيسى فى هذا ولا مشاعر غيرى أيضا .

لم يستطع سليمان أن يفهم ما أعانيه ، ذلك لأنه كان يرانى دائماً صديقاً عادياً بسيطاً ، فنظر إلى وجهى فى دهشة بالغة ، ثم أخذت سحنته فى الاصفرار وشفتاه فى الارتعاش ظاناً أن شيئاً ما قد حدث لى .

– عزيزى صادق ، أنا لم أقل لك شيئاً !

– طبعاً لم تقل . وليس عندك ما تقوله حتى تقوله .. أنت دائماً هكذا يا سليمان وهكذا كنت أيضاً فى المدرسة .

– وكيف ؟

– ونحن فى المدرسة كنت أنت تلقى الحصى والحجارة على الفتيات الروسيات اللاتى كن يعملن فى المصنع الذى بجوار مدرستنا ، أما أنا فكنت أهرب ، فتسخر أنت منى وتصفنى بالأرنب المذعور .

– وما علاقة هذا بجرائدك هذه ؟

– علاقة كبيرة جداً . تلك الفتيات الروسيات كن أضعف منك ولم تكن تخاف منهن فكنت تلقى عليهن الحصى والحجارة . لكنك كنت تفر سريعاً من أمام الخطر إذا كان كبيراً . إنك تحب بذلتك الرسمية حباً ملك عليك شغاف قلبك حتى ليتصور الواحد منا أن والدك وجدك قد ولدا وهما يرتديان هذه البذلة العسكرية . لو قامت الحرب غداً بين تركيا وروسيا : لعلك توجه بندقيتك ورصاصك إلى صدور الأتراك ! من يدرى ! سليمان! ألا ترى هذه الحروف ! .. إنهم يقومون فى كل مكان ، فى الجيش وفى

منازلنا ، فى الشوارع ، وفى كل خطوة ، بتنشئتنا على حب الوطن وعشق الوطن . أهذا هو الوطن ! أهذا هو الوطن الوحيد الحر الذى يملك عليك زمام قلبك ونفسك !

كان سليمان يخرج رأسه بين الفينة والفينة - وأنا أتكلم - من خارج الخيمة لينظر ويرفع إصبعه على شفتيه ويقول :

- صه ! تكلم بصوت خفيض يا صادق .

داومت كلامى بعد أن أخفضت صوتى قليلاً :

- انظر يا سليمان إلى هذه الصحف . إن لغتك هى لغتى .. لغة آبائنا وأجدادنا . كيان الأمة ، لا يظهر إلا بلغتها وبوطنها . أليس كذلك ؟ منذ مائة وخمسين سنة ، نفانا الحكم القيصرى الروسى من وطننا ، من جنتنا ، ارتكب فينا عمليات إبادة وتقتيل . والحكم الروسى الشيوعى الآن يقوم باغتيال اللغة التتارية الحية التى يتحدث بها حفنة من التتار هنا وهناك .

أتمدد على السرير . آخذ رأسى بين يدى ، وأنظر إلى سليمان ، وكأن ألماً يخرج من أعماق قلبى ليختبىء خلف ابتسامة خفيفة فى وجهه :

- هيا يا صادق ، لقد أهلت علينا التراب وألقيت على وجوهنا الوحل .

لم يستطع قول شىء أكثر من هذا . ربما لا يستطيع الكلام حتى لا يكدرنى . تمددت على سريرى . أنظر بدقة إلى سليمان . أريد منه أن يتحدث، أن يعترض على ما قلته . لكن سليمان لا يرفع له صوتاً .

- ألا تكلمت !!

- قد تكون على حق ، لكنى أردت أن أقول لك إننا جنود . ليس لنا فى الأمر شىء . العلماء لمثل هذه الأشياء . عليهم أن يفكروا فيها .

انطلقت فوراً أقول له :

- لا ، لا ، لا يا سليمان ! أنت تعلم جيداً مصير الشخص الذى يفكر

مثلى ، عالماً كان أو لا يعمل بالعلم . ثم إن اللغة ليست لغة العلماء فقط . إنها لغة كل شخص لغة الراعى ولغة الفلاح ، لغة كل الأمة .. كل فرد .

– هل تستطيع أن تشرح هذا لقروى جاهل . فى الأسبوع الماضى التحق بفصيلتى خمسة جنود . أربعة منهم قيرغيزيون ، وواحد منهم تتارى مثلنا اسمه كريم وهو فلاح من أسكوب . مجروح فى فخذه منذ حرب فنلندا . يطبق نظام الجيش بحذافيره .. وهو يتولى الخدمة هذا المساء فى ساحة الدبابات ، هذا الولد جاهل جداً . لو قالوا له اقتل يقتل ، احرق ! يحرق . يقول : أنا لا أفهم فى السياسة ولا أعرف الخط ، لكن انظروا إلى صدرى تجدون عليه ميداليتين : واحدة منهما ميدالية العلم الأحمر ، والأخرى ميدالية النجم الأحمر ، فكيف إذن تقنع واحداً مثله بأشياء كالتى تتحدث عنها ؟ الأمور عنده واحدة ، سواء صدرت الصحف باللغة الروسية أم باللغة التتارية . لا أهمية لقضية اللغة عنده . إنه لا يعرف إلا الأوامر ، والأوامر يصدرها الروس وليس نحن .

استمعت إلى كلمات سليمان باهتمام . وأخيراً صمت . ساد الخيمة صمت عميق .

– هل كريم الآن فى الحراسة ؟

– نعم . على بعد مائة متر من الميدان ، فى جهة الدبابات الثقيلة ..

– هل قلت لى إن أحداً لا يستطيع الاقتراب منه ، إلا إذا نطق بكلمة السر؟

– نعم ، وأنا واثق من هذا مائة فى المائة .

– وإذا تحدثت معه بلغتنا التتارية.

– لا تكن طفلاً يا صادق . أنت تعرف الأمر ، وتعرف ماذا يمكن أن يحدث .

– وإذا ذهبت إليه بدون كلمة السر ، أتعطينى مرتب شهر من عندك ؟

– وإذا لم تستطع ؟!

- أعطيك مرتب شهر .

يضحك سليمان . لكنه يضحك خوفاً . وتعمل الابتسامة التى تعلو وجهه على إخفاء ذلك الخوف . .

- وإذا أطلق عليك النار.

لم أجب على سليمان ، وخرجت من الخيمة متجهاً نحو ميدان الدبابات . يلحق بى سليمان ليهمس فى أذنى قائلاً :

- كلمة السر هذه الليلة : (سروال) . لا تنس ! كلمة السر هى : سروال. ارجع يا صادق ! لا تذهب !

دفعت سليمان جانباً ، وهو من خلفى يواصل كلامه لى :

- سروال ! سروال !

أخرج من المعسكر . ليل حالك السواد مثل الفحم يغمر الحقول أمامى . لا طريق ولا أثر . ولا أدرى بالضبط أين كريم . أتقدم وتحت قدمى أرض رخوة . أمشى بحيث لا يصدر منى أى صوت . أنظر يمنة ويسرة . وكأن الليل يحوى ألف شر . ماذا يحدث لو اتجهت ناحية حارس ليلى آخر ؟! أزحف على الأحجار والنباتات الأرضية وأستريح . لا صوت بل ولا حتى رجع صدى. أنهض وأتقدم فى الظلمات نحو ساحة الدبابات وأنا أدب بخطواتى مثل عصا الأعمى وأنا أوحى لنفسى بألا يصدر عنى أى صوت كان . وأنا مثل أعمى يبحث عن طريقه بعصاه وهو على طريق يجهله تماماً. ماذا يحدث لو خرج فى مواجهتى شخص أخير غير كريم ؟ يأخذ الخوف يتسرب إلى قلبى فى بطء . أشعر بحبات عرق بارد فى جبهتى . أأتقدم ؟ أأرجع من حيث أتيت ؟ كريم قروى جاهل كما قال سليمان .. أقف .. أفكر .. ترى أأواصل التقدم ؟ .. إنى خائف : يداى ترتعشان وركبتاى لا تستقيمان .. لكن لن أعود .. عودتى لن تحمل معنى عند سليمان إلا الخوف. لا أريد لأحد أن يشعر أننى خائف . لقد خرجت من المعسكر وأتيت إلى هنا لكى أثبت لسليمان أن حب الوطن والغيرة على اللغة إنما هما قوتان تدفعانا

إلى الترابط . لا أستطيع العودة . على أن أتقدم . أتقدم .. الليل ظلام معتم، ساكن ، مخيف . أحس بأنى أقترب من الحرس المختفى فى جوانب المكان . ماذا لو صاح صوت الآن بشكل مفاجىء يطلب منى كلمة سر الليل ؟! كيف سأعرف أنه صوت كريم ؟ ربما يكون الصوت ، صوت روسى من الروس . لنفرض أنه كريم ! ماذا سأقول له ؟ ماذا لو أطلق على صدرى الرصاص قبل أن تخرج من فمى كلمة أخ؟ أحس بأنى أرتعش بشدة . أحس بأن فوهات البنادق قد اتجهت إلى صدرى ، وإلى ظهرى وإلى رأسى ، سددها الجنود علىّ من كل مكان . أين أنا ؟ لا أدرى . أريد أن أرقد على الأرض وأعود من حيث أتيت زاحفاً إلى المعسكر . أدعو الله قائلاً : يارب احفظنى ! أتقدم أكثر فأكثر ، وفجأة يمزق ستار ظلام الليل الساكن صوت مفزع يقول :

– ستوى (١) ! كلمة سر الليل !

وفى طرفة عين ، إذا بصوت خزانة رصاص بندقية تتحرك.

– أخى ! من أنت ؟ أتقتل تتارياً مثلك !

لا صوت . أنتظر . لو كان روسياً لكانت الرصاصة قد انفلتت منطلقة إلى صدرى . أما إذا كان هذا الصوت صوت كريم ..

على طرف لسانى كلمة سروال . لكنى لا أنطقها . وأسمع فى الظلام ، صوتاً خفيفاً لكنه حاد ، يقول :

– من أنت أيها الأخ ؟ اقترب حتى أراك ..

اقتربت منه . أرى ظل إنسان يفحصنى من قمة رأسى حتى أخمص قدمى .

– الحمد لله أنك جاوبتنى باللغة التتارية يا أخى الملازم . كنت والله سأطلق عليك النار . الحمد لله على السلامة ، إلى أين هكذا؟

– كنت أتنزه . هل أنت كريم ؟

– نعم . ألا تعرف سيادتك كلمة سر الليل ؟

(١) ستوى : قف !

– لا .

– انحنى على أذنى هامساً وقال :

– سروال.

ثم أخذ يدير رأسه يمنة ويسرة . يستمع إلى شىء بجانبنا فيبدو كالذئب مسدداً نظرات عينيه إلى الظلمات .

– صوت أقدام .. أحدهم قادم ..

ويستمر فى الاستماع . وفجأة يصيح :

– قف ! كلمة سر الليل .

– سروال .

*

يخرج من الظلمات شخص أمامنا ، إنه سليمان :

– لماذا تركت الملازم دون أن تتلق منه كلمة سر الليل ، يا كريم !

يسكت كريم . يكرر سليمان قوله إلى كريم بصوت جاد آمر . ويسأله :

– لماذا ، ألا تعرف الأمر ؟!

– إنه تكلم بلغة المسلمين يا سيدى ، لذلك لم أستطع إطلاق النار عليه !

يصمت سليمان الآن . أذهب إليه وأضع يدى على كتفه وأقول :

– هيا يا سليمان ، فالوقت متأخر.

نسير جنباً إلى جنب ، نعود فى اتجاه المعسكر ، فى صمت ، وفى الذهن أفكار مختلفة ، لكنا نعود ويغمرنا إحساس الجسد الواحد واحساس الابن فى الأسرة الواحدة .

*

ذات صباح ، وفى ساعة مبكرة للغاية ، دخل جندى حراسة خيمتى وقال: إن القائد يستدعينى على عجل . ارتديت ملابسى سريعاً ، وخرجت متوجهاً إلى خيمة قائد الكتيبة . المعسكر مازال يغط فى نوم عميق . الحراس ، هنا وهناك ، يحملون البنادق على أكتافهم يروحون ويجيئون

بصمت . كان بعض الجنود يخرجون من خيامهم ويتجهون نحو المطبخ ، يسيرون بخطوات ثقيلة متعبة وهم يدخنون سجائرهم . بعض «الجاويشية» كانوا يقفون أمام الخيام فى انتظار وقت إيقاظ العساكر ، ناظرين إلى ساعاتهم وهى ساعات جيب مربوطة إلى جيوبهم بسلاسل دقيقة.

دخلت خيمة القائد وكانت منصوبة على جانب المعسكر . كانت هذه الخيمة مزدحمة وقد ثقل الجو بأنفاس الضباط الذين بدوا وكأنهم سكارى من التعب وعدم النوم ، وكان واضحاً أنهم لم يجدوا وقتاً بعد للحلاقة.

اتخذت مكانى بجوار سليمان . وقفنا جميعاً نؤدى التحية العسكرية للقائد عندما مر من بيننا من باب الخيمة إلى المنضدة المغطاة بغطاء أحمر اللون . احمرت عيناه الخضراوان كما انتفخ جفنا عينيه . ويبدو أنه لم ينم حتى الصباح . كما يبدو أنه كان يبكى وفى وجهه تعبير صادق عن الألم . تجمعت كل آلام نفسه ، فى جبهته وبين حاجبيه الكثيفين . يقف خلف المنضدة وكأنه لا يرانا . قال بتؤدة وبصوت مخنوق:

– أيها الأصدقاء !

ثم سكت ، فحصنا جميعاً بعينيه وبعدها استمر فى كلامه ، وكأنه مضطر إلى إلقاء خبر سيىء.

– أيها الأصدقاء ! لقد اعتدت القوات الجوية الألمانية الفاشبستية قبل ثلاث ساعات ، على بلادنا وضربت مدننا : سيفا ستبول ، وكييف ، ومينسكى بالقنابل .. وبهذا أكون قد أخبرتكم بأن الحرب قد بدأت .

توقف شىء فى حلقى . سليمان وهو بجوارى : نظر إلىّ ، إلى وجهى ثم أمسك بيدى . ساد الخيمة صمت عميق . توحدت كل القلوب والأنظار . كانوا جميعاً فى هذا الصمت المتواصل وكأنهم رأوا الحرب وارتعشوا خوفاً منها . وإذا بصوت يقول :

– أيها الصديق القائد ، أتسمح لنا بالتدخين؟

بدأنا فى التدخين بأيد ترتعش . تكلم القائد ثانية . أوضح لنا ما ينتظره

الوطن منا ، من خدمات . خرجنا بعد انتهاء كلامه . يسير سليمان بجوارى، كان ينظر إلى وجهى وكأنه ينتظر منى أن أتحدث . وأخيراً قال :

– تصور يا صادق أننى كنت مساء الأمس وقبيل أن أنام أدعو الله ألا يفرق بيننا .

– إن شاء الله لن نفترق .

– فى فصيلتى اثنا عشر تتاريا . تعال عندما تسنح لك فرصة لتتحدث معهم . إنى الآن مؤمن بأن لغتنا بالنسبة إلينا شىء عظيم القيمة .

ليس فى فصيلتى أنا أحد من القرم كله إلا روسى واحد . أما من التتار قومى فليس ثمة أحد ، قلت لسليمان إننى سأزور فصيلته فى أول فرصة وسأتحدث مع الرجال هناك . وافترقنا .

وسريعاً هدمت الخيام فى ذلك الصباح . وانسحبت الكتيبة كلها إلى داخل الغابة التى تقع بعيداً عن المعسكر بثلاثة كيلو مترات . تسلح العسكر. وأخذ الحراس أماكنهم فى جوانب الغابة . صدرت الأوامر بالقبض على كل مدنى يقترب من الغابة ، وإحضاره إلى القيادة . وإذا كان هناك من يعترض أو لا يستجيب فلابد من إطلاق الرصاص عليه . ولم يكن فى كل الكتيبة من الدبابات إلا ثمانى . صدر أمر بتعيين سليمان قائداً لفصيلة المدفعية باثنين وعشرين مدفعاً تحت أمره . أما كل الجنود الباقين فقد عينوا مشاة .

ولقد كان الجنود المتعبون ، ومن يشعر بعلة ، والذين يكيلون من أعماقهم اللعنات على القيادة منذ جاء أمر تطبيق نظام سوفاروف فى التدريب ، مسرورين من النوم فى الغابة بلا عمل ولا حركة . إلا أن هذه الحال لم تستمر طويلاً ، ففى الخامس والعشرين من الشهر تحركت الكتيبة بناء على الأوامر الجديدة لتركب القطارات من محطة آق قرمان ، لتتحرك نحو الشمال .

-٣-

روما ، فى ١٩٤٦/٥/١

فى سنوات الحرب كنت سعيداً، حتى فى الأيام التى ركز الموت عينيه داخل عينى، فماذا يحدث لى الآن ؟ لماذا لا أختلط بالناس فى الشوارع وأصبح مثلهم ؟ لماذا أحس بأننى مغاير لهم ، مختلف عنهم ؟ لماذا أظن أننى أقل من كل إنسان ؟ فى داخلى قوتان تتصارعان فيما بينهما. واحدة منهما هى الحياة، أو بمعنى أصح: القوة التى تريد أن تعيدنى إلى الحياة. إن هاتين القوتين لا تتوقفان عن الصراع فى داخلى، وصراعهما يهز كل كيانى من أساسه. يهدمنى ببطء. أخاف. لم أعد أخرج إلى الشوارع ولا أستطيع الحياة مع الناس الذين أحبهم. أبحث عمن يأخذنى من يدى ويطوف بى فى العالم. ترى هل يمكن أن أجده ؟ ربما. وإذا لم يمكن ؟! إنى بقلبى وبفكرى متجه إلى الله خالق كل شىء على وجه الأرض: خالق الحيوانات وخالق الجمادات لا تتخل عنى يارب ! اللهم احفظنى !.

يخيم الظلام . أسطح روما تظلم. وأنا بمفردى فى غرفة الفندق لا أستطيع تحمل حياة الوحدة. ينبغى أن أخرج. يجب أن أتخلص من نفسى ومن نفسيتى لأصبح إنساناً عادياً. أخرج وأذهب إلى المتنزه. أفكر فى قريتنا وأنا جالس فى ناحية خالية . اليوم أول مارس. ما أجمل الحدائق الآن هناك! على كل حال يبدو أنه من الصعب ملاحظة المنازل المدفونة فى الخضرة، من بعيد. الظلام يهبط هناك الآن. فالشمس قد غربت منذ قليل؛ خلف الهضاب هناك. وفى الصيف يقوم الفلاحون هناك بتناول طعام عشائهم تحت الأكواخ الخضراء الموجودة أمام منازلهم؛ عيناى مغلقتان لذلك أرى هذه المنازل وتلك الحدائق، بل وأتجول فى تلك القرى .

انتقل والدى فى صيف ١٩٤٣ من (آق مسجد) إلى القرية، وقبل أن ينتقل إلى القرية، كنت أنا قد دخلت القرم فى إجازة وأنا أرتدى البذلة العسكرية الألمانية، ولم يكن لذلك أى داع. ماذا يفعل الآن هذا المسكين ؟

ترى هل ألقى به الروس فى غياهب السجون ؟ ولو كان فى السجن فعلاً فلن يستطيع تحمله وسيموت فما بال أمى المسكينة ؟ أين هى يا ترى ؟

أريد أن أترك الحياة وأهرب ولكن إلى أين ؟ إلى أى مكان . لن أقعد هنا وحيداً لا أستطيع الحياة هنا. لم أعد أنا صادق القديم . ماذا حدث لى يا ربى؟!

يعاودنى صداع فى رأسى ويوجعنى !

تمر أمامى فتاتان إيطاليتان، شقراوان تعلو المساحيق وجهيهما، تطلقان القهقهات، وكل منهما فى ذراع زنجى أمريكى . تسمع روما الصامتة قهقهاتهما. أستغرق فى التفكير. تباً لك ياروما ! يا أيتها المدينة الكبيرة البيضاء الرخامية أنت وكل الحياة معك، تحت أقدامهما، إذا فقدتا واحداً ، تجدان الآخر، وهما فرحتان. لكنك تعرفين كيف تخبئين فى نفسك اضطراب الزمان، دون أن تبكى، وعلى أنا بدورى ألا أبكى ! لابد أن أظهر بمظهر المعتز بنفسه مثلك ذلك لأنى لم أخسر ، لأنى لم أسلم هذا الوطن الأخضر الى أعدائى إلا بعد أن سكبت من دمى ما سكبت .

يرخى الظلام سدوله. الشوارع تظلم. تصدح أصوات الموسيقى من النوافذ المفتوحة فى المطاعم. تتجمع أصوات الموسيقى لتفيض على جوانب المكان. أنهض لكى أعود إلى الفندق وعندما وصلت إلى تمثال إيمانويل الخامس أتت كتلة بشرية قادمة تموج، كأنها نهر قد فاض. أرتعش. السبب فى هذا على ما يبدو هو أننى ذهبت منذ يومين إلى السينما، فعرضوا قبل عرضهم فيلم جارى كوبر، عرضوا فيلماً؛ فرش أمام العيون معسكرات (بلسن) الجماعية بمآسيها الفظيعة، كنت مضطراً لأن أخفى رأسى فى الكرسى، من عظم خوفى، عندما رأيت على الشاشة آلافاً من الناس يرقدون فى حالة موت وقد برزت عظامهم وظهرت. تمتم إيطالي سمين، يجلس على الكرسى الذى بجانبى، ببعض أشياء. ربما كان يشتمنى. وهاأنذا الآن أرى الناس الذين يتجهون نحوى كأنهم آلاف الهياكل العظمية النحيلة النحيفة.

وقد تخلصت فجأة من لفائف السلك المحيط بمعسكرات (بلسن) .

ومن شدة فزعي صعدت على درجات التمثال الحجرية كأن سيلاً من الناس، يفيض أمامي ويصيح قائلاً: يحيا السوفييت، يحيا ستالين ! ثم مضى السيل البشرى فنزلت الدرجات الحجرية. رأسي متعب. نفسي فارغة. عدت إلى الفندق .

لا أستطيع هذا المساء أن أكتب مذكراتي. ماذا لو فعلت هذا غداً ؟!

جريشة كالاتشوف: صياد من (آلوشتا) ، متوسط الطول، عريض الكتفين، أحمر الوجه، أزرق العينين، أشقر الأهداب والحاجبين والشعر، فيبدو كأنه المحصول. كان يفخر باسمه وكان يقول لى من أدراك أن دماء تتارية لا تسرى فى دمى ؟! أمن الممكن أن يسمونا (كالاتش) هكذا هباء وبلا سبب ؟!

أحسست ، خاصة بعد أن انصرفت من عند سليمان والشباب القرميين الآخرين، بأحاسيس رقيقة فى قلبي - لا أدرى مصدرها - تجاه هذا الروسى الأشقر. وعندما نظرت فى عينيه الزرقاوين اللتين لا توحيان بأى معنى بدأت أشعر بأن حبى له حب خالص. لم يكن يتحدث عن نفسه أبداً . كان إنساناً بسيطاً . عندما اتجهت إليه نهض سريعاً؛ ووقف على قدميه وأخذ وجهه الأحمر يزداد حمرة. كان يريد بكل قلبه أن يصبح صديقاً لى . كنت أقول له:

- اجلس يا جريشة ! اجلس ! كلانا قرمي، وسنكون صديقين.

كان يجلس ليأخذ رأسه بين كفيه ويقول:

- إيه ! يا آلوشتا ! آلوشتا ! لصالح من هذه الحرب .. لو لم تكن هذه الحرب، لكنت الآن فى بلدتى آلوشتا، أصيد السمك وتكون أنت أيضاً فى القرم . فما ضرورة الحرب لك ، ولى، يا صديقى القائد ؟!

كنت أرد عليه قائلاً:

- صحيح . صحيح ، يا جريشة لكننا سندافع عن الوطن.

– وطنك ووطنى إنما هو القرم. على كل حال سأذهب أنا إلى آلوشتا.
– وماذا تفعل يا جريشة لو استولى الألمان على القرم.
– لا فرق، يا صديقى القائد، الألمان أيضاً ديوثون، وكذلك إخواننا الروس.
– لا تقل هذا لأحد غيرى يا جريشة ! احذر ! وإلا يخفوك فى السجون.
– لا تخف ! أنا لا أقول لأحد غيرك. أنا أعرفك. لكن لماذا أخاف ؟ أنا أيضاً .. ألست قرمياً ؟

وبلغته التتارية التى يكثر فيها اللحن يأخذ جريشة مكانه أكثر فأكثر فى قلبى.

وبعد أسبوع منذ تحركنا من آق قرمان نزلنا من القطارات فى قرية بأوكرانيا الغربية. كانت هناك بعض أمور فهمنا منها أننا اشتركنا فى اللواء الذى يحتل الجبهة فى الغرب.

الجنود المتعبون يعلوهم الغبار وقد طالت لحاهم، يرقدون تحت امتداد غطاءات أسقف البيوت التبنية. سيارات الصليب الأحمر فى الحدائق، الفرسان يسقون جيادهم فى غير انتظام. الجرحى من الجنود يرقدون فى عربات الفلاحين. والضباط غارقون فى العرق يهرولون من مقر قيادة إلى مقر قيادة أخرى.

وبينما كان الجنود يقومون بإنزال دباباتنا من القطار، كنت أنا قد توجهت إلى القيادة التى نصبت خيمتها فى الجانب الآخر من القرية. كل مكان ممتلئ بالجنود ، المنازل والطرق والحدائق، بحثت عن سليمان لكنى لم أجده. تبدو خيمة القائد وكأن الضباط من أصحاب الرتب الكبيرة قد احتلوها. قال لى ضابط خرج الآن من الخيمة:

– هل أنت صادق طوران ؟
– نعم أنا .
– إذن فلقد جئت فى الوقت المناسب فقائد الكتيبة يبحث عنك .

دخلت الخيمة ووقفت أمام قائد الكتيبة وقلت :

– الملازم صادق طوران قائد فصيلة الدبابات ! وأنا تحت أمر سيادتك أيها الصديق القائد !

كان قائد الكتيبة روسياً طويل القامة، ذا شارب أبيض مبروم مثل قرنى الثور، سليماً مثل شجرة السرو، يبدو خشناً لكنه ليس بقدر ما يقول به مظهره، كان يسر، عندما يصافح الضباط الأصغر منه رتبة من الذين يعملون تحت إمرته. ولم تنسه الحرب، عادته هذه ، كما كان لابد أن يحدث، فقد صافحنى أيضاً يداً بيد، وقال :

– كم دبابة فى الفصيلة ياطوران ؟

– ثمانية يا صديقى القائد .

– هل كلهم ب. ٢٧ ؟

– كلهم ب. ٢٧ .

– إنها لا تغنى كثيراً فى الحرب أليس كذلك؟

– نعم أيها الصديق القائد .

– أعلم أنها لا تغنى شيئا كثيراً ولكن ليس لنا من حل آخر.

جال القائد بنظراته الكدرة بين الضباط الآخرين من ذوى الرتب الكبيرة ثم تبادلوا جميعاً النظرات فيما بينهم.

– لا أستطيع إمداد الجنرال ماكسيمنكو بغير هذا، وفى رأيى أن الذهاب بكل الكتيبة إلى جبهة (كوتوفكس – بالكا) لنجدة ماكسيمنكو معناه ترك كرانسوى مفتوحة أمام الجناح الأيمن للفرق الألمانية المتقدمة نحو الجنوب . إن هذه المسئولية ضخمة.

– إن ماكسيمنكو يصارع العدو الآن بالبنادق والسلاح الأبيض، لأنه منذ يومين لا يملك دبابة واحدة، ولا حتى مدفع.

– لو استطاع الصمود، لا لثلاثة أيام، ولكنى أقول أسبوعاً، ولو انطلقنا بكل قواتنا لنجدته، فإنى واثق من أننا لن نستطيع كسر السلسلة الفقرية للقوات الألمانية المرابطة بين يالطا وكوفوتسك.

– أتنكسر هذه القوات فى خط (بوك) ؟

– ربما لا تنكسر أيضاً فى خط بوك ، لكن عمودها الفقرى قد ينحنى ولايستطيع خط دفاعنا الطبيعى فى كرانسوى أن يوقف الهجوم الألمانى لكنه قد يستطيع أن ينقذ ماكسيمنكو عند مفترق كوفوتسك – يالطا. فرق العدو تركت كرانسوى وستتجه نحو فوزنس نسك.. يعنى إلى ماكسيمنكو .

انحنى القواد على الخريطة الموجودة فوق صناديق الذخيرة . وبعد أن شاهدوا على الخريطة، المواقع التى يتحدث عنها قائد الكتيبة؛ اعتدل القائد واستدعانى إلى جانبه.

– اذهب يا طوران إلى الدبابات. كونوا بجانبها، يجب ألا يبعد أحد عن الدبابات وانتظر أمرى.

– سمعاً وطاعة أيها الصديق القائد.

خرجت من الخيمة وعدت إلى حيث تقف الدبابات.

علمت فى اليوم التالى ، أن كل المدفعيين الذين مع سليمان قد خرجوا مع إيفان الكسندروفيتش شيشكوف الموجه السياسى للفرقة، خرجوا من فورنسنسكى ويتقدمون نحو كرانسوى. وتلقيت صباح أول سبتمبر أمراً بالتقدم نحو جبهة كوفوتسك – يالطا، بثمانى دبابات. تحركنا فوراً وسرنا طوال اليوم وسط سكون تام، القرى فارغة وصامتة وكأن الحياة قد اختبأت تحت الأرض ، حتى الحيوانات لم يكن لها وجود . وقبيل الغروب فقد بدأت من على اليمين ومن على اليسار سيارات نقل الجنود تسير بسرعة كبيرة. الجنود والضباط فى هذه السيارات يلوحون لنا بأيديهم بغية إخبارنا بشىء. كان بعضهم يريد أن يقول لنا بإشارات يديه أن ارجعوا ! أما نحن فكنا نواصل تقدمنا. كنت بمفردى فى برج الدبابة كلما نتقدم فى الطريق نجد أن الطريق قد زاد ازدحاماً . كانت عربات المدافع ثم الجنود المشاة يتقدمون ومن بعدهم تأتى سيارات النقل. الضباط يركبون عربات الفلاحين. والجرحى الضعفاء كانوا بلا أسلحة، ورؤوسهم بيضاء يلتحفون بالقماش الدامى. كان

الفرسان من ضمن الذين يمرون فى هذا الازدحام كان بعضهم يسخر منا فكانوا يصيحون بنا قائلين: «أإلى برلين تذهبون» .

بعد نصف ساعة، أصبح الطريق مزدحماً إلى درجة أن لو ألقيت إبرة من فوق، لم تكن تسقط على الأرض . زحام من الناس والجياد والعربات تتدفق وسط صيحات نحو الخلف إلى كرانسوى . أخرجنا الدبابات من الطريق إلى السهول وتقدمنا. كانت أصوات المدافع تأتى من بعيد، وكأنها أصوات طبل يدق فى منازل أغلقت أبوابها. توقفنا. كانت أمامنا غابة ضخمة سوداء. كنا أحياناً نسمع قصف المدافع يأتى من اليمين. وأحياناً من الشمال. تتصادم طلقات المدافع مع الأصداء المقتطعة من صدر الغابة ثم كانت تختنق فى أعماق الغابة مرة أخرى. كان الجنود فى أبراج الدبابات السبعة التى تتعقب دبابتى ينظرون نحوى فى دهشة .

– الجاويش واسيليف ! بجانبى !

– الجاويش واسيليف ! إلى جانب القائد !

– الجاويش واسيليف ! إلى جانب القائد !

صوت ضجة الدبابة التى فى المؤخرة . وبعد دقيقتين اقتربت دبابة الجاويش واسيليف بجانب دبابتى.

– واسيليف !

– أوامرك أيها الرفيق القائد !

يزأر مدفع خلف الغابة، وعلى اليسار صوت مجموعة من الأوز فى حقل قصب بجوار منزل مسقوف بالتبن، يضرب الأوز أجنحته ثم يطير خلف رابية. قال لى واسيليف:

– إن هذه قد سقطت قريباً بعض الشىء.

– على مسافة كم بالتقريب ؟

– خمسة أو أربعة أيها الرفيق القائد. يبدو أننا نندفع نحو فوهة العدو. ماذا لو لحقنا بالفصائل المنسحبة ؟!

– أنا لم أستدعك بجوارى لكى آخذ رأيك.

– نعم أيها الرفيق القائد.

– قد دبابتك. تقدم إلى مسافة حوالى خمسمائة متر أمامنا . وأبلغنى بما ترى.

– سمعاً وطاعة أيها الرفيق القائد.

ومرة أخرى أثارت دبابة واسيليف ضجة واضحة فى تحركها.

صوت موتور الدبابة، ونظرات واسيليف البسيطة البريئة المرتسمة فى عينيه الشابتين، أثرت كثيراً فى أحاسيسى الداخلية.

– يا واسيليف ! أتخاف الموت ؟!

لم يصل صوتى إلى واسيليف بفعل الضجة التى أثارتها دبابته.

– لم أسمع أيها الرفيق القائد.

– قلت لك أتخاف الموت ؟!

– الموت ؟

– تخاف ؟

– ياه ! الإنسان يولد مرة واحدة فى العمر، ويموت مرة واحدة إما الآن وإما فيما بعد . ما الفرق ؟

– خذ منى سيجارة قبل أن تموت وحذار أن تظن أننى إنسان سيئ !

قذفت بعلبة سجائر إلى برج الدبابة تلقفها واسيليف ودفعها إلى جيبه.

– أشكرك .

– قلت لك سيجارة واحدة فقط !

انطلق جريشة والمدفعى الذى بجانبى ، فى القهقهة.

– شكراً لهذا أيضاً.

أخذ سيجارة من العلبة ثم قذف بالعلبة إلى.

– مع السلامة.

ظلام خفيف يجثو على المكان، توقفت أصوات المدافع فجأة. الدبابات

التى فى الخلف تأخذ طريقها بتثاقل، مع مسافة فيما بين بعضها والبعض الآخر، تبلغ حوالى خمسة عشر متراً ، كنت فى برج الدبابة. تقدمنا فى هذا الوضع حوالى نصف ساعة . كان على اليمين وعلى الشمال وكذلك أمامنا دخان أسود مختلط باحمرار الأفق، يأخذ طريقه إلى السماء وكأن الحرب كانت تأتى -بكل فظائعها- من هناك ثم تقدم إلينا.

سمعت صوت جريشة يأتى من أسفل.

- أيها القائد.

- ماذا هناك، ياجريشة ؟

ونزلت من البرج إلى أسفل. قال المقاتل وهو يمد لى سماعته:

- الجاويش واسيليف.

وضعت السماعتين على أذنى، فسمعت صوت واسيليف، دقيقاً غير متواصل.

- آلو. آلو ! قوات العدو ترابط فى الغابة المقابلة أسرعوا . أسرعوا.

- آلو ! الجاويش واسيليف، أتسمع يا واسيليف ؟

- نعم أسمع ، أنا.

وفجأة انقطع صوت واسيليف.

- واسيليف ، واسيليف !

صوت واسيليف لا يصلنى عبر السماعتين، أصوات ضجة مستمرة لكنها لا تنبىء عن شىء قط.

- جريشة ! خذ الدبابة إلى اليمين. بسرعة خذها إلى التل الذى خلف أرض القصب.

وقبل أن أكمل كلامى إذا بصوت ينفجر كأنه بركان، الشىء الذى لا أستطيع أن أنساه هو: عينا جريشة الخضراوين مثل النار تنظران إلى بينما رأس جريشة بين ركبتى . وعندما عدت إلى وعيى كان الجزء الخاص بالموتور فى الدبابة ينفث فى وجهى ريحاً فيها النيران مخلوطة بالدخان. فتح

جريشة غطاء الدبابة ونصف جسده خارجاً وأخذ يصيح قائلاً:

- اهرب يا حضرة الملازم، لا تبق هنا ! اهرب .

خرجت من الدبابة وبينما أنسحب إلى مائة متر نظرت نحو دباباتنا الأخرى من داخل الزرع الأصفر، فإذا برجال المدفعية الألمان وقد أخذوا يصبون نيرانهم متواصلاً على الدبابات السبع لمدة نصف ساعة، ورويداً رويداً أخذت النيران تهدأ .. وبين الحين والحين كانت الشظايا تنفجر فوق رؤوسنا.

وصل جريشة زاحفاً وقال ، بلغتنا ، التى لا يحسنها تماماً:

- أنت أصبت يا حضرة الملازم ؟ أصبت كثيراً ؟

- لا يا جريشة .

- انظر ! يوجد دم هنا.

أمسكت بخدى . كان به جرح لا أدرى كيف حدث ولا أحس بوجع منه . فكرت قائلاً إن هذا أول قبلة من قبلات الحرب، مسحت يدى فى بنطلونى . قال جريشة وهو مازال ينظر إلى وجهى نظرات غريبة :

- أنت انجرحت ! أنت كدت تموت .

- لم يحدث شئ مهم يا جريشة ، لا يموت الإنسان من جروح صغيرة مثل هذا الجرح ، هل نجا أحد غيرنا ؟

- نعم . اثنان هناك ، ثلاثة هناك . لا أدرى هل ثمة جرحى أم لا ؟ مات كل من لم يخرج من دبابته . كلهم ماتوا.

وبعد نصف ساعة وصل الجاويش واسيليف . احترق حاجباه وأهداب عينيه ، كان يضحك رغم أن وجهه وعينيه يبدو فيها الجهد والإعياء. حتى هو ، لا يدرى كيف خرج من الدبابة المحترقة وكيف نجا. كان يقول لقد أنقذنى الله يا سيدى القائد. هل ينجو الإنسان وهو وسط النار ! ها آنذا قد نجوت . بعد ذلك سأكسر دماغ من يقول إن الله ليس موجوداً . وبعد ساعة ، تركنا دباباتنا التى أصبحت خردة ، ولحقنا بأفرع الجيش المنسحب بسبعة

مدفعيين ، بقوا علي قيد الحياة ، من سبعة وعشرين مدفعيا.

لماذا ألقوا بى بهذه الثمانى دبابات إلى نيران مدافع العدو؟ كنا حسب الأمر الذى تلقيته ، سنلحق بقوات ماكسيمنكو التى تتخذ وضعها فى الكيلو الأربعين من كوتوفسك - يالطا . دمرتنا المدفعية الألمانية فى الكيلو السادس . ماذا حدث لقوات ماكسيمنكو ؟ أين كانوا ؟ لا أدرى.

شمس حارقة رغم الصباح. نتوجه إلى كرانسوى . كانت هذه المنطقة قبل عدة أيام تموج بالحياة أما الآن فالمساكن خالية من سكانها وصامتة . المحاريث الصدئة وأحراش البيوت . عجلات العربات . أبواب الحدائق نصف المغلقة لعدم دخول أو خروج أحد منها.

هناك عند جدار حديقة ، كلب أبيض لكنه قذر . أخذ ينظر إلينا بهدوء ، وقد رفع أذنيه وهز ذيله ، كما لو كان يعرف أصحابه القدامى . كان للكلب نظرة غريبة . الجاويش واسيليف على يمينى وكان يعض على شفتيه النحيلتين بين شعر لحيته السوداء وشاربه الكث ، يضحك ويقول :

- لو لم نكن فقدنا الدبابات لأخذت ذلك الكلب معى . ها نحن ذا نتحول إلى جنود مشاة . لا يستطيع الكلب تحمل ما يتحمله المشاة.

أما جريشة الأشقر فلم يكن يائسا وكان يقول :

وما أدراك ، لعل القوة ذات السبعين طنا قد وصلت !

- افتح فمك فى الهواء جيداً. لو تركنا الألمان أحياء حتى وصول ذلك فاشكر الله على سميط المشاة.

جريشة على يسارى . لا يظهر فى وجهه الغارق فى الوحل والتراب غير عينيه الخضراوين وشفتيه الحمراوين . لا يفارقنى . كان يجرى أحيانا حتى لا يتخلف عنا ، فى فمه سيجارة لم تشتعل بعد . ليس مع أحد منا كبريت وسيجارته فى شفتيه . ومنذ أكثر من ساعة ، قضم نصفها بأسنانه وتفلها . وأخذ نصفها الثانى فى فمه ينقلها بين جانبى فمه، ويقول :

- طالما أننى لم أجد ناراً لأشعل سيجارتى ، طالما أننى لم أسحب نفس

دخان ؛ فلن تعرف الراحة إلى نفسى سبيلا.

يتحدث الجاويش واسيليف من الناحية الأخرى ويقول :

– خرجت من النار منذ قليل فلماذا لم تشعل سيجارتك منها أيها الرجل؟ إذا كان لابد من النار فاذهب إلى الألمان فسيقدمون لك النار.

– هذا مخ روسى ، أيها الجاويش ، الأرض كثيرة والخبز قليل ، عساكرنا كثيرة وليس لدينا دبابات . عندنا السيجارة وليس لدينا كبريت ، لو كان كل شئ على ما يرام لما كانت روسيا روسيا.

يتجرأ الشباب على الكلام بحرية ، بعد أول رائحة تخرج من النار والبارود . قبل أسبوعين فقط، من كان يستطيع التحدث هكذا ؟ أيقظت الحرب على ما يبدو ، الحرية الكامنة فى قلوبهم ، كما أيقظت أحاسيس الحرية الشخصية . أتظاهر بأنى لا أسمع كلامهم لكنى مسرور فى داخلى أن قلبى يحتاج إلى وضوح . من يدرى فلعل الحرب تحمل إلينا أياما طيبة . على اليمين وعلى اليسار ، وفى الحدائق مجموعات من الجنود ، ومدافع تحت الأشجار مغطاة بأغصان خضراء . هنا وهناك عربات المطابخ ، يخرج منها دخان. وخلف الحدائق وعلى التلال يحفر الجنود الحفرات . تمر بجانبنا أحيانا عربات النقل العسكرية والغبار يخرج منها . يبدو أنهم يقتربون من كتائبنا . ومن بين الحديقة التى أمامنا خرج ثمانية أو عشرة أشخاص . كلهم لحاهم طويلة وملابسهم ممزقة كلهم نحيل وحالهم يرثى له ، يحاولون السير . لا أدرى من هم ، لكنهم لا يشبهون الجنود الحمر. أياديهم خلفهم مربوطة جيداً بوثاق . أغلبهم حفاة ، وجوههم مثل وجوه الموتى ناصعة البياض. لكن فى عيونهم جميعا ثقة . أمامهم وخلفهم جنود المخابرات الروسية ببنادقهم وحرابهم ، يدفعنى الشعور بالاهتمام ، فأقترب منهم وأسأل أحد الجنود المسلحين :

– أين يا رفيق قيادة كتيبة الدبابات رقم ٩٤؟

– اذهب من هذا الجانب على هذا الطريق مقدار نصف ساعة على يمين

الطريق فى داخل الحديقة.

أقول له وأنا أنظر إلى هؤلاء الناس المغلولة أيديهم من خلف:

- من هؤلاء؟

- ضباط بولندا الأسرى.

- إلى أين تذهبون بهم ؟

يبتسم الجنود ابتسامة قبيحة ويقولون:

- إلى القصبة.

فهمت من هذا أنهم يسوقونهم إلى الموت ، فأتألم من أعماقى .

- وأى ذنب اقترفوا؟

يضحك الجنود مرة أخرى . أفهم من ضحكاتهم الماكرة ومن البرق الذى يقدح لحظة فى أعينهم ، أفهم أعماقهم وكل وحشية هذه الأعماق.

- أقليل من أعدمناه منهم ؟ أعن ذنب اقترفوه تسأل؟

إذن لا سؤال لى عن شئ . يدخلون الحديقة . يختفون عن الأعين بين خضرة الأشجار.

التفت إلى رجالى يسألوننى عن شئ . لا أفهم بل إنى حتى لا أستمع . فى أعماقى ألمّ ألم بى، هز كل جسدى وتسلل إلى مخى . أنظر إلى وجه واسيليف ثم إلى وجه جريشة . وجهان نضران متعبان بريئان . يأخذنى تفكيرى فأقول لنفسى إن هذه الأمة - أرادت أم لم ترد - لابد أنها ولدت وفى قلبها الخيانة والظلم.

نتقدم . وبعد نصف ساعة نصل إلى حديقة كراز أسود على الجانب الأيمن من الطريق الذى نسير فيه ، وندخل الحديقة. وأمام الخيمة يقف مسئول سياسى برتبة بكباشى . إنه شخص سمين بعض الشئ ، احترق وجهه من الشمس وأزبدت شفتاه من الصياح . إنه يفهم ، وغالبا من ملابسنا ، أننا نأتى من الجبهة ، عيناه لا تفارقنا . يتفحصنى بنظراته من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ثم يقترب منا. مازال ينظر إلى . وفجأة فتح

ذراعيه وأخذ يتكلم :

– صادق طوران ! صادق طوران!

ايفان الكسندروفيتش شيشكوف ، يعانقني. في هذه الأيام المرة من الحرب ، أحتاج على ما يبدو إلى وجه أعرفه . لقد سرني أن يستقبلني شيشكوف بهذا الشكل . إنه كما هو ، طولاً وعرضاً وجسما ، تفصح عيناه عن السعادة وأيضاً عن الألم . يمسك بيده اليسرى بندقية بلا غمد موضوعة في حزامه المشدود إلى وسطه ويضع يده اليمنى على كتفي.

– قرم جوك ، قرم جوك ! إنهم ساقوك بلا معنى ضد الألمان بدباباتك هذه . لكني كنت واثقا أنك ستنجو من هذا .

– لم ننج كلنا يارفيقي المسئول السياسي .

– لا عليك . ليست هناك حرب بلا موتى، هيا تعال لندخل خيمتي، فإني لا أستطيع رؤية وجهك جيداً.

صاح بالجندي الواقف بباب خيمته :

– يا ميتكا ! هات ماء للملازم . بسرعة ! تحرك!

الجنود يتمددون على ظلال أشجار الكراز الأسود المحيطة بالمكان ينظرون إلينا بانتباه . ندخل الخيمة ، يحضر ميتكا الماء . ولأول مرة منذ خرجنا من آق قرمان أغسل بالصابون يدي ووجهي.

يسألني شيشكوف :

– هل أنت جائع ؟

أنظر إلى الدجاجة المطبوخة الموضوعة على صينية خشبية في يد ميتكا .

– هل أنا جوعان ؟ أهذا سؤال ؟

جلست على صندوق الذخيرة وأخذت في التهام الدجاجة كما اخذت أفكر في أشياء وأنا أنظر إلى طرف حذاء ايفان الكسندروفيتش .

– ماذا أفعل أيها الرفيق الكوميسير بدون جنود ولا دبابات ؟

أخذ يتحدث معي كما لو كان يود بيان صداقته لي.

– انظر إنى أعرف أنك وكذلك سليمان من الضباط نوى المستوى الممتاز . وكان أملى فيكما كبيراً فى مدرسة أوديسا . كما أن قائد الكتيبة كان يثق بكما . وعند وجود مثلك ومثل سليمان فى الكتيبة فلن تسود وجوهنا أمام الحزب وأمام الأمة كلها.

أمال رأسه ونظر إلى البندقية وقال :

– لقد تلقينا ضربات من الألمان ، من الحدود وحتى هنا ، لكن كفى يجب أن تكون هنا نهاية لهذا . كرانسوى آخر نقطة يا طوران . إذا لم نتماسك فى كرانسوى فأهون علينا ، أن يقتل بعضنا بعضاً بالرصاص . جيشان ضخمان خلفنا انسحبا إلى الدنبير . إن وجود جيشين فى يدنا يا طوران...

بينما كان شيشكوف يتحدث بهذا ، كنت أنا أشرد بذهنى ، وأفكر فيما بينى وبين نفسى وأقول :

– ماذا لو يسر الله دخول الألمان موسكو فى مدى أسبوعين !

يقف شيشكوف على قدميه ، يده على بندقيته دائماً . يذهب ويجئ فى طول الخيمة :

– ما أخبار سليمان ؟

– نفس السؤال أردت أن أسألك إياه أيها الرفيق المسئول السياسى، رأيت سليمان ، آخر مرة فى آق قرمان.

– تعال وسأريك شيئاً.

نخرج من الخيمة ونركب سيارة الكوميسير المسئول السياسى شيشكوف ، ونتقدم فى طريق مترب كثير الحفر غير معبد . كل مكان ممتلئ بالجنود. استعدادات فى كل مكان حديث وصياح وضجة . ينظر شيشكوف إلى الاستعدادات التى تقام فى المنطقة . وأنظر أنا إلى وجه شيشكوف . وجه متكدر جداً. إن مقصده الخفى الذى فهمته من عينيه فى آق مسجد ، لم يكن بعيداً عنى فى هذه اللحظة . يسرى هذا القصد فى داخلى . يتخذ هذا السريان أحيانا ، شكل الخوف . أريد أن أبدأ

حديثى عن الجنرال ماكسيمنكو الذى تولى الجبهة فيما بين كوتوفسك - يالطا . وعندما ذكرت اسم ماكسيمنكو كنت كالذى لمس جرحا فى داخل شيشكوف . يضغط على ضروسه ، وينتفخ فى جبهته الحمراء عرق فى سمك الإصبع ، ومن بين أسنانه أخذ يقول :

- ماكسيمنكو ! ماكسيمنكو ! إنه خان الوطن وانضم مع مائة وخمسين ألف جندى إلى الألمان . إن المكان الجدير به ليس الأسر فقط، بل تحت الأرض ، بل نضعهم أمام الناس فى الميادين العامة ليلقوا جزاءهم.

أريد أن أضحك . الجنرالات ينضمون إلى العدو ! والجنود يسخرون بالمسئولين السياسيين فى الجيش . أيمكن أن يحارب جنود مثل الجاويش واسيليف وجريشة ؟ لو وجد هؤلاء الفرصة المناسبة لابد أن يهربوا . أريد أن أضحك. أريد أن أنظر إلى شيشكوف وأطلق قهقهة. منذ متى من الوقت ، والسيطرة الروسية البلشفية التى أدخلت الرعب فى قلوبنا ، تسير وتستمر ؟ ها هى ذى تسقط أمام أعيننا.

نخرج من كرانسوى . نحن الآن على الطريق الإسفلتى . نقف بين تلَّين . نترك السيارة على سفح التل الأيسر ، بين الأغصان ، ثم نتسلق التل . تل بلا حشائش مقفر . تحت خضرة . وأرض فيها قصب خلف الخضرة . يمتد المحصول خلف المياه الخضراء الساكنة التى تصب قريبا من حقل القصب . اصفرت المحصولات . تهتز السنابل الذهبية ، وتموج ، كما لو كانت أحياء تموج بفعل رياح خفيفة . الحقل الذى به هذا المحصول يمتد قرابة كيلو مترين . ويرتبط من بعد بغابة سوداء . الشارع الإسفلتى يمتد حتى الغابة مثل الجمال التى جثت على ركبها لتستريح . ينظر شيشكوف نحو التلال ويقول :

- هل ترى التل الثالث ؟

- نعم أراه.

– إن سليمان وجنوده من المدفعيين خلف هذا التل.
– أين نتوقع هجوم العدو؟
– الأخبار التى أوردتها الطائرات تقول : إن وحدات جيش العدو تتجمع خلف الغابة المقابلة . وبناء على قرارنا الذى اتخذناه بالأمس ، اتخذ سليمان ، صباح اليوم ، موقعه ، هو ورجاله من المدفعيين خلف التل.
صمت طويل . ثم يسأل شيشكوف :
– وما رأيك ؟
أنظر إلى الحقل الممتد أمامنا ، وإلى الغابة ، وإلى التلال .
– إنها نقطة بعيدة جداً عن كرانسوى وقريبة جداً من الغابة . ولو كانوا اتخذوا مواقعهم فى المكان الذى نتواجد فيه ، ألم يكن هذا أفضل؟
– لقد رأينا أنا وقائد الكتيبة أن هذا المكان أقل خطراً ، نظراً لقربه من الطريق الإسفلتى ، هناك مسافة أكثر من كيلو متر ما بين التل الذى فيه سليمان ، والغابة . ثم هناك ذخيرة تكفى لضرب العدو بالنيران حوالى ثلاث ساعات. الحقل مستو تماماً مثل الكف . سليمان فى الشمال ورجالنا فى سفوح كرانسوى وبالتالى لا يستطيع ألمانى واحد أن يرفع رأسه من تلك الغابة ، يا طوران ، وعلى فرض أنهم رفعوا رؤوسهم ، فإنهم لن يستطيعوا ذلك إلا بقدر الارتفاع المرسوم أمام الغابة . بعد ذلك لن يستطيعوا . والألمان ليسوا حمقى إلى هذا الحد. ولا أعتقد أنهم سيدخلون الحقل ، ولن يهاجموا كرانسوى ولو حدث أن هاجموها لكان أحسن لنا ، لو فعلوا هذا لحصدناهم ، مثلما نحصد الزرع . الهدف هو حبس العدو أسبوعاً داخل الغابة ، ومن ثم فى خط بوج .. وإنى لواثق بأن دباباتنا الثقيلة ستصل فى حدود هذا الوقت . يلزمنا دبابات . دبابات ليس مثل دبابتك وإنما دبابات السبعين

طنا . دبابات تى ٣٤.

ركبنا السيارة لنعود إلى القيادة . ازدحام أمام الدار الصغيرة الواطئة ، ذات السقف التبنى . الضباط وقد بللهم العرق يدخلون ويخرجون منه . لكن الضباط الجرحى فى صمت . إنهم عاشوا الحرب بكل مروعاتها . ضاقوا بالدنيا وبالحياة ، يدخنون سجائرهم كأنهم بشر بلا هدف . ندخل الدار . الضباط نوو الرتب الكبيرة يتباحثون فى أشياء بأصوات خفيفة وهم أمام الخريطة وأقلامهم فى أيديهم ، هاتف موضوع فوق صناديق الذخيرة . على اليمين ، وهناك كان جنديان يتلقيان - عن طريق الهاتف ودون توقف - الأخبار ثم يبلغونها.

يتقدم الكوميسير شيشكوف نحو الهاتف . أقف أنا بجوار الباب . أنظر إلى شيشكوف وهو يتحدث بالهاتف . وبعد قليل ، أشار إلى بيده، يستدعينى بجانبه ، اذهب إلى شيشكوف ، يمد بالهاتف نحوى ويقول :

- سليمان على الهاتف . يريد التحدث إليك.

أخذت الهاتف من يد شيشكوف ، ووضعت السماعة على أذنى ، صوت سليمان الصديق يأتى عبرها . وشيشكوف يقف أمامى وينظر لى دائما ، وخلف نظراته - مرة أخرى - يبدو لى وكأنى أرى ما يخبئه من مقصد خائن .

- معذرة أيها الرفيق المسئول السياسى شيشكوف فإن سليمان يتحدث معى بلغته الأصلية.

يضحك شيشكوف ويقول :

- كوفورى ! كوفورى ! (١)

ثم يتركنى ويذهب ناحية القادة الواقفين أمام الخريطة .

(١) تكلم ! تكلم !

يدخل صوت سليمان فى أذنى.

– أهو أنت يا صادق ؟ لماذا لا تتكلم ؟

– أنا . كيف حالك يا سليمان ؟ كيف حال مواطنينا؟

– كلهم بخير وهم بجانبى الآن . إنهم يتحدثون عنك.

– فتح علينا الألمان النيران بالأمس ، وعلى دباباتنا أيضاً النيران . لعل الرفيق المسئول السياسى حدثك بهذا . وعدت بسبعة من رجال الدبابات إلى القيادة.

– يا لك من فاشل ! شرح لى المسئول السياسى الأمر لكنه لن يستطيع أن يأمر بحبسك . إنك ضابط جيد كما يقال . الكوميسير لا يجد لك ذنباً وإنما الذنب ذنب الذين دفعوا بك أمام مدافع العدو . لا أدرى لماذا يهتم بك المسئول السياسى شيشكوف فى هذه الأوقات الأخيرة؟

– أصحيح ؟

– نعم ، أيها السيد الشاعر!

– ولماذا الشاعر؟

– شبابنا يطلقون عليك لقب الشاعر بعد درس اللغة الذى أعطيته لى فى آق قرمان.

– سليمان ! ألا تدرى أن العدو قريب جداً من هذا المكان الذى أنت فيه؟

– لا تخف ! لا تخف . يكفى أن يصدر أمر القتال لأسوى الغابة بمن فيها من الوحدات الألمانية . هيا إذن ، فيجب على أن أذهب.

خرج القادة الذين كانوا أمام الخريطة واحداً إثر آخر من الغرفة . توجهت إلى شيشكوف . وخرجنا بدورنا إلى الحديقة.

يحل المساء ، وتهبط الظلمة والسكون على الحدائق وجنود المشاة

على جانبى الطريق وتحت حواف مظلات البيوت يمسكون البنادق بين أذرعهم وكأنهم يمسكون بأحبائهم فى أحضانهم ، وقد تمددوا على الأرض ويفكرون بصمت فى الغد.

نمت فى تلك الليلة فى خيمة شيشكوف المسئول السياسى ، ولم تكن الدنيا. قد أنارت عندما أيقظنى. خرج شيشكوف من الخيمة، ثم عاد مرة أخرى ثم قال بصوت خفيض وكأنه يهمس :

– أصوات طائرات .. ألا تسمع ؟

– أسمع.

ضوضاء طائرات تمر عبر سماء كرانسوى تخلع قلوبنا. يصمت شيشكوف ويستمع. إنه يتلمس مستقبله فى هذه الأصوات، يتحدث عن مستقبله وربما يبكى بحرقة وأنا بدورى أنظر بهدوء وصمت إلى شيشكوف . لا يتكلم . يطفئ سيجارة ويشعل أخرى . وكأنى أفهم ما يفكر فيه عبر تدخينه السيجارة.

كما أنى أحس بالتضاد البالغ بين تفكيره وتفكيرى. أحاول ألا أنظر إلى شيشكوف . أغضب من وجودنا معا فى خيمة واحدة. إننا شخصان، جد مختلفين. كلانا من خميرة مختلفة ومن دم مختلف لا نستطيع أن يذوب بعضنا فى بعض، فلماذا نكون فى نفس الخيمة ؟ أحس برغبة جارفة فى أن يكون سليمان بجوارى، مازال شيشكوف يدخن السجائر ومازالت الطائرات ترن فى سماء كرانسوى. أغلقت عينى فرأيت أمى، ودموعها تنزل من على خديها المتغضنين. ورأيت بكرا بقلنسوته الجركسية. ورأيت والدى وقد انحنى ظهره، وأخذت أطوف فى حدائق القرية وفى مروجها، فى حدائقها التى تشبه الجنة . فى بساتيننا. ها هى ذى الأشياء التى أعيش لها. هذه هى الأشياء التى تجعلنى أقف على قدمى. وتربطنى بالحياة فى ظل هذه الظروف . شيشكوف ! انزع هذه الأمور من قلبى ! وألقها أرضا ! ضعها تحت الأقدام .. فى ذلك الوقت أصير وجودا بلا حياة ولا إحساس ، أصبح

رجلا عديم القيمة .

تشرق شمس حمراء ملتهبة خلف حدائق كرانسوى. يخرج شيشكوف من الخيمة، بعد أن يترك بابها مفتوحا. أبدو وكأنى أسعد - ولو قليلا - عند خروجه من الخيمة، وابتعاده. مازلت فى دوامة ذكريات قريتى.. أنظر إلى السماء التى تشبه، فى نظرى، الصينية. وأتذكر الشمس المرتفعة الزرقاء خلف جبال آيى ضاغى فى أوقات الصباح التى كنت فيها آخذ الحيوانات إلى المراعى فى قريتنا . الشمس نفس الشمس. لكن دفء الأرض التى تضيئها تلك الشمس جد مختلف، كما أن تنفسها مختلف. إيفان الكسندروفيتش شيشكوف يدخل الخيمة. ينظر ببطولة. لكن الخوف واضح فى هذه النظرات.

- بكم جندى رجعت يا طوران ؟

- بسبعة .

- أين هم ؟

- فى الحدائق .

وبإشارة إلى الأسلحة المتجمعة فى الناحية الأخرى قال :

- أعطهم سلاحا، إننا ندخل التل الذى كنا بالأمس، وبعد ساعة واحدة ستبدأ مدافعنا فى الضرب.

سلحنا الجنوب. وأخذنا الطريق إلى التل. شوارع كرانسوى خالية صامتة، وكأن كل الحياة قد انسحبت إلى تحت الأرض. تظهر فوهات البنادق من جوانب الحدائق، ومن الحفرات. وأحيانا تزحف مجموعة من الجنود كالثعبان تحت حواف أسقف المنازل. ويختفون وراءها. وهناك، خلف التلال، تتجه فوهات المدافع المرابطة تحت أغصان الأشجار الخضراء، تتجه نحو السماء، وتتجمع جنوب المدفعية فى الحفرات، خلف المدافع. يعكر صفو المكان بين الحين والحين صوت حركة دوران المحركات. وبين الحين والحين يترامى إلى الأسماع صوت أوامر حازمة وقصيرة، وكلما تقدمنا نحن، بدا

السكون. بدا الخوف. يذكرنى سكون كرانسوى هذا، بغابة بدائية مليئة بالوحوش . أما الجنود فيذكروننى بحيوانات مفترسة، وفهود وابن آوى . وقد عزم كل منهم أن يصارع الآخر ويمزقه.

نحن الآن – وبعد نصف ساعة – على تل الأمس . ينظر شيشكوف إلى ساعته ويقول :

– بعد خمس دقائق ستبدأ مدافع سليمان فى الانطلاق.

يقول شيشكوف هذا، وهو يضع منظاره المعظم على عينيه، وينظر نحو التل، الذى فيه مدافع سليمان.

تمددت منكفئا بجانب ايفان الكسندروفيتش وأنا أتصور الدقائق ساعات. الدقائق تغرس ثوانيها مثل الإبر فى قلب الإنسان. أنظر الآن إلى التل وأتخيل سليمان أمام ناظرى . أود التواجد بجانبه. أرى نفسى مذنبا . ينظر إلىّ سليمان وكأنه إنسان، محسوبة دقائقه. لماذا لست بجانبه ؟ يقول الكوميسير شيشكوف ببطء وكأنه يهمس :

– انظر جيدا ! سليمان سيطلق النيران.

– أسليمان فقط ؟

– مدافع سليمان فقط .

– والمدافع الرابضة فى حدائق كرانسوى.

– الهدف هو تجميع نيران العدو على سليمان، وبالتالى إعطاء الفرصة لفصائل مشاتنا، أن تستولى على المرتفعات الواقعة أمام الغابة. إذا استمر تبادل إطلاق النيران، بين مدافع سليمان ومدافع العدو داخل الغابة نصف ساعة، لانتهى الأمر.

إنى أفهم هذا جيدا، أفهم تماما هدف الكوميسير شيشكوف. أترك المنظار المعظم وأضع رأسى على الأرض الدافئة بشمس الصباح، وأدعو :

– اللهم احفظ سليمان وجنوده. اللهم احفظ مواطنى. اللهم احم عبيدك الصادقين !

تبدأ مدفعية سليمان عملياتها . صخب جهنمى .

يرتفع الدخان الملون فى صدر الغابة السوداء. ثم أنين مدهش ومرة أخرى ، ضربات وحشية تخنق الأنين، وبعد ثلاث دقائق تحولت الغابة إلى بركان . يضرب شيشكوف يده على كتفى فى انفعال. ويقول :

– أحسنت يا سليمان ! أحسنت أيها التترى ! آه ! مادوليتس . آه مادوليتس سليمان.

تبدأ المدافع الرشاشة فى الحدائق الكائنة على سفح كرانسوى فى الخلف تبدأ فى موسيقاها :

– تراتا – تا .. تراك – تا – تا – تا – تا.

وبين انطلاقات المدافع الرشاشة التى تطول أحيانا وتقصر أحيانا أخرى. يأخذ جنود المشاة، المنطلقون من الحفرات، فى الهجوم، مازالت الغابة كالبركان تنفث حممها ولهيبها، لماذا – ولا أدرى – أجد نفسى مسرورا ؟ جنود المشاة يختفون بين المحاصيل الصفراء يجرون نصف منحنين من الشمال ومن اليمين . الغابة تعوى كما لو كانت تنينا جريحا، فترتفع الأنفاس الملتهبة من صدره إلى السماء وكأنه حيوان اهتاج خوفا من أن يموت.

ترتفع طائرتان خلف الغابة وتطيران نحو التل الذى توجد فيه مدافع. سليمان ينظر نحو الطائرتين، وفجأة تتجهان نحو كرانسوى. وبعد لفة تقومان بها فوق كرانسوى تعودان مرة أخرى إلى مدافع سليمان. وبينما هما تطيران فوق التل تميل إحداهما وتسقط داخل الغابة، ومع الضوضاء العظيمة يرتفع دخان شديد السواد من الغابة نحو السماء ويرتفع اللهيب معقودا فى انثناءات من داخل الدخان، ترعد مدافع سليمان بسرعة أكثر وكأنها تصفق لهذا النجاح.

وبعد نصف ساعة بالضبط تسقط أول قذيفة ألمانية أمام التل. ايفان الكسندروفيتش يقول ومنظاره المعظم على عينيه ينظر بتركيز إلى الغابة،

ويقول :

– آها . لقد رد الألمان.

وبعد دقيقتين انطلقت القذيفة الثانية من وراء التل، حبسنا أنفسنا، شيشكوف وأنا، ننظر إلى موقف سليمان. القذيفة الثالثة أصابت الجناح الأيسر، نيران سليمان تخف قليلا. وبصوت خفيض يقول شيشكوف وكأنه يتحدث مع نفسه :

– الكلاب يأخذون سليمان مقصا.

أريد أن أفهم معنى هذا، ترتفع بعد ثلاث ثوان أو خمس ومن وراء التل، ستارة من نار ودخان فظيعة. وكأن هذا الحريق لن يخمد ولن ينتهى . يقول شيشكوف :

– ها هو ذا ما يسمونه مقص نيران.

– من خلف التل وحتى السماء، تختلط حمم النيران مع قطع مختلفة من الأرض. أنظر إلى الأمام، يبدو شيشكوف وكأنه يتحدث مع نفسه ويستمر فى حديثه قائلا :

– إلى هنا، انتهى أمر سليمان. لن ينجو أحد هناك.

– ألا توجد وسيلة قط، أيها الرفيق الكوميسير ؟

– لا ! لا توجد أى وسيلة، يا طوران.

يشير إيفان الكسندروفيتش إلى التل الذى يقع أمام الغابة، ويقول :

– هل ترى هذا التل ؟

– نعم.

– أظن أن النيران تأتى من خلف ذلك التل. ولابد أن تكون مدافع هجوم العدو متمركزة خلف ذلك التل، ولابد للقضاء على نيرانهم، من عبور كل حقول المحاصيل، هناك تل صغير على الشمال قليلا من التل. هل تراه ؟

– نعم ، أراه.

– أظن أن مؤخرة هاونات العدو تظهر من ذلك التل الواطئ. لكن ما

بيننا وبين التل أكثر من كيلو مترين. هل تستطيع أن تذهب إلى مدى كيلو مترينً على ركبتيك ويديك ومن بين الزرع ؟

يرفع النظارة المعظمة من على عينيه . أجبته بقولى :

– هذا خطر لا داعى له. سليمان مازال تحت النيران. والنجاة من هناك أمر صعب. تسود بيننا فترة صمت قصيرة يخيل إلى أن سليمان، وهو بين النار والدخان وأعمدة التراب، ينظر إلىّ بعينيه الحمراوين ويطلب النجدة. يداى وقدماى ترتعشان. إنى خائف . لا أخاف الموت، لكنى أخاف على سليمان. أخاف من عدم جرأتى . حتى لو وصلت لمساعدة سليمان أخاف أن يصيح بى غاضبا ويقول :

– أين كنت حتى هذا الوقت ؟ لماذا لم تسرع إلىّ فورا ؟

لا أشعر بالراحة، سليمان فى قلبى، يتحدث معى، يستدعينى، وأخيرا أدير وجهى نحو شيشكوف ، وأقول :

– ائذن لى، أيها الرفيق الكوميسير بالذهاب.

يضحك الكوميسير شيشكوف ويكتفى بهز كتفيه ليقول :

– اذهب !

أنزل من التل زاحفا . يأتى معى جريشة وهو يجرى فى نصف انحناءة . يحدثنى وكأنه غاضب منى :

– عم تحدثت مع الكوميسير ؟ إنى سمعتكما . أنت لا تحبنى . أنا أعرف هذا . لأنى كافر . أليس كذلك ؟ لكنى ولدت فى القرم. إنى أحب القرم، وأحب التتار . لهذا فأنا ذاهب معك قد تموت وأحيا، وقد أحيا وتموت، أيها الملازم صادق أنا أيضا رفيقك.

يكبر فى أعماق قلبى حب. والآن ، وأنا أكتب هذه السطور أتذكر جريشة وأتذكر معه المرحوم أحمد اوزباشلى .. إن شعب القرم طاقة ورد تتكون من زهور مختلفة .

يلحق بنا شيشكوف وهو يوجه نحوى زجاجة خمر، وهو يقول :

– خذ هذه يا صادق . فستلزمك .

آخذها منه. ننزل من التل. نعبر القصب. وقبل أن ندخل فى الحقل المزروع، أقف على ركبتى عند حافة الأغصان والأعشاب وأمد الزجاجة إلى جريشة . يظهر فى عينى جريشة الانفعال والسرور.

– آ – آ – آ ! خمر الراقى !! أنت مسلم ؛ وبالتالى فإنك لا تشرب الخمر. نعم أنا أعرف هذا.

يأخذ الراقى من يدى ويختفى بين أعواد القصب. أما أنا فلازلت جاثيا على ركبتى أمسك التعويذة التى أعلقها فى رقبتى وأدعو قائلا :

– يارب ! اللهم احفظنا ! فإنك تحفظ عبادك المخلصين يا رب.

كانت الشمس حامية . نتقدم – وعلى يمينى جريشة – على أربع، على ركبنا وأيدينا وبين الحين والحين يقف جريشة ويتحدث مع نفسه وأحيانا يهمس بأغنية .

أقول له : انتبه يا جريشة ! لا ترفع رأسك كثيرا.

لا تخف يا سيدى الملازم. الألمان لا يروننى . انظر !

يقول هذا وهو يرينى بعض أغصان، جافة أوراقها، يضعها فوق رأسه. وفى كل فتحة أزرار من ملابسه، تظهر نباتات صفراء. وهو نفسه، يزحف كما لو كان أغصانا جافة . وأحيانا يقف ليمسح عرق وجهه، ويمد إلى زجاجة الخمر قائلا :

– اشرب أنت أيضا يا سيدى الملازم.

أرفض. إنه يريد أن يسقينى خمر الراقى بإصرار . فالسكير لا يخشى الموت ! أقول له :

– لا يا جريشة . اخف خمر الراقى .

يوافق . ونتقدم . وبين الحين والحين أرفع رأسى، وأنظر إلى التل الذى فيه سليمان. نيران العدو خفت قليلا ، مرة أخرى . لكن كل جسمى يرتعش عندما أتذكر أوضاع أصدقائنا .

نصل إلى حافة الحقل المزروع، نصعد إلى تل شديد الخضرة، مستو، وصغير، نقف . أمسح عرقى، وأقول لجريشة :

– هل أنت مستعد ؟

يزحف جريشة ويتقدم نحوى، ويقول بصوت خافت، لكنه منفعل :

– أنا مستعد يا سيدى الملازم. مستعد. لكن لا ينبغى أن نذهب معا، فالأرض مكشوفة ، والخطر ماثل، أذهب أنا فى البداية ، ثم تأتى أنت .

يقول جريشة هذا، ولا ينتظر جوابى . ينطلق . يتقدم . وبسرعة البرق يجتاز الساحة المستوية ليرقد على رابية التل. تنقطع النيران فجأة وأنا مازلت بين الزرع. يلف المكان صمت ثقيل وعميق. أرفع رأسى أحيانا، وأنظر إلى التل الذى يتواجد فيه سليمان مع المدفعيين. دخان بارود مختلط بالأرض، ارتفع بطول السرو، يلتف حول نفسه، ثم يسقط على الحقل المزروع. يرقد جريشة بجانب مدفعه الرشاش وكأنه ميت بلا حراك. لا أستطيع السيطرة على ركبتى. وفى هذه الآونة بالضبط يدير جريشة وجهه ناحيتى، ويشير بيده نحوى أن آتى . وبنفس السرعة أعبر الأرض المستوية وأتمدد بجانب جريشة فيقول لى وكأنه يهمس :

– هل ترى ؟

– نعم .. أرى ثلاثة مدافع هاون، للعدو، فى المساحة المستوية الواقعة بين التل الذى على اليسار وبين الغابة. وعلى كل مدفع ثلاثة جنود، أو خمسة . أغلب الجنود جاث على ركبتيه وبعضه واقف على قدميه. والبعض الآخر منهم فى حركة يجرون جيئة وذهابا. يحملون صناديق الذخيرة من الغابة. ألمس بيدى المرتعشتين مدفعى الرشاش ومكان الرصاص فيه.. ينظر جريشة نحو الألمان بصمت وهدوء . أما أنا فلا أستطيع رؤية وجهه لأنى فى الخلف. أسأله بهمس :

– هل أنت مستعد يا جريشة ؟

يدير رأسه نحوى ، وببسمة تظهر منها أسنانه البيضاء يقول :

– أنا مستعد.

فأصدرت الأمر بإطلاق الرصاص.

ضجة قصيرة، متكسرة، وحشية، يسقط على الأرض فجأة : ألمانيان كانا يقفان على قدميهما بجانب مدفع الهاون الخامس. وأصيب اثنان في رأسيهما . لا يستطيعان الحراك. سيل طلقات مدافع، ثانيتان من الصمت، ثم سيل طويل من طلقات المدافع. أخذت الدهشة هؤلاء الألمان الذين يعملون على مدافع الهاون الأخرى، فهربوا يجرون نحو الغابة. في هذه الأثناء يحصد جريشة أجسام البشر بمدفعه الرشاش كما لو كان يقوم بعملية حصار . أنسحب أنا إلى الوراء قليلا. نسى جريشة كل دنياه وهو يحمل هذه اللعبة الجهنمية . فمن ناحية يطلق النار بلا توقف ، ومن ناحية أخرى يصيح بى قائلا :

– اذهب أنت ! اذهب من هنا.

أترك جريشة وأجرى نحو التل الذى فيه سليمان مع جنوده المدفعيين . أحس بغاية السرور لتصورى أنى سأنقذ سليمان، وبهذا الفرح سأعاتب سليمان معنفا فأقول له :

– أنت طفل. ما لك وللحرب ؟ ما عليك إلا أن تمسك أمك من ذيل ملابسها وتسير معها.

سأسخر من سليمان . إنى أقترب من التل. لا أحد بجانب المدافع الرابضة خلف التل. ترى هل تركوا المدافع وهربوا ؟! إنى على التل. الآن، أرى المدافع بوضوح أكثر . ها هى ذى فوهة مدفع منتصبة وعجلات مدفع منفصلة ترقد على بعد أربعة أو خمسة أمتار بعيدا عن المدافع. أنزل من على التل . أبحث عن البشر . لا أجد أحدا . أتقدم نحو المدفع الآخر. إنى بعيد عن المدفع بخمسة أو عشرة أمتار. جثة ! اثنتان ثلاث. أربع جثث . أتوجه نحوهم. وجوههم بشعة . أين الآخرون ؟ يلف المكان سكون عميق .

أقف. أستريح . الموتى بجانبى وكأنهم يستريحون معى . أنين يأتى من بعيد . صوت طويل وغريب. ينقطع الصوت أحيانا. يأخذ بعد ثانية أو اثنتين فى إصدار أنينه «أو - و - ف . أو - و - ف.».

أجرى نحو الناحية التى يصدر عنها الصوت . جريح تغرق ساقاه فى الدم، ويرقد بجانب مدفع مقلوب . أتوجه إليه أجثو على ركبتى وأسأله :

- أين قائدكم ؟

فيشير بيده ويقول :

- لا تتركنى . لا تتركنى يا أيها الملازم ! إما أن تنقلنى أو تقتلنى .

- لا تخف . لا تخف . سأنقلك أنت أيضا . أين قائدكم ؟

يمد يده مرة أخرى :

- هناك . لكن لا تذهب أنت إلى هناك . سيقتلونك . لا تذهب !» .

يبدو أن الجريح لا يدرى ما يقوله جيدا . أنظر إلى ما حولى . يعلق بناظرى صندوقان خشبيان على بعد خمسة عشر مترا. يشير الجريح إلى الصناديق.

- هناك . لا تتركنى أيها الملازم.

وأخذ يردد هذا متوسلا.

أترك الجريح وأذهب نحو الصناديق. تخرج من بين صندوقين قدمان بحذائهما. أقترب . أرى الآن بوضوح أن الحذاء حذاء ضابط. قلبى فى صدرى يدق مثل اللكمة .

أهو سليمان ؟ أقلب الصناديق . يرقد ورأسه تسبح فى الدماء، مقلوب على وجهه على الأرض بين صندوقين. ثمانية من الموتى يرقد بعضهم بجانب بعض كما لو كانوا مصطفين ؛ وعلى بعد حوالى ثمانى خطوات أو عشر من جثة سليمان. أتوجه نحوهم . يا أيتها الأمهات والآباء الذين على قيد الحياة وتبكون الآن قائلين : «أين أنت يا بنى !» إن كاتب هذه السطور قد أغلق

بيديه فى ذلك اليوم عيون أبنائكم جميلى الصورة : حسن الآق مسجدى، ومحمد الدووانكويلى وكريم وخالد الأوسكوتلوى وزكى الأوزان باشى وحسنى اليالطاوى وبكر وعثمان الكوزلووى.

نقلت جثة سليمان إلى جانب جثثهم. بكيت وأنا جاث على ركبتى كثيرا عليهم، ولا أدرى كم من وقت استغرقه بكائى، أفقت علىّ صيحة من بعيد، على صوت أجش كان يصيح بى قائلا:

- يا أنت! عد إلى حيث أتيت! هيا! سريعا!

رفعت رأسى ونظرت إلى حيث الصوت رأيت هناك على بعد حوالى خمس وعشرين خطوة فوهة بندقية، نهضت على قدمى سريعا، مجموعة من العساكر مقعين على أقدامهم موجهين فوهات بنادقهم نحوى وينظرون إلى بحدة وغضب. يوجه واحد منهم القول إلىّ. نفس الصوت السابق يصيح بى مرة أخرى ويقول:

- ابتعد أيها التترى الأسود! وإلا جعلت منك جثة عفنة تجد مكانها بجوارهم. اذهب وقل للمسئول السياسى إن الحرب قد انتهت بالنسبة لنا.

لا أعى ما يحدث من حولى. طارت رصاصة تئز من تحت أذنى، بينما كنت أسير نحو الجنود الموجودين فى الحفر، فسريعا ما انبطحت أرضا. أطلق الصوت الذى أمامى الشتائم الطويلة لى. وإذا بأزيز رصاصة أخرى عقب الصوت . اختبأت فى المزارع بعد أن زحفت إلى الخلف ونحو التل الذى تركت فيه جريشة. كنت أتقدم وأنا منحن. وعلى يسارى رأيت عينين ناريتين فى رأس التصق شعره الأسود بجبهته التى تنضح بالعرق يحملها جسد نحيل. ولو كان الوقت ليلا لخطر ببالى أنه رأس ذئب. كان هناك شىء حيوانى هائل فى هذا الوجه الطويل، فى نظرات عينيه الغريبتين اللامعتين. وسرعان ما حركت يدى نحو مسدسى وقلت:

- من أنت؟

- أنا من رجالك يا آغا.

– هل أنت قيرغيزى؟
– نعم واسمى قليج باى.
– هل أنت جريح؟
– لا.
– كيف نجوت؟
جلس على الأرض وحكى لى وهو ينظر أمامه بعينين دامعتين:
– بمجرد أن فتح الألمان نيرانهم، تركت المدفع وهربت وأقسمت ألا أحارب من أجل الروس الكفار، لماذا أحارب من أجلهم يا آغا؟ (١)
– اشرح لى كيف مات قائدك؟
– كنت أشاهد الموقف من هنا. لم يمت القائد من نيران العدو، يا آغا. فى بداية إطلاق النيران مات أبطالنا المسلمون. وعندما خفت نيران العدو قليلا، قام الصديق القائد بجمع جثث الموتى فى مكان واحد. ثم تمرد الروس الذين بالجناح الأيسر وأطلقوا النيران على القائد. حاول البحث عن ملجأ يختبىء فيه. وكان كالحيوان أمام الصياد وقد حوصر من كل جانب. فاختبأ بين صندوقين فارغين. وهناك أطلقوا الرصاص عليه فحصدوه حصدا.
كانت كل كلمة من كلمات قليج باى القيرغيزى تنغرس فى قلبى كأنها الخنجر.
– ولماذا لم تسرع لنجدته؟
– وماذا كان فى يدى أن أفعله يا آغا؟ ماذا كان يمكن أن أعمله؟ لم يكن هناك شىء فى يدى، حتى السلاح!
سكت. ثم دفن رأسه بين كفيه :
– والآن سأتحمل أنا ذنبهم.
أخذ قليج باى يبكى باختناق وكأنه طفل. اقتربت منه ووضعت يدى على

(١) آغا : لفظة احترام عند مسلمى تركستان تعنى الموقر، المبجل، المحترم .

كتفه. أثرت فيّ دموعه قدر تأثير موت سليمان والآخرين. وبينما ننظر كل منا إلى الآخر، إذا بقذيفة تنفجر فى التل الذى تركت عليه جريشة. نظرت إلى التل. أرى بوضوح جريشة وهو ينزل إلى أسفل التل مهرولا. وقبل أن يختبىء فى المحاصيل، انفجرت طلقة أخرى عن يمينه. يتدحرج جريشة على الأرض، ثم يقوم ليجرى مرة أخرى، نحو الحقل المزروع، قذيفة أخرى عن يساره، قذيفتان. ثلاث. أربع. يختفى جريشة بين الدخان الملون والأراضى المرتفعة فى الجو. لكن النيران لا تستمر طويلا. جريت مع انقطاع النيران، نحو جريشة، نبحث عن جريشة فى الحفر التى أحدثتها القذائف، يرقد فى إحدى هذه الحفر غارقا فى دمائه، كم كبرت عيناه الصغيرتان وكم أصبح وجهه القبيح جميلا! مسكين جريشة! مازال حتى الآن حتى هذه اللحظة يأتى لكى يقف أمام عينى. رأسه بين ركبتى. ينظر إلى عينى ويقول:

– أنت جئت يا سيدى الملازم، جئت. أنا سأموت. أموت.

بدون تفكير كبير خلع قليج باى قميصه ولف به ساقى جريشة، ربطت حزامى على القميص وحملنا جريشة إلى كرانسوى، لقينا عربتين تابعتين للصليب الأحمر تتقدمان فى طريق مترب. فى إحداهما ترقد جثة مغطاة الوجه بالتبن. يعبث البعوض بالدم المتجمد فى قدميها العاريتين المنتفختين المزرقتين. وكان السائق يلف سيجارته كما لو لم يكن يرانا. سألته عن المستشفى فأشار برأسه إلى منزل صغير مسقف بالتبن واطىء، فى داخل الحدائق على الجانب الأيمن. وعند خروجنا إلى الجانب الآخر من الطريق رأيت شيشكوف، يخرج من الحديقة ويتقدم نحونا، كان بجانبه عدة ضباط لا أعرفهم، قال:

– من الجريح؟

– جريشة، الذى أتى معى.

ثم نظر شيشكوف إلى قليج باى وقال:

– من هذه الحشرة السوداء؟

– إنه من فصيلة سليمان.

– أهو فقط الذى نجا؟

– نعم. هو فقط.

وسلمنا جريشة إلى رجال السلاح الطبى وذهبنا إلى القائد. إن الدفاع عن كرانسوى قد ظل بين كل مذكراتى أدمى فاجعة فى الحرب.

- ٤ -

روما، فى ٩ / ٥ / ١٩٤٦

ذهبت اليوم أيضا إلى الطبيب، هذه هى المرة الثالثة التى أذهب فيها إليه، كان رأسى يؤلمنى بالأمس ألما لدرجة أننى لم أستطع قراءة ما كتبته فى المذكرات، شرحت للطبيب الألم الذى ألم برأسى، قال لى الطبيب ، بعد أن كشف على من قمة رأسى إلى أخمص قدمى، أن ليس بى شىء، قال لى أيضا: «ستعيش ببعض آلام تلم برأسك إلماما يسيرا، مثل هذا الألم، إلى مائة سنة مقبلة». عدت إلى الفندق، وأنا مسرور، إن شعور الإنسان بأنه صحيح معافى، لهو فى حد ذاته سعادة. وفى لحظات مثل هذه اللحظات، أجد نفسى وقد عزفت عن كتابة المذكرات، وكأن المذكرات ليست حياتى، إلا أننى عندما أخاف أو تنعكس لى صورة المستقبل، رديئا مخيفا أهرب من حياتى، وألجأ إلى المذكرات، لكن سرورى هذا لم يستمر طويلا. ومرة أخرى أويت إلى سريرى، بأفكار سوداء. أرى كل شىء أسود. يقول الطبيب إنك تخاف من شىء فى الماضى، وظل هذا الخوف فى داخلك وقد برز هذا الخوف ووضح، وأنت متضايق منه، لكن لا تلق بالا، فستنسى مع مرور الزمن، ولن يبق فيك أثر لذلك.

لماذا أخاف، لا أعلم. لكن أتصور أن كل شىء لى فى الحياة قد انتهى.

فى عام ١٩٢١ حدثت مجاعة هائلة فى القرم. ولم يعد هناك كلاب ولا قطط فى القرى. أكلها القرويون الجوعى. أمسكوها كلها وأكلوها، كنت فى الثالثة من عمرى فى ذلك الوقت. ولا أتذكر المجاعة. ثم ماذا

حدث؟ فى عام ١٩٢٧ حدثت هزة أرضية فى سواحل القرم. وأذكر هذا الزلزال جيدا. ترى هل هو سبب خوفى؟ أصابنى الخوف غالبا لكننى لا أستطيع أن أقول هذا للطبيب. لو عرف الطبيب أننى من القرم، فسيخبر الأمريكان، وسيسلمنى الأمريكان بدورهم إلى الروس!

كان منزلنا عبارة عن مبنى جميل مبنى من الحجر، وفى طابقه الأعلى أربع حجرات وممر طويل وشرفة تطل على البحر، أما الدور الأسفل فكان عبارة عن الإسطبل والمخزن الشتوى، أذكر أن والدنا قد أوى إلى فراشه فى ذلك المساء متأخرا لأنه كان يقص علينا السيرة النبوية، وفى منتصف تلك الليلة تقريبا هبت رياح شديدة فاستيقظنا كلنا. أغلقت أمى النوافذ. أخذت الحيوانات فى الإسطبل تخرج أصواتا غريبة. يبدو أن أمى لم تر رياحا شديدة هكذا فى حياتها. جاءت أمى نحونا ونحن نيام واحتضنت كل واحد منا على حدة، وهى تدعو له. كانت أصوات دعوات أمى متداخلة مع أصوات الحيوانات الجافلة تحتنا، مع أصوات الرياح أيضا. وكان أبى يبدو وكأنه ينتظر خطرا ما. فكان بين الآونة والأخرى يفتح شبابيك النافذة، وينظر إلى الخارج. غطى ظلام دامس نوافذنا المواجهة للمارة. لكنا كنا نرى من النافذة المطلة على جبل آبى، القمر وقد شق السحب الرصاصية اللون هاربا نحو ظلام الشمال. وأخيرا، دخلت الرياح الهائجة حجراتنا وطيرت ملابسنا وأغطيتنا وهدمت زجاج نوافذنا قطعا قطعا وكأنه عناقيد ثلجية كسرت جيدا.

ما كنت أراه جيدا فى تلك اللحظة: سحاب شديد السواد يتجه من الهضبة نحونا وكأنه التنين. انقطعت أنفاسنا وأصبحنا كالمخنوقين، ثم

اهتز بيتنا من أساسه بضجة كأنها قدمت من أعماق جهنم، وانقلب الحائط الذى كنا نرقد بجواره، انقلب كما هو إلى الخارج. أطلق والدى صرخة مولولة مفادها: أولادنا! أولادنا! لم أعد أذكر كيف نزلنا من أعلى السلم المهدم. وجدنا أنفسنا فى الحديقة أمام البيت. وبدا الأمر لى وكأن الله سبحانه وتعالى مازال غاضبا علينا. كانت الأرض تتحرك بين الحين والحين من مكانها وبدا كل شىء يجمد بلا حراك فى إطار ضيق عميق. ترك نصف أهل القرية فى اليوم التالى، بيوتهم وهربوا. وبقينا نحن. قطع أبى أشجار البلوط الأربع الشامخة أمام منزلنا، قطعها من منتصفها وغطى ما بينها بأشجار طرية ووضع الصفيح فوقها ليغطيها بها. وصنع منزلا أشبه بكوخ الفراخ. وبذلك قضينا شهرين فى هذا المنزل الصغير. أفكر الآن: ترى هل خفت فى وقت الزلزال؟ أظن أننى خفت. عندما كنت أذهب إلى الماء فى «عين محرم القرنى» كنت أريد بشدة أن يأتى معى أخى الصغير بكر. وعندما كان يحدث زلزال ونحن فى الطريق إلى الماء، أجد نفسى فجأة أترك الأباريق النحاسية من يدى وأحتضن أخى بكرا وأدعو.

وبعد شهرين، أقام والدى من جديد الحوائط المهدمة، ونقلنا إلى بيتنا، ورويدا رويدا نسينا الزلزال، وأصبحت الحياة كما كانت قديما لطيفة ولذيذة.

ها قد أصبح الوقت متأخرا، لا أستطيع النوم. لماذا لا أستطيعه؟ وإذا نمت هل أجد - عندما أستيقظ صباحا - الناس والدنيا كما تركتهم؟! يا إلهى! اللهم احفظنى!

*

نترك عربات نقل الذخيرة التى تحترق ونتجه نحو برفومايسك، يأتى المساء، أسير بجوار شيشكوف، وجهه جامد حتى إنه يبدو مخيفا لا أجرؤ حتى على بدء الحديث معه، القمر من فوقنا ينظر إلينا، ومن بعيد، وفى صمت الليل وسكونه نسمع احتكاك حديد، وصوت بندقية. نتقدم، أرى كل نظرة من نظرات ماريا، وكأنى بمفردى تحت القمر أسمع كل كلمة من كلماتها، أريد أن أعود إلى الخلف، إلى ماريا.

يقف شيشكوف، وكان يسير فى المقدمة، ينظر إلى الآفاق ناحية الغرب. هناك حمرة تختلط بالأدخنة السوداء فى الأفق، يقول شيشكوف:

– برفومايسك تحترق. والكلاب فى كل مكان.

يهمس بهذا إلى نفسه يحدثها به، أحس بآلامه الداخلية المميتة تنطبع فى صوته. نتقدم أكثر، أخرج الآن: إلى طريق إسفلتى يضيئه القمر. نصل إلى غابة سوداء، نرى ثلاث عربات نقل بعيدة عنا بما يقرب من خمسين مترا، نتقدم ناحيتها لم يبق بيننا وبينها إلا مسافة عشر خطوات، وإذا بصوت، صوت شاب يزأر:

– قف! من أنت؟

– أمين.

– من هناك؟ أجب! سأطلق النار.

شيشكوف لا يجيب. عندما يرى الديدبان النوبتجى مجموعة جنود أمامه، لا يتحرك كثيرا، يسأله شيشكوف:

– كم رقم الفصيلة؟

– الوحدات الصحية التابعة للواء السابع والخمسين مدرعات رابضة

فى الغابة أيها الأخ الكوميسير.

– من أين أنتم؟

– قدمنا من برفومايسك.

– المدينة في يد من؟

– عند خروجنا منها كانت النيران تلتهم المدينة، أيها الأخ الكوميسير، ولا أدرى حالها الآن، كان يوم أمس كله جريحا.

نتقدم نحو الغابة، لا نحس بأى أثر للحياة مطلقا قبل دخول الغابة، المكان صامت وساكن، ثم رويدا رويدا نسمع أنات عميقة، وأحاديث قصيرة، وهمسا وكأن أرواحا فى مقبرة موحشة، يتحدث بعضها إلى بعض، رويدا رويدا يداخلنى الخوف. أريد الخروج من الغابة، أضغط خطواتى. لكن عندئذ أسمع من بعيد صوت أنين، أقف وأستمع ومن بين عدة همسات وأصوات. ولا أدرى كيف ولماذا يخيل إلىّ أن ذلك الصوت ينادينى؟ وبدون إرادة منى أدخل الغابة وأسير فى اتجاه ذلك الصوت. وبين حين وآخر أقف وأستمع. وبعد انقطاع أصوات أقدام شيشكوف وجنوده من على الطريق الإسفلتى، أبقى تماما بين أنين الجرحى والمرضى، أمامى مستشفى عبارة عن خيمتين. أمام الخيمتين كثير من الجرحى، يرقد بعضهم بلا حراك، ثم ترى هل ماتوا؟ جنديان يسيران بين المرضى، وبين حين وآخر ينحنيان على الجرحى، ثم يهمس بعضهم لبعض بشىء. يدخلان الخيمة ويخرجان. أبحث عن الصوت الذى كان ينادينى منذ قليل. لكن الأنات، من الصعب تفرقة بعضها عن بعض وتمييزها فهى تتشابه. وأخيرا وعندما قررت الخروج من الغابة. سمعت صوتا من خلف الخيمة يقول:

- الله، اللـ.....ـه!

انطلقت من على الجرحى إلى ما وراء الخيمة. كنت أحاول تبين وجهه فى الظلام وعندما كنت أنحنى عليه، نظر إلى عينى وهو لا يزال يذكر الله.

- أأنادى الطبيب، يا أخى؟!

كان ينظر إلى عينى بعينيه الواسعتين الملتهبتين، كان فى الخامسة والأربعين وربما فى الخمسين من عمره. كان يعض على شفتيه المرتعشتين، أغلق عينيه وقال:

- لا يا عزيزى! ماذا فى يد الطبيب أن يفعله. أنا طبيب. طلقتان اخترقتا بطنى. هل أنت مسلم؟ اسقنى يا أخى فى الله!

سقيته ماء. كان يصارع الموت، ووجهه كان أبيض، شديد البياض، وكأنه الجير حاول أن يقيم رأسه، انحنيت عليه قليلا. سألنى:

- من أين أنت ياعزيزى؟

- قرمى، من القرم .

- قرمى؟.. أنا قازانى.. من قازان.. لا تنزعج منى. سأقول لك شيئا.. هل تسمعنى؟

ثم تمدد. أمسكنى من قميصى، شدنى نحوه وهمس فى أذنى بصوت مخيف، وقال:

- لا تحارب.. نحن يا أخى دماء مسفوكة فى سبيل هذه الأمة الظالمة.

استمرت عيناه الكبيرتان داخل عينى، وقال:

- أنا من قازان، أنا تتارى من التتار. تعلمت فى قازان وأصبحت

طبيبا، اسقني ماء يا أخي. في عام ١٩٣٥ أخذوني، أبعدوني عن زوجتي وطفلي وأحبهما أكثر من روحي، حبسوني، ألقوني في السجن لماذا؟ لا أعلم. هلهلوني في سجون جي. ب. يو وقبل شهرين أخذوني من السجن وأحضروني هنا، اخترقت رصاصتان ألمانيتان بطني. أعرف أن الطبيب لن يفيدني، يا أخي! استمع إلى ما أقوله لك. دعك من الحرب ولا تحارب.

كان وهو يقول لي هذا، يمرر يده اليمنى الجريحة من صدره إلى عينيه، ومن عينيه إلى صدره، أصوات طائرات من بعيد. مازال الطبيب يقص عليّ ما عاناه، أما أنا فكنت أصغي سمعا إلى أصوات الطائرات المقتربة من الغابة، أنات الجرحى حولنا. صوت الطبيب انقطع فجأة. سمعت صوت أزيز طائرات، أثناء انحنائي لكي أعطي الطبيب المجروح ماء، أعقب هذا صوت انفجار مدهش جعل الغابة تئن، حدث انفجار بعيد عنا إلى حد ما، وبعد أن ذهبت الطائرات، رفعت رأسي، ونظرت إلى الطبيب القازاني كانت عيناه منغلقتين. اختفى وجهه الذي كان يبدو منذ قليل مضطربا، وتحول إلى وجه أكثر جمالا وبصوت خفيض قلت:

– ذهبت الطائرات، ونحن الآن في أمن وسلامة.

ولم يجب الجريح. كان بلا حراك، بلا حس وكأنه غاضب مني أخذت يده ووضعتها بين كفي قائلا له:

– أتريد ماء يا أخي؟

وإذا بورقة خشنة، وجدتها في يدي عرضتها للضوء لكي أعرف ما فيها.

إنها صورة طفل، لعله ابنه. ورويدا رويدا قمت واقفا على قدمي.

وخرجت من الخيمة، سألت الجندى الذى بالخارج عن طبيب. قال لى وهو يشير نحو خيمة:

- فى الخيمة.

دخلتها وألقيت التحية، وقلت:

- الملازم طوران، من القيادة.

فإذا بصوت غليظ يقول:

- ها ها! من القيادة!.. اقترب منى. أى خبر أتيت به؟

فهمت من لهجته أنه طبيب كرجى من بلاد الكرج، نهض واقفا من على صندوق الذخيرة الذى كان يجلس عليه. وأوقد الشمعة الموجودة فى علبة الصفيح المعلقة على عامود الخيمة. كان رجلا متوسط الطول، بدينا بعض الشىء حلت رهبة اليوم كله فى وجهه الآن، وجهه الذى كان جميلا فيما مضى.

- اجلس وقص علىّ، أيها الملازم، أى أخبار جئت بها.

- لم أحضر أخبارا أيها الطبيب الصديق، أريد أن أعرف فى أى وقت يمكن دفن الموتى.

تغيرت نظراته فجأة، قطب حاجبيه، احمر وجهه، وصاح:

- موتى! موتى! ألا يوجد من يفكر فى الحياة؟! هل تعرف كم ميتا فى هذه الغابة؟ سبعون فقط أحياء من مائتى جريح، من يدفن مائة وثلاثين ميتا؟ تحت إمرتى ثلاثة جنود. ثم تظهر لى أنت لتسألنى متى يدفن الموتى؟! الموتى! كانوا أحياء، ماذا يمكن أن يعمل لهم؟ لا قطن، لا ضمادات، لا دواء، ولا حتى خبز. أتسأل القيادة وتهتم بأحوالنا بهذا الشكل؟ القيادة!! يالكم! هؤلاء الذين لا يعرفون شيئا غير المرور أمام

المجموعة وإلقاء الأوامر! عجبا متى يدفن الموتى؟ إن هذا ما يجب علىّ أنا أن أسألكم عنه. إن مهمتكم قتل الناس. أما عملى أنا، فليس قتل الناس ولا دفن الموتى، وإنما إحياء الناس، أنا أقوم بأداء عملى بأقصى ما أستطيع. هنا جرحى لم يدخل الطعام جوفهم منذ أسبوعين. أنا أنتظر منكم العون والمساعدة، أعيش منذ يومين، وسط هذه الغابة أعيش بين الأنات.

استمر انفجاره هذا فترة، شتم فيها القيادة، ثم هبط على الصندوق وأفسح لى مكانا بجواره.

- اجلس أيها الملازم. تبدو وكأنك شاب رحيم، لا تحمل كلامى على أنه موجه إليك، إياك! كيف عثرت علينا، وما أخبار الجبهة؟

لم يبق أى شك فى أن الطبيب إنسان طيب القلب، التصقت بحافة صندوق الذخيرة. أخرج الطبيب الكرجى علبة الدخان من جيبه، ولف سيجارة.

- برفومايسك فى يد العدو، هل هذا صحيح؟

- لست قادما من برفومايسك أيها الصديق الطبيب.

نظر إلى وجهى مندهشا:

- ألم تقل من القيادة؟!

- قلت من القيادة، لكن لم أذهب إليها منذ أسبوعين. أين هى؟

لا أعلم. كنا أمس نمر من هنا فى المساء، وجدت أخى بين الجرحى، لم أتركه حتى الصباح، لكن جرحه كان شديدا، لم يستطع التحمل فمات.

تغير وجه الطبيب فجأة. انتهى ذلك الرجل الذى كان منذ قليل متوتر

الأعصاب، ينفث النار من فمه وحل محله شخص آخر. أخذ وجهه بين كفيه وقال بصوت خفيض جدا، وهو ينظر إلى طرف حذائه المتسخ:

- سامحني أيها الملازم.

وبعد قليل رفع رأسه وأشار إلى ناصية الخيمة:

- هناك مجرفة خذها. وادفن أخاك وهناك جندى أمام الخيمة قل له أن يساعدك.

أخذت المجرفة. وخرجت من الخيمة، وكان الصبح فى الخارج، فى بدايته، وفى مكان قريب من الطريق الإسفلتى، حفرت قبرا بين شجرتى بلوط، وعندما أنزلنا - أنا والجندى - الجثة إلى المقبرة، جاء الطبيب الكرجي وقال:

- لقد جاءوا بالمسكين، أمس، وبجوار خيمتى، تحدث كثيرا عن أسرته، ثم قال ما بوسعه أن يقوله. شتمنا كلنا.

لم أستطع التحكم فى دموع عينى عندما كان ينزل إلى القبر وصورة ابنه على صدره . كان هذا الطفل فى أعماقى يصيح بلا انقطاع قائلا: «بابا! بابا!» يبدو أننى كنت أفهم وللمرة الأولى معنى الأبوة، دفناه. وقبل أن نبتعد عن هناك دلفت إلى خيمة الطبيب وقدمت له شكرى. قال وهو يضغط على يدى مصافحا:

- هل لك أخ غيره أيها الملازم؟

قلت:

- نعم، لكنه ليس فى الجيش، إنما فى المنزل، بجانب أبى وأمى، إن الإنسان الذى دفنته ليس إلا أحد مواطنى بلدتى، لم أكن أعرفه. وليست لى به صلة، أيها الصديق الطبيب، لم أرغب فى تركه دون دفن.

ضحك الطبيب ضحكة نورت وجهه، وقال وهو يضع يده على كتفى. وقال:

فلتحيا أيها الملازم! أحبك الآن أكثر.

افترقنا. دخل الطبيب إلى خيمته، وصعدت أنا إلى الطريق الإسفلتى وأخذت طريقى من جديد نحو برفومايسك.

عندما وصلت إلى منطقة القيادة، كانت شمس محرقة تلفح المكان. وعلى جانبى الطريق كانت جموع كثيفة من الجنود تتجمع، وكان الجنود جميعهم يسودهم الضعف لحاهم طويلة، ملابسهم جميعا متربة، يعلوها الطين والدم.

الضباط يصيحون بالجنود ويشتمونهم. بعضهم كان يصدر الأوامر وفى يدهم المسدسات. كان منظرهم جافا لدرجة أننى لم أستطع أن أسأل عنهم ايفان الكسندروفيتش وبينما أبحث فى هذا الزحام عن وجه أعرفه، لمس أحدهم كتفى. كان رجلا قليل شعر اللحية، نحيفا، متعبا، شفتاه متدليتان، غريبا. نظر إلى وجهى وهو يضحك:

– لم تعرفنى يا آغا. أنا قلبيج باى. من فصيلة الملازم سليمان كرانسوى. هل تذكرت؟

– تذكرت، تذكرت، أين مبنى القيادة؟

أشار قليج باى إلى مدفعين كبيرين فى الناحية الأخرى، على بعد حوالى مائتى متر.

– بجانب هذين المدفعين.

ثم وبإحساس عميق، قال:

– ألا تأتى معى يا آغا قبل أن تذهب إلى القيادة؟ أصدقاؤنا

هناك. كلهم مسلمون. أنت متعب، وبذلك تكون قد استرحت قليلا.

أوافق، ونسير معاً، بعدنا عن ازدحام الجنود، خلفناهم وراءنا، نتقدم عبر ماء، وبعد عشر دقائق نقترب نحو مكان كثير الدغل، أرى بين الأدغال حوالى عشرة أشخاص أو ثمانية، يقف بعضهم على قدميه، والبعض الآخر، يقف على ركبتيه، يقف قليج باي ويقول:

– أليس اليوم هو الجمعة يا آغا؟ إن صديقنا آق صقال لا يعترف بالجبهة ولا بغيرها إنه يقيم الصلاة بمجرد سنوح الفرصة، انتظر هنا؟

أجلس على الأرض، وأسأل قليج باى :

– من هو صقال هذا الذى تحدثنى عنه؟

– هذا الذى هناك، الطويل القامة، إنه أوزبكى من بخارى، رجل حنون ولكن.. انظر إلى المصلين بين الأدغال، يملأون بأصواتهم الهامسة قلبى بأشياء.. أشياء أحسها فقط. لكنى لا أستطيع فهمها، ولا أستطيع شرحها، أريد أن أنهض من المكان الذى أجلس فيه وأذهب بجوار هؤلاء الناس، أريد أن أجرى إليهم، أريد أن أفرغ أمامهم كل ما فى قلبى، أعيش معهم، أكون واحدا منهم، يخيل إلىّ كأنهم معى فى الحياة دائما، هناك قوة فى دعائهم، هذه القوة تنتقل إلىّ، إنهم يعيشون مع الله وأنا أيضا أريد أن أعيش وأنا أذكر الله فى كل نفس من أنفاسى، إن اسم الله الذى يصدر من أفواه ثمانية جنود أو عشرة من هؤلاء الأوزبكيين فى نفس واحد وهم يصلون بين هذه الأدغال، يبين لى لماذا سأعيش وفى أى سبيل سأحارب.

كان قليج باى بجوارى يلف سيجارة. سألته:

– ألا تخافون وأنتم تصلون هكذا خفية بين الأدغال؟

يقول آق صقال: سر وأنت تذكر اسم الله. سلم نفسك لله، ولا تخف بعد ذلك، فالله يحميك، ولا شك فى هذا يا آغا.

أريد أن أفهم كل كلمة تخرج من فم قليج باى. كنت أود أن يتكلم أكثر. قال قليج باى بهدوء:

– أنا شاب يا آغا، لكن ذنوبى كثيرة، أنتظر فرصة.

نظرت إلى هؤلاء الأوزبك الذين يصلون وهم بين الأدغال، خطر ببالى أن آق صقال هذا الذى يتحدث عنه قليج باى، ولى من الأولياء، انتهت الصلاة. جلسوا كلهم على الأرض، ساد الجو سكون عميق، ثم أنشدوا جميعا وبأصوات حزينة رقيقة صادرة من قلوبهم، نشيد:

ماذا حدث لك يا تركستان الجميلة
ذبلت الورود فى غير زمان الذبول
لا أعلم لماذا لا تغنى الطيور فى حدائقك؟
آه.. فى حدائقك..

وجدت روحى – بهذا النشيد – ترغب فى أن تنفصل عن جسمى، وتطير بعيدا، بعيدا، إلى حدائق تركستان الذابلة، الجافة، العطشى.

*

وجدت شيشكوف والضباط الآخرين بجانب صناديق الذخيرة المكدسة بين المدفعين الضخمين. لا يزال فى وجه الكوميسير التعبير المر الذى كان عليه بالأمس، يترك الضباط بين الحين والحين الحديث، وينظرون إلى الجنود الموجودين فى المكان، هؤلاء الجنود الذين أخذت أصواتهم تعلو وترتفع، يشتمون، يتشاتمون، أصوات المدافع تأتى من بعيد، تسمع انفجارات متقطعة، أعداد الجرحى الذين يرقدون على

الدبابات التى جاءت تتزود بالبترول، تكفى للدلالة على حالة الجبهة. الجنود المصابون بجروح ثقيلة، يحملون إلى الجنوب، بسيارات النقل الكبيرة، أما الجرحى من نوى الإصابات الخفيفة فيتركون فرقهم فى الجبهة ويهربون. لذلك يقوم الضباط السياسيون، والمسدسات فى أيديهم بسب هؤلاء الجرحى وإعادتهم إلى الجبهة ثانية.

كانت المباحثات بين المكتب السياسى وبين الضباط نوى الرتب الكبيرة تستمر طويلا، ساعات وساعات، على كل حال يبدو الجميع متعبين مرضى، يفكر شيشكوف أن يهجم على برفومايسك المحتلة فورا بفرقتنا الموجودة بجوارها، وأن يخف لمساعدة الفرقة الممسكة بالجبهة، كان قائد الفرقة والضباط الكبار الآخرون ضد فكرة شيشكوف هذه. أذكر أن قائد الفرقة كان يعترض على هذا قائلا: إن الجنود - منذ أيام - جوعى وعطشى، فما بالك بحرب العصابات، ولا سيما أن من بين الجنود من ألقى السلاح.

كان الجنود يستطيعون الحصول على قوتهم اليومى بأخذ ما يجدونه فى أيدى نساء أوكرانيا الفقراء، قبض جنود منظمة الشرطة السرية، هذه المرة، على العساكر الذين تركوا فصائلهم وفرقهم من أجل البحث عن الخبز فى القرى، وبأمر من ديوان الحرب أعدموهم فورا بالرصاص أمام أعين جنود الفرقة. ضباط الفرقة كانوا يعرفون هذا جيدا، ولكن، ماذا بأيديهم أن يفعلوا. إنهم أيضا من ملازمهم إلى لوائهم، كانوا ينتهزون الفرصة للاختفاء عن أعين منظمة الشرطة السرية التى لا يغيب عنها شىء قط، يحاربون بهدوء وينتهزون الفرصة للهرب إلى جانب العدو قبل أن يموتوا برصاص أمتهم، أما هؤلاء الضباط الذين

يجدون فى أنفسهم الجرأة على نقد ضباط المكتب السياسى، يصبحون أحب الضباط وأكثرهم احتراما فى صفوف الجنود. وكان هذا من الأمور المألوفة.

يطرح الآن قائد الفرقة ضرورة الانسحاب بكل الفرقة فورا إلى نواحى الكسندوفكا وانتظار العدو هناك بكامل الاستعداد لملاقاته، الضباط الآخرون من ذوى الرتب الكبيرة أيضا كانوا يؤيدون هذه الفكرة، وكان يبدو أن شيشكوف وضباط المكتب السياسى الذين معه لن يستطيعوا الإصرار كثيرا أمام فكر الأغلبية، بدأ التجهم البادى فى وجه إيفان الكسندروفيتش، يزول رويدا رويدا، وأخذ وجهه فى الانبساط، حدث أثناء ذلك شىء غير متوقع، سمعت أصواتا مضطربة وصياحا صادرا من داخل الازدحام فى الجانب الأيمن، ظهر ضابط شاب، فجأة، بعد أن اخترق الزحام، بملابسه وقد تمزقت تمزقا ظاهرا، والدم واضح عليه، كانت حالته رهيبة لدرجة أحدثت رعشة باردة فى سلسلة ظهرى الفقرية، وقف هذا الضابط بين كتلة الجنود وبين الضباط رافعا يديه ويصيح بصوت متوحش قائلا:

– اخترقونا! لم تعد هناك جبهة. داسوا على أجسادنا بدباباتهم! حطموا عظامنا!

وخر واقعا على الأرض، وأخذ يئن ويقول:

– آه يا أمى! ساروا فوق أجسادنا!

كنت أحاول النظر إلى وجه الضابط الجريح، أسرع الضباط نحوه، رفعوه من على الأرض، وأخذوه بعيدا. بعد ذلك بدقائق معدودة، وبينما أنا واقف بجوار المدفع، إذا بيد تلمس كتفى. التفت لكى أرى، فإذا به

شيشكوف قال لى:

- تعال معى يا طوران.

ابتعدنا عن الزحام، وسرنا فى اتجاه الميدان الذى اصطفت فيه سيارات النقل، والمدافع، والدبابات، توقف شيشكوف قبل الوصول إلى الماكينات. ووضع ذراعه على كتفى، وقال:

- خذ سيارتى واذهب فورا إلى الكسندروفكا، لقد اخترقت الفرق الألمانية الجبهة، وإذا تمكنوا من الوصول إلى الكسندروفكا قبل حلول المساء، فسيعبرون بسهولة إلى الجانب الأيمن من بوك، خذ معك بضع صفائح بترول. واحرق الجسر الموجود فى الكسندروفكا. ولكن بسرعة! كم رجلا تحتاج؟

- يكفى اثنان.

- خذ عشرة، لمواجهة أى ظرف طارىء، كل دقيقة ذات قيمة، أسرع بالحركة.

وفى أثناء ركوبنا السيارة نصف النقل، جاء قليج باى وهو يجرى فى اتجاهى وكانت عيناه الصغيرتان تعكسان الفرحة :

- خذنى معك يا آغا.

- وأصدقاؤك؟

- وأنت! ألست بصديق؟

- هيا، اقفز.

أين هو الآن ياترى؟ هذا الرجل الذى فقدته فى الكسندروفكا. وجدته فى معسكر أسرى تركستان بعد عام واحد. أما بعد ذلك.

الكسندروفكا تبدو كأنها صامتة مهجورة. تبدو السماء صافية زرقاء

بعد مطر الأمس، كانت الروائح تصعد باردة من الحدائق الواقعة على ضفتى النهر. وقفنا فى مكان قرب الجسر. ينظر الأطفال والسيدات المسنات إلينا، من نوافذ المنازل المجاورة، بعيون مفتوحة مندهشة، خرج رجل كبير السن أبيض اللحية، من أحد البيوت واقترب منى، عندما كان الجنود يسكبون البترول على الجسر، وقال:

– ألن تحرقوا الجسر يا بنى؟

قلت له:

– سنحرقه يا والدى.

– منذ ثمانين عاما وهذا الجسر قابع فى مكانه، سالت من تحته مياه تكفي لملء بحار، فاض النهر وتجاوز ضفتيه، لكنه لم يقو على هدمه.

– إذا كان النهر قد عجز عن هدمه، فالنار ستحرقه.

قلت للجاويش واصل ايف، وأنا ألتفت إليه:

– أوقد النار فيه، ومن هنا.

اقترب منى الرجل المسن قليلا وقال:

– قف، قف دقيقة واحدة، فالجسر لنا حيوى يا ولدى.

– نحن الآن فى حرب يا والدى، إذا انتهت الحرب، سنأتى، لنبنى لقريتكم جسرا جديدا. ولن يكون خشبيا مثل هذا، سيكون جسر حديد، لأحفاد أحفادك.

– حسنا ياولدى، لكن الجانب الآخر، فيه حيوانات ترعى. لابد من سوقهم من هناك إلى هنا، اسمح لى لكى أقوم بتعديتهم.

– مستحيل يا والدى، فلم يعد هناك الوقت لهذا.

تدخل الجاويش واصل إيف فى الحديث قائلا:

– الحيوانات، ياجدى، ملك الكولخوز.

– فلتكن ملك الكولخوز، إن هذه الحيوانات، هى التى تساعدنا على الحياة، حتى اليوم.

– العجوز على حق يا واصل ايف، خذ شخصين واذهب، وسق الحيوانات إلى هذا الجانب.

ذهب واصل ايف. وساق الحيوانات إلى الجانب الذى نحن فيه. أما نحن، فسريعا أشعلنا النار فى الجسر، وبعد خمس دقائق أو عشر، ارتفع الدخان الأسود من الجسر الخشبى نحو السماء. واجتمعنا نحن بدورنا أمام منزل العجوز، وعندما بدأت مع جنودى أكل الزبادى فى الحديقة، ظهر عدة فرسان من بين المنازل المواجهة وانطلقوا نحو الجسر الذى كان يحترق بسرعة البرق. قمت واتجهت ناحية الجسر، لكن ضابطا برتبة كبيرة يركب صهوة جواده قطع الطريق عليّ، قبل أن أصل إلى الجسر، احمر وجهه احمرارا ظاهرا. ركز عينيه الحمراوين على عينى، وسألنى:

– من أحرق الجسر؟

– أنا.

امتقع لون وجهه، قطب تماما ما بين حاجبيه، وصدرت عن شفتيه كلمة واحدة فقط هى:

– أطفئها!

– أحرقته بناء على أمر قائد الفرقة السابعة والخمسين، أيها القائد الصديق.

– أطفئها يا ابن الكلب! وإذا لم تفعل، سأدوس على ظهرك بالحصان، وأنقلك إلى الناحية الأخرى وأنت هكذا.

همس قليج باى وهو واقف بجوارى، قائلا:

– ديوث!

أمرت رجالى أن يطفئوا النيران، وأسرعت إلى القرية أستدعى الناس لمساعدتنا خرجت النسوة والفتيات الحافيات والأطفال من المنازل التى كانت صامتة منذ حين وأسرع الجميع لإطفاء الجسر وبعد ساعتين كاملتين ظهرت دباباتنا . أخذ الجنود الذين قدموا من الخلف أماكنهم حول المنطقة وامتلأت الكسندروفكا الصغيرة من أولها إلى آخرها بالجنود ووسائل الحرب . أما أنا، فسرعان ما وجدت الكوميسير شيشكوف وشرحت الأمر له فقال :

– هذا أمر حسن ، سنخرج إلى الجانب الآخر من «بوك» لنلتحق بالجيش المنسحب نحو نيقولاييف .

كانت المنطقة مزدحمة ازدحام الحشر، وامتلأت الحدائق بالدبابات وعربات المدافع .

إن الكسندروفكا – التى كانت من قبل ساكتة – قد تحولت حالتها إلى حال يصعب معرفتها به، فالضباط بياقاتهم المفتوحة وعيونهم الغضبى الحمراء يتصايحون. والمشاة وقد أخذوا فى حفر الحفر على طول النهر فى المنطقة، وفى الخلف أيضا، وأخذت المدافع مواضعها فى الحدائق . كان هناك نظام وانتظام يثيران الانتباه إلى الفرق التى تركت مرضاها وجرحاها فى الخلف. وعند تناولنا لطعام الغداء إذا بنا نفاجأ بهجوم جوى، لكننا قابلنا الطائرات الألمانية التى كانت تتجه من

الأعلى نحو الحدائق، قابلناها بنيران قوية لدرجة أنها عادت إلى الأماكن التى جاءت منها دون أن تلقى قذيفة واحدة من قذائفها. وقرب المساء، أخذت الفرقة فى الاستعداد لعبور الضفة اليمنى من «بوك» وانكب الجنود على إصلاح الجسر الذى أصابه الدمار إصابات واضحة. كانت الدبابات والمدافع من خلفها تقف فى صفوف استعدادا لعبور الجسر . كنت فى الخلف مع القيادة . الله يعلم ، ثم أنا، مقدار السرور الذى انتابنى عند اتخاذ قرار الانسحاب إلى نيقولاييف . كنت كأنى ذاهب إلى القرم . لكنهم أخبرونى وأثناء كلامى بأن قائد الفرقة يستدعينى . ذهبت إليه . وكان فى غرفة سقفها منخفض، ورطبة. وجدت هناك شيشكوف وقائد الفرقة وبعض ضباط آخرين وكان الجميع يحيطون بخريطة . دخلت الغرفة ووقفت بجوار الباب . قال القائد بصوت متعب :

- اقترب أيها الملازم طوران .

واقتربت منه ، فقال :

- استمع جيدا . عندنا مسألة غاية فى الأهمية .

ضحك الكوميسير شيشكوف - وكان على يمينى - ضحكة قبيحة ، وقال :

- اون هوروشى فويتس تاتارين مالوديتس .

استمر القائد فى حديثه .

- اعبر فورا بمجموعة من العساكر إلى الضفة المقابلة من النهر. وتحرك نحو الشمال، وعندما تبتعد عن الجسر بحوالى كيلومتر، خذ وضعك. ولا تنسحب إلى الخلف إلا إذا جاءك أمر منى ! أفهمت ؟!

تحرك فوراً !

– سمعا وطاعة أيها الصديق القائد .

وبعد نصف ساعة، وبينما أعبر الجسر بمجموعة من الجنود، إذا بى أجد قليج باى على ضفة النهر. صب نظرات عينيه الضيقتين علىّ، وكان يضحك. ظننت أنه قادم نحوى ، لكنه لم يأت . اختفى وهو يرجع بين الأشجار الخضراء فى الحديقة. أحسست بغربة موحشة. كنت أشتاق إلى وجود أحد بجانبى يهمس إلى بلغتى الأصلية !

«واصل ايف» يسير بجانبى ، نظر إليّ . بدت فى أطراف شفتيه ابتسامة خفيفة . وكأنه يريد أن يقول شيئا . قلت له :

– ماذا هناك أيها الجاويش !

قال :

– أبدا .. كل ماهنالك أننا نسير كالفلاحين العائدين من حقولهم منهكين .

– أنا متعب .

– وأنا أيضا . وها هو ذا المساء يبدأ. ماذا لو عقد رجالنا معاهدة مع الألمان، تنص على ترك الطرفين سلاحهما بمجرد أن يحل الظلام، ثم ينام الجنود وينعسون . وفى الصباح يقومون ليبدأوا الحرب من جديد . أليست هذه فكرة طيبة، ياسيدى الملازم ؟

– طيبة ولكن أين ..

– يذهب الجندى صباحاً إلى الحرب، وكأنه ذاهب إلى الحقل. يستيقظ مبكرا ، والدنيا مازالت فى عتمة الصباح الأول . يحمل سلاحه ويبدأ إطلاق النار على العدو من الغابة الواقعة فى طرف القرية . وأنت

أيضا تذهب إلى العدو ، تحارب كل اليوم ، ولن تتعب، ذلك كأنك تعلم أن ليس الموت فى قدرك . وبعد انتهاء عملك فى ذلك المساء ، ترقد وتنام نوماً هادئاً .

تدخل الجندى الذى يسير على جانبى الأيسر قال :

– لعلك تفعل مثل الجندى الانكليزى ! تريد أن تشرب الشاى أيضا أثناء الحرب . تقف وتطلب الشاى .

– إيه ! كيف تفكر ؟ إن الصينيين يذهبون إلى الحرب بشمسياتهم. قد لانكون فى احترام الانكليز، لكننا مدنيا مثل الصينيين . ماذا تقول فى هذا ياسيدى الملازم ؟ مادامت الحرب تحرقنا بهذا الشكل، فيجب علينا أن نعاملها مثلما العامل . علينا أن نبدأ الحرب منذ الصباح المبكر، وعلينا أن نقتل – وحتى حلول المساء – من سنقتله وعلى الذين بقوا على قيد الحياة حتى المساء أن يدعوا سلاحهم ويأخذوا قسطاً من الراحة . أليس هذا صحيحاً؟ ولكن !

– صحيح يا واصل ايف .

– قل فى هذا ما تقوله ، أما أنا فسأكتب رسالتين أوضح فيهما كل هذا، واحدة إلى هتلر، والأخرى إلى أبى شنب (١) .

وتقدمنا نحو الشمال ، إلى الضفة المقابلة من النهر . لم يكن فى ذلك الجانب حديقة . عبرنا – أولا – من بين الصخور ، ثم من بعد ، خرجنا إلى مكان مستور . كان فى الأمام خمسة بيوت قروية قريبة بعضها من بعضها الآخر ، أسطحها من التبن، ولكل منها حديقة . وغابة ذات أشجار قليلة تغطى المرتفعات الواقعة خلف المنازل . اختبأت

(١) يقصد ستالين .

خلف صخرة قريبة من الضفة ونظرت إلى البيوت . جاء الجاويش واصل ايف وهو يزحف على يديه وركبتيه . وقال :

- أظن أننا ابتعدنا أكثر من كيلومتر من الجسر، أيها الصديق الملازم .

نظرت إلى الجسر وقلت :

- قل للمدفع الرشاش رقم (١) أن يأخذ مكانه فى الجناح الأيمن .

أشار واصل ايف إلى المبنى الطوبى الأحمر المربع الذى يبعد حوالى مائة وخمسين مترا .

- هذا المبنى سليم وخال، أيها الأخ الملازم، فماذا لو اتخذناه موقعا لنا، ألن يكون هذا جيدا ؟

- دعك من المبنى ، فالألمان لا يحاربون بالسهام أيها الجاويش. هذا المبنى لا يتحمل نيران المدفع. لا تقترب منه ! ادفع المدفع الرشاش رقم (٢) أيضا إلى الموقع فى أرض قريبة من النهر فى الجناح الأيسر، اذهب أولا أنت وانظر فى الأرض، وبين لهم مكانهم.

- سمعاً وطاعة أيها الملازم الصديق .

انسحب «واصل ايف» زاحفاً على الأرض عائدا. وبعد حوالى عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة جاء مرة أخرى إلى جانبى واستلقى . وقال:

- الجناح الأيمن جيد أيها الملازم الصديق. تبدو الغابة وتلك البيوت التى فى الأمام ، تبدو من خلف التل الواطىء ، وكأنها الطبق. لكن شاطىء النهر فى الشمال مكان جد قذر: العلب المحفوظة الفارغة.. الزجاجات .. الزجاجات المهشمة .. القذارة .. كل قذارة الكسندروفكا

هناك. على رقم (٢) أن يأخذ مكانه أمام تلك القذارة أو بعدها بقليل، فإذا أخذ وضعه وراءها فسيكون وضعها أحسن، معنى هذا أن خط الدفاع الطبيعى سيكون فى الأمام، ومادام الألمان متمدنين فإنهم لن يجتازوا هذه القذارة بسهولة .

– حسناً، فليكن خلف القذارة. الذين فى الخلف عليهم النوم على الأرض وبين كل واحد وآخر عشرة أمتار . لا يرفع أحد منهم رأسه. هيا! اذهب الآن وتعال بعد انتهاء العمل ، لتكتب خطابين لكلٍ من هتلر وأبى شنب.

– سمعاً وطاعة ، يا سيدى الملازم .

– وعلى الذين فى العراء أن يحفروا لأنفسهم حفراً على وجه السرعة حتى لا نتأخر ، وعلى كل واحد منهم ألاَ يرفع رأسه من الأرض مطلقاً.

التفت وهو ينظر إلى الجسر ، وقال :

– من ذا الذى يجب أن يصاب رأسه يا سيدى الملازم ؟ لن يستطيع أحد رفع رأسه.

– ما زالت دباباتنا فى الطرف الآخر من النهر . ولو كانت هناك سلحفاة لوصلت منذ فترة طويلة إلى الطرف الآخر . الطريق يستغرق ساعتين من بروفومايسك إلى الكسندروفكا . ولا أحد يعرف فى كم ساعة سيجتازه الألمان . على كل حال ، أنا ذاهب . هل سأجدك يا سيدى فى المكان الجديد ؟

أسرع « واصل ايف » يجرى من حيث أقف إلى الجنود الذين يرقدون على مسافة حوالى مائتى متر فى الخلف ، وأنا أنظر بالمنظار

المعظم تارة نحو المنازل التى أمامى ، وتارة أخرى ألتفت لأنظر بها إلى الجسر الذى يقع خلفى .

الدبابات والمدافع الثقيلة تقف فى نفس الموضع فى الضفة الشمالية من النهر، المنازل التى فى الأمام ساكنة ولا يظهر فيها أى أثر للحياة. وآخر أشعة ضعيفة من الشمس تنطفىء فى المياه الراكدة فى النهر. ورويداً رويدا تتغير ألوان المنازل التى أمامنا، والنهر، والغابة، وكل مكان. وتحولت الأماكن التى حولنا إلى منطقة فاقدة الحراك، بكماء . وأنظر مرة أخرى إلى الجسر. مازالت فصائلنا فى نفس الموضع . أحدث نفسى قائلا لعلهم ينتظرون انسدال الظلام جيدا .

وأصبحت لا أرى خطرا قط فى سكون الأماكن المحيطة بنا. تبدو الحرب وكأنها بعيدة جدا عنا . يخيل إلى أن ليس للحرب أدنى علاقة بنا. أريد أن أبقى فى هذا السكون حتى الصباح . أرضى بأن أنهض فى الصباح لأحارب . أتذكر كلمات الجاويش واصل ايف . هذا الجاويش على حق : الفلاح يذهب إلى حقله صباحا . وكذلك على الجندى الذهاب إلى الحرب، بنفس الشكل . فالإنسان يرى حياته فى الصباح ، سهلة براقة، والجندى كذلك. يأتى الجاويش واصل ايف زحفا على الأرض وهو يمسح عرقه من على جبهته وهو يقول :

– كل شىء مضبوط، أيها الملازم الصديق. فليأت الألمان، وإذا جاءوا سيرون كيف نذيقهم العذاب . سنأخذ حقنا منهم، وإذا بقى أحد منهم على قيد الحياة فإننا سنسوقهم إلى برلين. عندما توجهت إليهم رأيتهم يكتبون خطابات إلى أهلهم وذويهم . انظر ! لقد تجمع فى جيبى حوالى عشرين خطابا . آه لو لم أنس تسليم هذه الخطابات إلى القيادة عندما

أعود .
- وأنت ألا تكتب ؟
- أمعقول ألا أكتب ؟! لقد كتبت بالفعل ! كتبت إلى حبيبتى . مسكينة ! إنها تتوسل فى كل خطاب من خطاباتها أن أكتب . وهى تنتظر منى رسالة كل يوم . وأنا بدورى أكتب .. لكنى أكتب بإيجاز واختصار .. أقرأ عليك واستمع :
«حبيبتى ناتاشا . لم أمت بعد . تحياتى» هذا كل ما فى الأمر .. فليساعدنى الله لأكتب لها مثل هذه الخطابات دائما حتى تنتهى الحرب.
قمت لألقى نظرة على الجندى . طنّ شىء وعبر من تحت أذنى . انكفأت سريعا على الأرض . ودون أن أجد وقتاً لفتح عينى وإغلاقها بدأ وابل من النيران على الصخرة التى أرقد خلفها . دفع واصل ايف رأسه إلى صدره وقال :
- آه من هذا الملعون .
- هل أصبت يا واصل ايف ؟
- لا ياسيدى الملازم. لا شىء لا تتحرك أنت . لقد رآنا هذا الشيطان. لا تتحرك . أنا أرى القرية .. الدبابات فى القرية . ينزل الجنود من الأماكن العالية الواقعة خلف القرية، ينزلون إلى القرية، والدبابات تحت الأشجار .
- لا أظن أن الدبابات يمكن أن تفعل لنا شيئا. فالأماكن المحيطة بنا صخرية . لكن بإمكان المشاة أن يهجموا وهم فى حماية الدبابات.
- إذا استطعنا أن نبقيهم فى القرية ساعتين ، نستطيع بعدها

الانسحاب – دون خطر – نحو الجسر ، وسيكون هذا فى الظلام .

– لن نستطيع الانسحاب يا واصل ايف إلا بعد صدور أمر بذلك من قائد الفرقة .

– هل ظن هذا الديوث أن بإمكاننا مقاومة الدبابات بالبنادق ؟!

– ترى هل يعرف الألمان أننا نختبىء خلف الصخرة ؟

– أتريد معرفة هذا ياسيدى الملازم ؟

– أسأل ! هل رأونا ؟

أخرج الجاويش واصل ايف «الكاب» (١) من على رأسه ووضعها على أوج بندقيته . وبمجرد أن أظهر البندقية فوق الصخرة، بدأ سيل من الرصاص ينهمر فوقنا من اليمين ومن الشمال .

قال واصل ايف وهو يضع إصبعه فى الفتحات التى أحدثتها الرصاصات فى الكاب :

– الحمد لله ، أن لم تكن رأسى داخل هذا الكاب، وإلا فإن الرسالة التى فى جيبى كانت ستكون آخر رسالة إلى ناتاشا المسكينة . إنهم لن يسمحوا لنا برفع رؤوسنا من خلف هذه الصخرة .

– هل ترى المنازل جيدا ؟

– أرى ، من الشمال، إلى اليمين ، نصف المنزل الأول، والمنزل الثالث والرابع جيدا . ليس هناك عسكر فى المرتفع الواقع خلف المنازل. الدبابتان القابعتان تحت الأشجار مازالتا فى نفس الوضع. غدارون. أين كانوا طول النهار؟ هل أثر خطر الحرب على عقولهم الآن؟.. ولم أستطع بعد إرسال خطاب ناتاشا. إذا كتب الله نصيبا

(١) قبعة الجندى .

فإني سأكتب لها فى الصباح خطابا آخر أقول لها فيه إننى مازلت حياً لم أمت . مازال جنود العدو ينزلون إلى القرية من المرتفع الواقع خلف القرية .

– هل عددهم كثير ؟

– لا أستطيع التحديد .. إنهم يأتون فى مجموعات . حوالى كتيبة .

يلتفت واصل ايف وينظر إلى الجسر :

– لا أظن أن جنودنا يستطيعون العبور من على هذا الجسر . والألمان لا ينامون أيها الملازم الصديق . وبعد خمس دقائق أو عشر، سيفتحون النيران على الجسر ، فى ذلك الوقت لن تعجز الدبابات فقط عن العبور، بل إن الفئران ستعجز عن ذلك أيضا .

أخرجت ورقة من حقيبتى الجلدية وأخذت أكتب الآتى :

«تتجمع قوات العدو على بعد خمسمائة متر منا . أرى دبابتين وعددا من جنود المشاة تقدر بحوالى كتيبة . لن ننسحب طالما لم يأت منكم أمر بذلك . توقيع طوران» .

سلمت هذه الإشارة إلى الجاويش واصل ايف ، وقلت له :

– سلم هذا بنفسك إلى قائد الفرقة أو إلى الكوميسير شيشكوف.

– سمعا وطاعة أيها الملازم الصديق .

يقول هذا وعيناه الصغيرتان تبتسمان وهو ينظر إلى عينى ، ثم أخرج خطابا من جيبه الداخلى ومد يده به إلى وقال :

– خطاب ناتاشا، ياسيدى الملازم. يعنى إن مت ، فعليك أن تزيد بضع كلمات تحت عبارة : «لم أمت بعد» .

يصافحنى واصل ايف، ويشد على يدى ثم ينسحب عائدا زاحفاً

ويختفى وراء الصخور وبذهاب واصل ايف، أخذ العدو المتربص فى الأمام أيضا فى إطلاق النيران، لم يعد من الممكن رؤية الجسر خلفنا من كثرة النيران . اختلط بعض الأشياء ببعض : الأرض والطين والماء والدخان. يمر الرصاص من فوق رؤوسنا ، ويطير فى استقامة الكسندروفكا ، وهو يصفر بألم. وصلت النيران إلى درجة من إثارة الدهشة حتى أننى لم أجسر على رفع رأسى . قال لى واحد ممن حولى:

- أسليم أنت أيها الملازم ؟

- أنت يا واصل ايف ؟

- نعم أنا . رجالنا أخذوا مجموعة المنازل هذه التى فى مقابلنا ، تحت وابل نيرانهم . لم يأخذوا المنازل فقط، بل أخذونا نحن أيضا. أطلق رجالنا النار على ثلاثة أو خمسة تقريبا من الجنود كانوا قد أرادوا الانسحاب إلى الخلف . إننا بين نيرانين ياسيدى الملازم . لم تكن هناك إذن أدنى فائدة من هذا الخبر الذى ترسله سيادتك إلى شيشكوف .

- لا . لا تذهب . فالعدو لم يبدأ هجومه بعد . أظن أنهم يرقدون فى وضع الاستعداد للهجوم أسفل شجيرات الحديقة. خذ المدفع الرشاش رقم (٢) إلى الجناح الأيمن . وانتظر أمر إطلاق النار .

- سمعاً وطاعة أيها الملازم الصديق .

عاد الجاويش واصل ايف مرة أخرى زاحفا . أخذ تأثير نيران المدافع الرشاشة عند العدو، يزداد حينا بعد حين . يغمر العدو بالرصاص - وبدون توقف - جدران البناء الأحمر الذى يبعد عنا من

اليمين حوالى خمسمائة متر، وكأنه مطر ينهمر على الطريق المترب . أصبح مفهوما من قذائف العدو المتساقطة على اليمين وعلى الشمال وعلى الخلف والأمام، أنه يريد أن يأخذ المبنى بطريقة نيران الشوكة.. أخذ مشاة العدو فى الهجوم بعد إطلاقه النيران المستمرة مدة خمس عشرة دقيقة . لم يكن يبدو أن رأسا سيرتفع من تحت هذه المدافع المدوية والقذائف والقنابل اليدوية المنطلقة . جاء صوت واصل ايف من عن يمينى :

– العدو يتقدم نحونا ياسيدى الملازم !

– لا تطلق النار يا واصل ايف . انتظر أمرى . حتى إذا تقدموا منا أكثر ..

إنى أرى جيدا جند العدو الناهض للهجوم . أريد أن أحصيهم عدا. ثلاثة.. خمسة .. سبعة.. العد يتداخل . يجرى الجنود الخارجون من الحدائق، يجرون نحو اليمين ونحو الشمال ثم يغيبون عن الأنظار ، ثم يظهرون وكأنهم يتدفقون من تحت الأرض ويتقدمون نحونا معتدين . يداى وقدماى ترتعش وأحاول فى نفس الوقت ألا أفقد رباطة جأشى . أمامنا منطقة مستوية تشبه كف اليد. بفضل هذا الاستواء سيتم إنقاذنا . يتقدم الألمان نحو ذلك الفخ . ستكون روح كل واحد منهم فى يدى فى حالة خروجهم إلى هذه الأرض المستوية . ترى هل يرى واصل ايف هذا الاستواء جيدا مثلما أرى . كنت أفكر فى هذا بشك . صعب للغاية، وصولى إلى حيث يرقد واصل ايف . لكنى أتخذ قرارى . أتوجه زاحفاً نحو الجناح الأيمن . يرقد الجاويش واصل ايف بسكون بين مدفعى رشاش .

– أيهـا الجـاويش واصل ايف ! هل ترى هذا الاسـتـواء الذى فى الأمام ؟

– أراه ياسيدى الملازم . أراه .

– لا تطلق النار . إياك أن تفعل هذا ، حتى يخرجوا إلى هذه البقعة المستوية. وانتظر أمرى . أنا متوجه إلى الجنود الذين فى الخلف . لا تخف . انتظر . انتظر أمر إطلاق النار منى . لا تخف . دعـهم يأتون قريبا منا . واعلم أنك إذا خفت فإنك ميت .

– أنا لا أخاف يا سيدى الملازم .

– حسنا جدا . إذا لم تخف . فغداً صباحا تكتب خطابا آخر إلى ناتاشا .

أعود زحفاً إلى الصخرة التى كنت أرقد خلفها منذ حين. طلقات الرصاص المجنونة مازالت تئز فى المكان. لكن النيران خفت. هكذا دائما تخف النيران قبل احتدامها. يرقد جنود العدو فى سكون فى الحفر خلف الأرض المستوية. ينتظرون – غالبا – نيران الدبابات ومدافع الهاون الموجودة فى الخلف . أرغب فى تدخين سيجارة . لم يحدث فى حياتى كلها أن اشتهيت تدخين سيجارة بهذا القدر الذى يحدث الآن . قطعت على نفسى وعدا بأن أشعل سيجارة بمجرد أن يفتح العدو نيران مدافعه الهاون. تسقط قذيفة أمام البناء الطوبى الواقع على الجانب الأيمن . تراك .. بوم .. انطلاقات البنادق وأصوات المدافع يختلط بعضها ببعض . أصبحت الأرض المستوية التى فى الأمام فجأة وفى لحظة واحدة، لا ترى خلف ستار من الدخان مرتفعة فى السماء . صوت واصل ايف يأتى من بين ضجيج المدافع والقنابل .

– سيدى الملازم ! العدو فى الأرض المستوية .

أنظر إلي هذه الأرض المستوية، وأنا أعتدل فوق ركبتى ، فأرى الجنود الألمان الذين يجرون فى هذا الاستواء بين أعمدة اللهب والتراب الكثيفة المتصاعدة أمامنا . تمر قذائف الرصاص من فوق رأسى . الرصاص يغمر الصخور المحيطة بى وكأنه مياه المطر الشديد، يصطدم بالصخور . فينتقل إلى الأماكن الأخرى . وما قلته منذ حين لواصل ايف، يردده الآن فى داخلى صوت ما :

– لا تخف ياصادق . واعلم أنك إذا خفت فإنك ميت !

لا أخاف . إن الصوت المنبعث من داخلى ، يمنحنى القوة . العدو فى الأرض المستوية . ترى هل يعلمون أن الموت ينتظرهم ؟ إنهم غالباً لا يشعرون بالخطر . كلهم واقفون على أقدامهم . يتقدمون ببطء يبدو أنهم أيضاً لا يخافون . لكنى أحس بأنى أقوى منهم . الألمان لا يستشعرون الخطر . وهذا ما أصبحت واثقاً منه . يتقدمون نحونا بلا خوف ، ولا يرون موجباً للاختباء . يبدو أنهم مغرورون للغاية .أصيح وأنا أجمع فى صوتى كل جرأتى

– النار ، ياواصل ايف ، النار !

نفس الصيحة المنطلقة من صدر واصل ايف ، تضغط فى لحظة على طلقات المدافع .

–النار ! يا رقم (٢) ! النار .. يا لهم من !

طرا – طا – طا –طا .. طرا – تا – تا – تا– .إطلاق طويل وقصير وصوت قنابل اليد . مسرح موت حقيقى فى الأرض المستوية التى أمامنا. مسرح حى ، أكثر رهبة من جهنم «دانتى».

المدفعان الرشاشان كانا يعنيان بالنسبة لى حتى الآن عدد اثنين من مدافع الرش . أما الآن فإنى أدرك أن بعض قطع من الحديد ينضم بعضها إلى بعض يمكن أن تصبح شيئا مروعا . تصمت نيران العدو فجأة . أما بنادقنا فتمطر الموت دون توقف . يأتى واصل ايف نحوى وهو يجرى :

- يحيا سيدى الملازم ! لقد كنت مصيبا فى قرارك، دقيقاً كالساعة السويسرية .

- انبطح أرضا يا واصل ايف !

- غدا سأكتب خطابا إلى ناتاشا .

- اذهب يا واصل ايف إلى الرشاشين فى الخلف وأطلق النيران دون توقف على المنازل التى أمامنا ، وعلى الحدائق . لا تترك مكانا دون نيران فالقوات الأساسية للعدو هناك .

- لا أرى الدبابات أيها الصديق الملازم .

- لابأس . عندما تأتى الدبابات ، ننسحب نحن ، إلى الخلف مائتى متر . الصخور التى فى الخلف أكثر ارتفاعا . ولن يستطيعوا عمل شىء، لا تخف لاتخش الدبابات . نحن أيضا مدفعيون . اعمل كما قلت لك . حول النيران إلى الحدائق .

- سمعا وطاعة أيها الصديق القائد .

- اذهب أولا لرؤية الرجال فى الخلف . قل لهم أن يأخذوا وضعا أفضل. ولا أظن أن فى إمكان مشاة العدو أن يهاجموا ، لكن نيران المدافع ستكون أشد رعباً. قم بإحصاء الموتى والجرحى وتعال أخبرنى بالنتيجة.

انسحب الجاويش واصل ايف إلى الخلف . انصبت كل نيران العدو على الجسر . لم أعد أرى جيدا، الجسر الذى ظل خلف الدخان والأرض والماء المنبعث . عاد واصل ايف بعد عشر دقائق . جثا على ركبتيه بجوارى وقال :

– ثلاثة موتى . ثمانية جرحى . اثنان من الجرحى فى حالة خطيرة والآخرون مازالوا يستطيعون استخدام السلاح .

– حسنا ، اجلس بجوارى أيها الجاويش واصل ايف .

يجثو واصل ايف على ركبتيه ينظر بعينيه اللتين تخلوان من الرياء إلى عينى . يود أن يصادقنى ويكون ظهيرى . يمسكنى من ذراعي، ويقول :

– يبدأ المساء ياسيدى الملازم، فهل سيبدأ الألمان قذف نيرانهم ؟

– نعم يا واصل ايف . سيهاجموننا مرة أخرى قبل حلول المساء، كما أنهم سيطلقون هذه المرة نيراناً أشد . إنهم يريدون أن ينزعونا من هنا ليحلوا محلنا، ولو استطاعوا التسلل من بين هذه الصخور فإنهم سيتمكنون من السيطرة على الجسر بنيرانهم من كل جانب. هدفهم احتلال المكان قبل حلول الظلام. إنهم لن يستطيعوا عمل شىء فى الظلام .

– لا أظن أن الجسر يمكن أن ينجو من نيران المدافع .

– يستطيع الجنود عبور النهر دون الحاجة إلى جسر .

– نعم يمكن للجنود العبور. لكن الدبابات لا تستطيع هذا، وكذلك المدافع .

– والدبابات ! يالها من دبابات . ب ٢٧ وب ٢٨ والمدافع كلها قديمة.

هل تعلم أن هذه المدافع، مدافع من عهد القيصر نيقولا؟ ومع ذلك أحسن من الدبابات. يمكن الحرب بها . أما الدبابات .. هل تتذكر دباباتنا ؟

– أمعقول ألا أتذكر !

– يسمون هذه الدبابات في بلادي «توابيت المدفعيين» . كان المسكين ينتظر دبابة جديدة وعندما تأتي الدبابات ..

– هل هو حي ياترى : جريشة ؟

– لا أدري يا واصل ايف . كان جرحه بالغاً ، هيا يا واصل ايف، إلى الجناح الأيمن ..

قبل إنهاء كلمتي انفجرت عن يميني قذيفة. القذيفة الثانية في الخلف على بعد مائتي متر.. الثالثة.. الرابعة.. الخامسة. انبثق الحجر والدخان من الأرض. حصل بركان في الأرض . انطلق واصل ايف إلى الجناح الأيمن. أصبحت لا أستطيع رؤية شيء . السبب: اللهيب والدخان في المكان .

– يا واصل ايف ! واصل ايف ! أطلق النار على الحديقة المقابلة! النار يا واصل ايف ! يصيح واصل ايف . لكن لم أستطع فهم مايقوله. ازحف بشكل أو بآخر . أين واصل ايف ؟تصدر من خلف الدخان أصوات وصيحات. أين واصل ايف ؟ لماذا لا تطلق رشاشاتنا النار ؟!

– واصل ايف ! .. واصل ايف ! أطلق النار !

وأخيرا يصل صوت واصل ايف إلى أذني من بين هدير المدافع .

– رقم (٢) أصيب ياسيدي الملازم . الدبابات عن يميننا .. الدبابات تطلق النار. الجنود المشاة خلف الدبابات.رقم (١) جريح. إنهم

يسرعون نحونا ٠ إننا ننتهى.

– انسحب إلى الخلف يا واصل ايف ! أسرع نحو مصدر صوتى .هل سمعت يا واصل ايف ؟

– لا أستطيع الجرى يا سيدى الملازم ٠ أنقذ ....لا أستطيع الجرى أيـ ....

سكت واصل ايف فجأة ٠ انطلقت سريعاً نحو المكان الذى كان الصوت يأتينى منه منذ حين ٠ كان يرقد منبطحاً على الأرض ، على وجهه، بين مدفعى رشاش ٠قلبته على ظهره ٠شعره الأسود أصبح أكثر سواداً ، والشعر قد التصق على جبهته بفعل الدماء ٠ أمسكت يده وكانت اليد التى أمسكت بها تبرد فى كفي. أردت أن أخرج خطاب ناتاشا من جيب معطفه الداخلى. فى أثناء ذلك تماماً انفجرت قذيفة على بعد ثمانية أمتار أو عشرة ، وقبل أن أجد وقتاً لكى أغمض عينى وأفتحها ، تصاعد التراب الممزوج بالدخان من عن يمينى وعن يسارى . لكنى أتذكر أننى أخذت رأسى بين ذراعى لأحتمى من الأحجار ومن التراب الهاطل علىَّ. ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك؟ لكن عندما فتحت عينى رأيت شخصاً فوق رأسى جاثياً على ركبتيه ، قاطباً ما بين حاجبيه يصب عينيه على عينىَّ. لاحظت بعد ذلك مباشرة أنه يوجه فوهة بندقيته إلى صدرى. الرجل الواقف بجانبى يقف دون حراك البتة وكأنة تمثال حى. إلا أنه ينظر إلىَّ بحدة . كانت عيناه داميتين مثل عيون هؤلاء الذين يتعاطون الخمر كثيراً ٠ كان يبدو فى هذا السكون أكثر خطراً . أخذت أطراف شفتيه بعد ذلك ، وكذلك جناحا أنفه بالارتعاش رعشة حيوانية. قال وهو ينخز بندقيته فى صدرى:

- بولشفيك ؟

- لا

يصيح مرة أخرى بخشونة:

- بولشفيك ! روسكى .. روسكى !

وكما أمسك بغطاء رأسى وهو يصيح بذلك ، ضغط بين إصبعيه على النجمة الحمراء التى فوق هذا الغطاء وحلّها كما لو كان يحلّها بكماشة وألقاها إلى النهر . فهمت عندما أبعد فوهة البندقية عن صدرى أنه وهب لى الحياة . لكنه كان دائماً يبدو قاسياً ودوماً كان يتصرف تصرفاً خشناً . أفرغ جيوبى وهو يسب بصوت وحشى . وألقى ما وجده إلى النهر : علبة الدخان والولاعة الصغيرة وروبلين وهما كل ما معى من نقود .

وجد فى جيبى الداخلى صورة عائلية خاصة بى. ظننت أنه سيلقى بالصورة إلى حيث ألقى ما سبق. ولم يحدث ما ظننته، بل العكس حصل. سريعاً ما ظهرت على طرفى شفتيه ابتسامة ذات معنى ، وانمحت سريعاً خطوط الحدة الموجودة بين حاجبيه وقال وهو يمد يده بالصورة إلى وقال :

- بابا .. ماما .. بابا .

أخذت الصورة من يده ونظرت إلى وجهه بابتسامة رحيمة صادرة من قلبى. لكن وجهه تغير مرة أخرى ، واتخذ تعبيراً خشناً مهدداً . وقال مرة أخرى :

- بولشفيك ؟

- لا

أردت أن أفهم الجندى بفخر من أى أمة أنا .

– تاتارى «تترى .. أنا تاتارى» .

يبدو أنه لم يفهم ما أردت قوله ، فلم تنفرج علامات الخشونة التى فى وجهه . وبنفس الصوت قلت له :

– أنا تاتارى .. تركى .. تركى .

ابتسم هذه المرة وفجأة ، استدار إلى الخلف . وصاح بضابط منكفئ على وجهه داخل حفرة فى الخلف ، صاح به قائلا:

– آينى توركيش أوفيسيير ، هرلوتنانت ! توركيش أوفيسيير .

اقترب منى الضابط وهو نصف مائل وهو يجرى وقال أشياء للجندى الذى أخذنى أسيراً . تحدثا طويلا وهما ينظران إلى الجثث الألمانية الراقدة فى الأرض المستوية على بعد مائتى متر، لا أدرى عما تحدثا به ولكن كان مفهوما أنهما تحدثا عنى وعن الموتى فى الأرض المستوية، ثم التفت الضابط نحوى . تطلع إلى وجهى ، ضحك وقال وهو يتحدث بلغة نصفها ألمانية ونصفها روسية مشيرا إلى الموتى :

– كوروشى صولدات، تى ، كروشا . تسيهركوت صولدات .

ثم شد على يدى مصافحاً .

كان الجنود الألمان يجرون نحو الجسر فى مجموعتين . أخذ الظلام يزحف وأصوات الحرب تنحنى وتبتعد عنى رويدا رويدا . أنهضنى الجندى الذى بجوارى على قدمى ، وسرنا نحو المنازل المقابلة : هو فى الخلف وأنا فى الأمام .

القسم الثانى

الأسيـــر

- ٥ -

روما ، في ١٩٤٦/٥/٣٠

أريد أن أنهي القسم الأول من مذكراتي ، هنا . تبدأ في حياتي مرحلة أخرى ، حياة أخرى، حياة رهيبة . أريد أن أسجل حياتي هذه، هنا أيضا . هل أستطيع تسجيلها ؟ لا أدري . على كل حال ، لن يحدث هذا، في هذا المساء ، فرأسي محموم. ربما في الغد . ربما أصبح في الغد «طوران» القديم، مرة أخرى بعد أن أطرح مخاوفي جانبا . أرى أحيانا وجوه الموتى ومن عرفت من الناس ، أراهم في ثنايا لهيب حياتي الجديدة هذه، وأصبح وكأنني أسمع صرخاتهم الرهيبة وأناتهم . ربما أستطيع الكتابة .

هكذا حاربنا . مات كثير منا، وراحوا في ملف النسيان ، راحوا بلا مقابر وبلا شواهد قبور . راحوا ، ونسوا في الوديان وفي سفوح الجبال، في الصحاري المقفرة ، بعيدا عن الوطن ، بعيدا جدا.

كثير منا ينتظر أثناء نفينا في البلدان الأجنبية، المدد والعون من الله تعالى ، جرحى ، مرضى ، فاقدو الأقدام ، فاقدو السيقان، أنصاف أجساد.. إنهم ينفون من بقي في وطننا القرم : أطفالنا، آباءنا بلحاهم البيضاء، أمهاتنا، بناتنا. يملأ الشيوعيون بهم عربات الحيوانات والقطارات وينفونهم إلى غابات سيبيريا البعيدة الوحشية. أمة تئن وهي تنادي قائلة : «الوطن ! الوطن!» وهي تحت سوط العدو، إن العداء الرهيب الذي بدأه بوتمكين عام ١٨٧٣ ، يتمه اليوم هؤلاء الثملون فاقدو الإحساس. خلال مائة وستين عاما من الظلم والتعذيب، انسحقت أمة عظيمة شجاعة أبية، داخل صفائح الموت في غابات سيبيريا السوداء الوحشية وفي نيران صحاري أوروبا وفي البحار الغائرة. ذابت هذه الأمة واختفت . الباقون أبعدوا نفياً عن وطنهم .

أفكر : لماذا اضطهدت روسيا بكل هذا الشكل الذى يخلو من الشرف ، هذه الأمة التتارية العظيمة الشجاعة الشريفة .

قال لى روسى من أنصار فلاسوف (١) . متحضر للغاية، أثناء حديث مثير بيننا فى قهوة فى وارسو عام ١٩٤٣ ، الكلمات الآتية :

– إن حياتكم هذه التى تتسم بالأسر، إنما تعنى حماية كل روسيا ، أيمكن أن تكون روسيا بدون القرم وقفقاسيا وتركستان؟ إن روسيا سواء كانت روسيا البيضاء أو روسيا الحمراء ليست ضد أفكاركم الاستقلالية فقط، بل ضد وجودكم نفسه . واعلم أن روسيا المستقبل. وبعد هذه الحرب، أيا كان لونها ستكون ضدكم. ولهذا أقول لك : عليكم أن تنسوا الماضى وعليكم بالتفكير فى مستقبلكم .

كنت أعلم هذا منذ أمد طويل. لذلك لم أعترض . لكنى عندما كنت أبتعد عن هذا الضابط قلت له : «سأقتلك فى أول فرصة» .. ماذا كان يمكن أن أقول له غير ذلك . ترى هل كان لهذا الكلام صداه فى نفسى عندما كنت أواجه الألمان؟ لو لم يكن هذا لكنت هربت ونجوت . إذن سأسير فى الطريق الذى يدلنى عليه قلبى. سأحارب.. سأقتل كل ضابط بل كل من يتلفظ بالسوء ضد أمتى التى بذلت دماءها منذ السنين الطويلة فى سبيل وطنها واستقلالها .

فى ذلك المساء ، نقلنى الجندى الألمانى إلى المنازل المقابلة وأغلق علىّ اسطبلا مظلما، لم يتحدث إلى ولم أتحدث إليه طوال الطريق. كان ذلك نتيجة لعدم معرفتى جيدا بمعنى الأسر . كنت مسرورا بالنجاة من عاصفة النيران . كان يخيل إلى أن هدير المدافع وأصوات انطلاقات البنادق – وكانت تبتعد عنى رويداً رويداً – إنها آخر أنات الحرب. كنت أظن أن الحرب قد انتهت بالنسبة إلىّ. فكرت فى البداية أن الحرب

---

(١) فلاسوف : جنرال حارب ضد الروس بجيش من الروس الذين سقطوا أسرى عند الألمان .

شيء غريب، وكان ذلك قبل إحساسي بالوحدة في الإسطبل المظلم. ثم تذكرت فجأة أنني محبوس في الإسطبل، وأن ديدبانا يقف بسلاحه أمام الإسطبل، وأنه لا يتركني. وبدون إرادة بدأت أرى مستقبلي مظلماً في ظلام العتمة الموجودة داخل الإسطبل. لكن هذا الإحساس لم يستمر طويلاً. استيقظت في أعماقي ذكريات حلوة. فكرت في بلادي الجميلة. تذكرت كل حديقة في قريتي وكل أشجارها وكل بيت فيها. وعيون الماء، والمياه. ثم رأيت وجه أمي بكل جماله، وبكل رحمته. كانت تنظر إليَّ بعينيها الباسمتين. أردت أن ألمس شعرها الأبيض وأربت عليه حتى الصباح وأضغط رأسها على صدري. كانت أمي أحياناً تختفي من أمام ناظري. وكنت أحاول استرجاعها مرة أخرى أمام عيني. في ذلك الوقت كان ألماني يندس بيننا ويصيح، وعيناه قد امتلأت دماً، وكانتا رهيبتين، وحاجباه مقطبين ويقول: «بولشفيك! روسكي.. روسكي»!. ثم نمت.

وفي الصباح التالي وجدت عندما استيقظت عدة أسرى في الإسطبل. كنت لم أشعر بأن أحداً ألقاهم في الإسطبل. كلهم متعبون وكانوا مثلي منهكين. بينهم جرحى، وكانوا يتحدثون بصوت خفيض.

فتح باب الإسطبل بعد قليل، وامتلأ الداخل بضوء الصباح اللطيف الذي في الخارج. كانت الحدائق الخضراء التي تظهر من فوق أكتاف الجنود الألمان المسلحين الواقفين أمام الباب، تتمتع بالدفء تحت أشعة الشمس. بدت الدنيا لي وهي بلا حرب ولا نار ولا موت، جنة من الجنان. أخذت أفهم رويداً رويداً أن دنياي تختلف عن دنيا الموجودين معي في الإسطبل. وعندما وقفت على قدمي وأردت السير نحو الباب، رأيت بجواري ايفان الكسندروفيتش شيشكوف. كان يرتدي ملابس ممزقة من على ظهره، قذرة وبلا أوسمة. كان وجهه يبدو مضطرباً جداً. مريضاً مرهقاً. نظر إلى عيني وكأنما كان يريد قراءة ما بقلبي.

ابتسمت. اتجه برأسه إلى الأمام وفجأة رجع إلى الخلف وسار ناحية الجانب الآخر من الإسطبل. فهمت من حركته أنه لا يريد التحدث معى. هل كان مغتاظاً منى لأننى وقعت فى الأسر؟ ألم يؤسر هو أيضاً؟! ربما لأننى ورجالى لم نستطع مقاومة هجوم العدو؟! ماذا يمكننى أنا أن أفعل بثلاثين رجلاً، فى الوقت الذى لم يستطع هو المقاومة بألف جندى. لم أفهم معنى حركة شيشكوف هذه إلا بعد يومين. قبيل مساء أحد الأيام جاء الألمان وأخذوا من يحمل رتبة كوميسير من الموجودين بيننا. وذهبوا بهم إلى حيث حفرة عميقة على أحد أطراف الكسندروفكا، وأجلسوهم على ركبهم على حافة هذه الحفرة التى كان الألمان قد جعلوا الأسرى يحفرونها بأيديهم، ثم قام الألمان بإطلاق الرصاص على رؤوس هؤلاء الذين أخذوا من بيننا. شيشكوف فقط هو الذى بقى حياً منهم. كنا معاً فى معسكر كيفوجراد، ثم بقى هو فى كيفوجراد وأرسلونى أنا إلى معسكر أوصان.

عند اقتراب الظهر، جاء الجندى الألمانى الذى أسرنى قبل يوم إلى الإسطبل ودعانى إلى الخارج. خرجت. نسير الآن فى شارع ضيق ممتد بين الحدائق. أخاف قليلاً، ولكن كنت أفكر فى الوجهة التى سيرسلوننى إليها أكثر من تفكيرى فى الموت. ربما يطلقون سراحى؟!.. من يدرى؟! ولكن هل يمكن أن يطلقنى من إسارى بينما الحرب مازالت دائرة؟! أتلفت حولى: حياة لطيفة وعذبة. وكأن الحياة انبثقت من الأرض وسيطرت من جديد على هذه الأراضى التى استوت بالأمس فقط بأنفاس الموت المكونة من اللهب. ربما أن الدنيا تبدو هكذا أمام عينى أنا فقط. خرجنا من منطقة الحدائق. نقترب الآن من منزل صغير انهار سطحه التبنى انهياراً قليلاً. أرى أمام المنزل، فى الفسحة البيضاء، مطبخاً عسكرياً وكان أحدهم يتجول بجانب المطبخ، وكان يرتدى قميصاً أبيض اللون، وكان طويل القامة يشبه المصارع ويبدو

مسروراً. أفهم أنه الطاهى. توجه الألمانى الذى معى إلى هذا الطباخ وقال له أشياء، يتحدث عنى، ثم يتركنى بجانب الطباخ ويرجع. ينظر الرجل ذو القميص الأبيض إلىّ شذراً، ثم يشير وهو يضع يده على كتفى إلى الحطب والفأس الذى بجوار جدار المنزل. أفكر أنهم جاءوا بى هنا لكى أخدم. أضحك من أعماقى. اشتغلنا لحساب الروس سنوات طويلة، وقعنا فى الأسر، وعلينا الآن أن نقطع الأخشاب للألمان!!

– أنا راض بقطع أخشاب غابة كاملة وليس خشباً بسيطاً فقط، إنما فقط ياصديقى، حرر أمتي.

يهمس الألمانى بأشياء ثم يحدث نفسه، أقوم بكسر الأخشاب، وتنظيف المطبخ. وإحضار حذائه المتسخ وأنظفه له، وأنظف أيضاً بذلته الرسمية وأعمل فيها الفرشاة. وعند المساء، يعطينى حساء فى علبة طعام معلب فارغة، من صفيح صدىء. وعندما أجلس إلى الجذع لخشبى الذى كنت كسرت أخشابه، أجلس لكى أشرب الحساء، ساعتها يأتى نحوى ويضع يده على كتفى ويقول:

– تورك جوت! تورك تسيهر جوت.

لكن بسمته تخلو من اللطافة ومن الرحمة. تبدأ الآلام فى نفسى تتجمع. أفكر فى هؤلاء الأسرى الذين تركتهم فى الإسطبل، جياعاً، مرهقين؛ أفهم أن الحساء الذى أعطاه لى الرجل فى العلبة الصفيح الذى أحمله فى يدى إنما كان فقط من أجل أننى تركي. لا أدرى لماذا يخيل إلىّ أننى بعت تركيتى بثمن بخس؟ وأخيراً تركت العلبة الصفيحية بجانب الجذع الخشبى وأقوم واقفاً على قدمى. قال لى الألمانى وكأنه يأمرنى:

– كل! كل!

لا أستطيع الأكل. شىء يقف فى حلقى. أريد وأنا أحرك رأسى أن

أشرح للألمانى أننى لا أستطيع الأكل. تتغير ملامح وجهه، وفى لحظة، يرجع إلى الخلف وينظر فى عينى كأنه حيوان متوحش عزم على تحطيم من أمامه، وشفتاه ترتعشان. ينفتح جناحا أنفه وينغلقان. يتحول إلى حالة مخيفة. يضطرب. أفكر فى أى ذنب اقترفته حتى يصبح هكذا؟! اللهم احمنى. يبدأ التوتر يتملكنى.

يصيح الألمانى وهو يشير بيده إلى العلبة الصفيح قائلاً:

– نيخت جوت! نيخت جوت.

أفهم الآن أن الألمانى قد غضب لأننى لم أشرب الحساء، وبينما أظن أن هذا لن يستمر طويلاً، وقبل أن تطرف عيناى، يقلب الألمانى بقبضة يده العلبة، وينطلق نحوى. أسقط أرضاً بلكمة قوية تنزل على فكى. يقدح فى عينى برق، وقبل أن أجد وقتاً لكى أقوم يأخذنى الغبى أسفل ساقيه ويبدأ فى تسديد ركلاته إلىَّ. ينزف الدم من أنفى حتى أذنى وتنشق شفتاى. يداى ووجهى ينزفان دماً، ثم ينهضنى على قدمى وكأنه يمسك بتلابيبى ويدفعنى أمامه ويسوقنى إلى الإسطبل. ويسدد إلىَّ ركلة أخرى عندما أخذنا طريق الحديقة بعد خطوتين أو ثلاث خطوات. يضربنى على رأسى بلكمة ويدفعنى. أجثو على ركبتى، أتكوم على الأرض، أزحف. تعوى الكلاب فى الحدائق وحتى وصولى إلى الإسطبل، ولا أدرى هل السبب فى ذلك: الألمانى أم حالى الغريب؟ لا أدرى. أدير أحياناً رأسى يمنة ويسرة فى خوف. أرى خلف نوافذ المنازل الواطئة، النساء كبيرات السن، كنت أيضاً أرى الفتيات لكنهن يبتعدن عن النافذة بمجرد أن يروننى. الألمانى أمام الإسطبل يمسكنى من ذراعى ويقذف بى إلى داخل الإسطبل. أتكوم وأنا منطرح أرضاً على وجهى بين الأسرى. ينظر الأسرى نحوى نظرات دهشة وتعجب، ثم رويداً رويداً يبتعدون عنى وهم يتحدثون بصوت خفيض:

– ضد ألمانيا..

- إنه كوميسير من المفوضين السياسيين الروس.
- لم يضرب هذا الديوث إلا قليلاً، كان يستحق القتل.

لا أستطيع إخراج صوتي. لا أحد ينظر إليَّ، لا أحد يعرفني. أرى هناك بجوار الحائط ايفان الكسندروفيتش بكتفيه العريضين، وهو يدير ظهره إليَّ. يخيل إليَّ أن شيشكوف بعيد عني جداً. أنهض بهدوء على قدمي وأنسحب ناحية ناصية مظلمة في الإسطبل. وهناك بقيت كطفل يتيم لا أحد له، أبكي وأنا أنظر إلى الدماء التي جفت في ذراعي وبين أصابعي.

يبدو الجاويش «واصل ايف» أمام عيني. يا إلهي!! لماذا لم تخترق مخي تلك الرصاصات التي اخترقت رأسه مساء أمس؟!

لكني أحسست، في تلك الليلة، بآلام قلبي، أكثر من إحساسي بآلام عظامي. رأيت أمي تتجه نحوي، في منتصف الليل، كانت تسير على الأسرى النائمين في الإسطبل، وقد ارتدت ثوباً أسود من الحرير. الثوب يمتد من رقبتها حتى كعبي ساقيها. وكان شعرها مضطرباً، تمسك في يديها سيفاً دامياً تشهره نحو الأمام. استيقظت. قمت واقفاً على قدمي وأنا أخُر عرقاً، فاختفت أمي من أمام عيني. أهي رؤيا؟.. لقد رأيت أمي، بعدها، مرتين أخريين، وهي تشهر سيفاً دامياً وتسير نحوي، بنفس ثوبها الطويل الأسود، وشعرها مضطرب بنفس الشكل.

وصل قسم آخر من الأسرى إلى الإسطبل مساء ١١ أغسطس، وبذلك وصل عددنا إلى خمسمائة. امتلأ الإسطبل كثيراً حتى وقفنا ليلاً - وحتى الصباح - على أقدامنا. وفي اليوم التالي - مبكراً - جمعنا الألمان في ميدان في طرف القرية. وحولنا حلقة من الجنود المسلحين. نحن في وسطهم طوال اليوم، استمعنا إلى الأخبار التي أتى بها الأسرى الجدد. يقول هؤلاء الجدد إن الفرق الألمانية كانت تتقدم نحو الغرب بسرعة البرق. وإذا تقدم الألمان بهذه السرعة فإن موسكو

ستسقط مائة فى المائة خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. كان مما لا شك فيه أن الهجوم لن يفقد سرعته، ذلك لأنه ليس ثمة أحد يرغب فى الحرب ضد ألمانيا فى صفوف الجيش غير الكوميسيرات هؤلاء المفوضين السياسيين، ففى بعض أماكن أوكرانيا قام الفلاحون بالتمرد.

ينظر الأسرى الذين يستمعون إلى هذه الأخبار، ينظرون إلى روسيا التى تتلوى وتتقلص تحت الاحتلال الألمانى، كما ينظرون إلى شىء ميت عديم الجدوى. فى تلك الأثناء ظهر من بين الزحام صوت يصيح قائلاً:

- الخبز!.. الألمان قادمون. هناك خبز فى عربات النقل. سيعطوننا خبزاً.

وفجأة يحل صمت على المكان. الخمسمائة أسير - كأنهم إنسان واحد - ينظرون إلى الأمام.. إلى أربعة من الألمان يتقدمون نحو الميدان بخطوات ثقيلة. يمسكون بطانية سوداء، من أطرافها الأربعة يتماوج الزحام مثل بحر ثائر. يجرى هؤلاء البشر الجائعون منذ أيام عديدة بلغ الجوع فيها لديهم ذروته. يمدون أياديهم وينظرون بنظرات وحشية نحو الألمان الذين يقفون فى المرتفع المقابل. لكن أحد الألمان يصيح قائلاً:

- إلى الخلف! إلى الخلف! أيها الخنازير!

تقف الكتلة البشرية فجأة فى المكان الذى هى فيه، ثم تبدأ فى التراجع خلف ذلك الصوت وكأنها رأت كل ألمانيا الكبيرة والمخيفة. كنت مازلت مستغرقاً أفكر فى الأخبار التى أتى بها «الجدد» منذ قليل. يتراجع الروس. تسقط موسكو خلال أسبوعين أو ثلاثة، وتنتهى الحرب. تنتهى الحرب وتولد أمتى ثانية. يا ربى! هل ما أراه حقيقة؟ أرى دولتى، أرى أمتى الصاعدة وهى تنهض من تحت الذلة وآلاف أنواع الظلم والمشقة. أرى فى بلادى الحرة ذات السيادة، الأمهات لسن باكيات وإنما فرحات ضاحكات مستبشرات. وأرى أولادنا وآباءنا السعداء. أرى مآذن مساجدنا الدقيقة الصنع، أراها تحت ضوء الشمس، وأرى

مدارسنا المشمسة وقرانا التامة الاخضرار. ما قيمة دموع عينى بجانب كل هذا؟ فليضربوا رأسى بالرصاص، وليسفك الرجال السيئون دمى. ماذا يكون اضطرابى بجانب هذا المستقبل الذى ينتظر شعبى؟

أتيه فخراً. أحس كأننى وطن، وأنا بين الخمسمائة أسير فى الميدان. وبينما كنت أغرق فى سعادتى هذه، إذا بضابطين ألمانيين قادمين من الرابية المقابلة. ثم أخذ الجنود الخبز الموجود داخل البطانية، وأطاحوا به فى الهواء. الكتلة البشرية الأسيرة الصامتة، الخائفة، تتمرد فجأة. كم تغير هؤلاء الناس فى لحظة؟ كانوا ينظرون كالحيوانات. أصبح كل منهم لا يعرف الآخر ولا يشعر بأحد ولا يستمع لشىء. أصبحوا وكأن ليس لهم علاقة قط بالعالم، وكأنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئاً، كأنهم ومنذ أن ولدوا لا يعرفون شيئاً ولا ينتظرون أمراً، إلا الخبز. حدث أثناء ذلك شىء لن أستطيع نسيانه قط. رمى الألمانى بالخبز الذى يمسكه فى يده، رماه فى وسط زحام الأسرى. ومرة واحدة امتدت ألف يد إلى الخبز. وخرجت نفس الأنة الغريبة من خمسمائة صدر. توحشت وجوه خمسمائة أسير وتفظعت، ذابوا مشقة ومعاناة. أفواههم يعلوها الزبد. تصارعوا كالمجانين، نهش بعضهم بعضاً بأظافرهم. عض بعضهم بعضاً وجعلوا أنفسهم يسبحون فى الدماء. أما الألمان الذين كانوا فى المقدمة راحوا - بعد أن ألقوا الخبز على زحام الأسرى - يطلقون القهقهات العالية. وبعد نصف ساعة عادت وجوه البشر الذين كانوا يتصارعون من أجل الخبز. عادت إلى تعبيراتها القديمة، المسحوقة، المسكينة. وهذا الانفعال والاضطراب الذى كان منذ حين. وعادوا إلى أماكنهم القديمة بهدوء، بلا صوت، وبخطوات ثقيلة. ينظرون بأعينهم إلى الأماكن التى مزقها الخبز المبارك الذى كان منذ حين.

فى صباح ١٤ أغسطس، قام الألمان بنقلنا بسيارات النقل إلى مدينة كيفوجراد. ربما يريدون أن يستعرضوا الأسرى أمام الأهالى.

نزلنا من سيارات النقل فى طرف المدينة وعبرنا من وسطها وسرنا حتى المعسكر. كان الأمر يبدو وكأن عاصفة الحرب التى مرت من هنا قد أخذت الحياة معها وذهبت. الشوارع فارغة، المنازل والدكاكين مغلقة والمكان كله يغط فى هدوء عميق. أحياناً يمر من أمامنا، كلب ضال، يتلفت يمنة ويسرة، وهو يهز ذيله. وعلى أول الناصية امرأة حافية القدمين تضغط ابنها على صدرها. وكانت تبحث عن زوجها بيننا وهى تمسح دموع عينيها بيدها.

نعبر السوق، لا أثر لإنسان فيه، ترقد فى الميدان عدة عربات بدون عجلات يتراءى لنا سوق بلدة «المسجد الأبيض» (آق مسجد) بينما نحن نعبر من بين روائح السماد القديم والتبن الفاسد. نعم هذا المكان يشبه سوق بلدة المسجد الأبيض (آق مسجد). ترى هل آق مسجد الآن خرساء لا صوت لها مثل هذا المكان؟ ثم نعرج إلى أحد الشوارع. أرى كنيسة أمامنا. أسمع أصواتاً غريبة، تأتى إلى مسمعى من بعيد. نقترب من الكنيسة. الناس على أبواب الكنيسة وقفوا ينظرون إلينا. نصل إلى مركز المدينة. الجنود الألمان الشباب يعبرون من عن يميننا وشمالنا بنظراتهم الحادة. يبدون وكأنهم تلقوا تربية شديدة قاسية وظالمة، أكثر من تلقيهم تربية الفداء والتضحية. وأخيراً نقف أمام بناء أسدلت عليه شباك حديدية، وهو بناء من طابقين، أبيض الجدران، كان هذا المبنى فيما قبل مركزاً للمخابرات السرية. ويجعل الألمان منه الآن ولمدة ما معسكراً للأسرى. أبواب البناء الحديدية تفتح، وعند عبور هذه الأبواب يعطى الألمان كل خمسة من الأسرى، كيلو واحداً فقط، من الخبز. نأخذ خبزنا ثم ننضم إلى الأسرى الذين تجمعوا فى الفناء المربع العظيم. يتم تقسيم كيلو الخبز الواحد بمهارة وبشكل يتناسب مع حق خمسة من الأسرى فيه. يقسم الرغيف أولاً إلى خمس قطع متساوية، لابد أن يوافق كل أسير من الخمسة أن كل جزء من أجزاء الرغيف الخمسة

ليست أكبر من الأخرى. ثم يقوم واحد ويدير ظهره إلى الخبز وإلى الأسرى الأربعة ويأخذ كل قطعة بيده ويسأل:

- من يأخذ هذه؟

يقوم الأسير الذى يدير ظهره، يقوم للإجابة قائلاً: أحمد أو ايفان أو بترو، وهكذا، وبعد أن ينادى على أسماء الأسرى الأربعة مع القطع الأربع تبقى له القطعة الخامسة، لا يستجاب للاعتراضات، ويختفى الأسير الذى يأخذ خبزه فى الزحام.

يحدجنا الأسرى القدامى بنظراتهم. يفحصوننا من قمم رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا، وكانوا يسألوننا قائلين:

- ماذا عن الحرب؟

- أما زال المفوضون يحاربون؟

- متى وقعتم فى الأسر؟ وأين؟

بحثت فى ذلك اليوم عن مواطن من مواطنى فى كل الزحام. لكنى لم أستطع العثور على وجه أسمر ولا على عينين توقظ نظراتهما فى قلبى الأحاسيس الدافئة. إن أكثر الأسرى: روس وأوكرانيون. فريق منهم، كان، هؤلاء الذين كانوا يأكلون خبزهم منذ حين، حين أكلوه، مثلما تأكل الحيوانات العلف وهى تضع رؤوسها فى المخلاة، أما الباقى، فكانوا يغنون أغانى قازاقية محترقة، بأصوات غليظة.

للشعوب خصائص ذاتية، وكذلك للشعب الروسى خصائصه الذاتية أيضاً. ومن ضمن الخصائص الذاتية للشعب الروسى: أن يجثو على ركبتيه سريعاً أمام قوة يحس أنها تفوقه. لم أقابل أسيراً طوال أسبوعين من الأسر، حدثنى عن بلاده التى تحترق ألماً، وتعرضت للاحتلال. بالعكس تماماً. كانوا يبدون أنهم على استعداد لأن يحبوا

ذلك الذى غلبهم وسحقهم فى ذلك المساء، وبينما كنت أجلس بمفردى بجوار الحائط، سمعت خمسة أشخاص أمامى يتكلمون بلغة أجنبية عرفت من بزاتهم الرسمية أنهم جنود رومانيون. كنت رأيت خمستهم فى مبنى القيادة فى كرانسوى بعد وداعى لجريشة. خمستهم أيضاً كانوا قصار القامة تعلوهم القذارة، ويشبهون الغجر! كانوا قد وقعوا أسرى فى أيدى رجالنا فى كرانسوى وكانوا فى ذلك الوقت فى حالة يرثى لها، كنا أعطينا لكل واحد منهم سيجارة. قدمنا لهم الأكل حتى شبعوا، كانوا فى غاية السرور لسقوطهم فى الأسر. دهشت الآن عندما رأيتهم بيننا. فى الغالب أن الألمان أسروهم أيضاً مع فرقنا. لكن حركاتهم وأحاديثهم لا تمت بصلة لوضعهم كأسرى. يدخنون حتى إنهم كانوا بين حين وآخر يصرخون فى الأسرى النائمين. رأيت أسيراً كان يجلس بعيداً، قد نهض وابتعد عندما رأى الرومانيين يتقدمون نحونا.
سألته حينئذ:

- من هؤلاء؟

- رومانيون.

- أأسرى هؤلاء أيضاً؟

- كانوا أسرى، إنهم الآن سيأخذون الأحذية الجيدة من قدمى أى أسير عندما يرونها، إنهم متحالفون مع الألمان.

ثم نظر إلى قدمى وقال: فى قدميك حذاء جيد، لا تظهره لهم أيها الملازم. ثم ذهب.

بقيت وحيداً تماماً بجوار الحائط.

كنت أفكر قائلاً:

- لو أن ديوثاً منهم مسنى، لقتلته.

كان للأسير الحق فيما قال، فلقد أوقعوا أسيراً فى الأمام، وأخذوا حذاءه من قدميه. مسكين ذلك الرجل، إنه يجرى خلف الرومانيين، يتوسل إليهم وهو يمد يديه إلى الأمام، يبكى. كان يريد حذاءه. والرومانيون أيضاً. كانوا بين الحين والحين يعودون إلى الخلف ويوجهون لكمة إلى الأسير، ثم يميلون إلى أسفل وينظرون أيضاً إلى أقدام الأسرى النائمين فى الفناء. والآن، يتوجه واحد منهم نحوى. إبليس قصير القامة، نحيف، أسمر نحيل الوجه! يداه فى جيبيه، يركز عينيه على حذائى. يتقدم نحوى وهو يصفر:

- لو مد يده علىّ. لو مسنى..

يقف بالقرب منى على بعد ثلاث خطوات. كان وهو يصفر ينظر إلىّ وعيناه تنتقلان من على حذائى إلى وجهى ومن وجهى إلى حذائى، وكلما نظرت أنا بدورى إلى وجهه أحس بأن قوة مدهشة تجمعت فى نفسى. قبضتا يدى تثقلان، ومن ناحية أخرى أحاول أيضاً أن أكون رابط الجأش. تقدم خطوتين أخريين ووقف بجوارى، وأخذ ينظر، وكأنه تاجر خبير، بسكون إلى حذائى. وفى اللحظة التى مس فيها إحدى فردتى حذائى، اسودت الدنيا أمام عينى. أنهض واقفاً. أصيح قائلاً:

- ابتعد.. ابتعد..

وعندما انحنى الرومانى مرة أخرى على حذائى اتخذت قراراً سريعاً، ألقيت بنفسى عليه. كنت كالحيوان المفترس. وجه الرومانى تحت قدمى، وقد احمر الوجه احمراراً شديداً. خاف أصدقاؤه الذين جاءوا لنجدته عندما رأوا الرعب المفزع فى وجهى. ودون أن ينطقوا بكلمة واحدة ودون الدخول فى معركة أخذوا الجريح وذهبوا. وابتعد الروس - الذين يتفرجون علينا - ابتعدوا بهدوء وببطء. الحقد والقوة

اللذان انتابانى منذ حين، يتولان عنى رويداً رويداً.

أحس بالغربة والوحدة، تقف فى حلقى وببطء الآلام التى تجمعت فى داخلى. لماذا ضربت هذا المسكين ضرباً مبرحاً؟ هل من الصحيح أن تضرب من هو أضعف منك؟ هذه الأسئلة التى أطرحها على نفسى كانت أكثر مرارة من كل شىء. ولم تنته المسألة على هذا. فبعد نصف ساعة حضر نحوى أصدقاء الرومانى الجريح. وكان معهم جاويش ألمانى طويل القامة، عريض المنكبين، أشقر اللون، أشعر بالاشمئزاز من عجزى أكثر من اشمئزازى من أى شىء آخر، عندما أفكر فى أننى سأكون مجبراً على تسليم حذائى للرومانيين. لم أكن أستطيع ضرب الجاويش الألمانى المسلح. ضربات قلبى تسرع فى الدق. ركبتاى ترتعشان. أردت فجأة .أن أرمى نفسى على الأرض وأظل أضرب رأسى على أحجار الفناء حتى تتهشم.

أشار الرومانى الجريح نحوى بيد مرتعشة، كان يدل الجاويش الألمانى علىّ. اقترب الجاويش منى، ونظر إلىّ: أولاً إلى حذائى، ثم إلى وجهى. لكنه لم يستطع قول شىء، يفكر عميقاً وينظر تارة إلى حذائى وتارة إلى وجهى. وكان صامتاً. ثم التفت فجأة إلى الرومانيين، وصاح بصوت وحشى:

– ابتعدوا عن هنا!! ابتعدوا أيها الكلاب، ابتعدوا أيها اللصوص، بأى حق تتصرفون هكذا تجاه الضابط.

وقع صوت الجاويش الألمانى كالرعد بين الرومانيين، هرب خمستهم إلى خمس جهات، وتفرقوا كأنهم صغار الفراخ الجبلية، تجمع حولى الروس الذين كانوا يتعقبون هذا المشهد الذى حصل منذ حين. ثم بدأوا يتحدثون إلىّ باحترام كبير.

نمت هذه الليلة بجوار الحائط، وفى الصباح، فى ساعة مبكرة جداً منه، أيقظنى أحدهم بأن شد ياقتى. فتحت عينى فإذا بى أرى الجاويش الألمانى الذى صاح بالرومانيين مساء أمس، وقد انتصب فوق رأسى. أصابتنى الدهشة، فى البداية، ثم، وعندما رمى بجانبى، بجانب رأسى، حذاء مشاة قديم، طويل الساقين، كان يحمله فى يده، أدركت سبب صياحه مساء أمس بالرومانيين، وفهمت سر زيارته لى فى هذه الساعة المبكرة، ولم يكن فى وسعى حل آخر. سلمت الحذاء إلى الجاويش وارتديت الحذاء القديم الذى أعطانيه.

-٦-

روما، فى ١٩٤٦/٦/١

جلست أمام نافذة حجرة الفندق المطلة على الحديقة أفكر فى القرم وفى بيتى. وكان الصداع الذى انتابنى بالأمس قد زال. لكننى لن أفكر، لا فى المساء الماضى ولا أيضاً فى المستقبل! وليكن ما يكون!.

الواقع إن حياتى فى هذه الدنيا قد انتهت حين غادرت قبر ماريا فى ضفاف «الاين» فى «تيرول» فى شهر مايو من العام الماضى. فى ذلك اليوم نزلت جمرة فى قلبى وكأن كبدى قد احترق. ولم تهدأ نفسى يوماً بعد ذلك اليوم، وإنى راض بالبقاء والمعاناة، هكذا يسوقنى الشيطان دائماً إلى طريقه. يا ربى! أحينى فى عالمك واحمنى.

قررت الأسبوع الماضى أن لا أكتب المذكرات، لكنى بدون المذكرات أحس بالاضطراب، أكثر منه بالفراغ النفسى. كيف أستمر! كيف أكتب! أريد أن أكتب، أحترق لأننى أريد الكتابة، لكنى لست كاتباً، فكيف أكتب! لا أستطيع – حتى أنا – فهم بعض كتاباتى. أجد نفسى أفكر فى كيوفجراد بعد أن اتخذت القرار بالتراجع عن المذكرات. والآن أيضاً وأنا أكتب هذه الأسطر، أجد كيوفجراد أمام عينى.. مساء أمس وأنا فى السرير، خيل إلىّ أنى أرى معسكر كيوفجراد مدة طويلة. ولم يفارقنى لساعات عدة، وها هم معى هنا يرقد ثمانية أسرى أو ربما عشرة لم يبق منهم إلا جلد عظام. أفواههم مفتوحة. أرى أسنانهم الصفراء. والذباب يدخل من شفاههم إلى حلوقهم، وليس هناك ما يظهر منه أنهم بشر إلا عيونهم المنطفئة، يرقدون دون حراك. دون إحساس.. إنهم لا يتحركون ولو حتى قيد أنملة. كل واحد منهم ينتظر أجله، أما الأجل فلم يأت بعد. لكنه سيأتى. قد يأتى هذه الليلة، وربما فى الغد.. لكن هؤلاء الناس يحتاجون إلى الموت. والواقع أن كلاً منهم جنازة حية. ينظرون إلى عينى، ولا يطلب أحد منهم النجدة.

أوف!.. كيف خطرت كتابة المذكرات على ذهني! أليست لحظات نوم هادىء أفضل من مذكرة..؟ لن أفكر. غداً صباحاً سألقى بكل ما كتبته، إلى النيران لتحترق. فقد تحترق أفكارى السوداء مع مذكراتى.. لن أفكر! ولن أكتب! أنا لم أمت، الحمد لله، لم أمت! كان ذلك زمن الحرب. كم من الناس حاربوا ورأوا الموت قريباً منهم وهؤلاء لم يكتبوا مذكراتهم ولم يتعبوا رؤوسهم، يعيشون وسعداء، لماذا لا أستطيع أنا أيضاً حب الحياة مثل هؤلاء الناس. لست سعيداً مثلهم.

أتقلب فى السرير، أدفع رأسى الغريبة تحت المخدة، لن أفكر فى أيام الأسر التى عشتها. كيف أنام؟ أنا لا أستطيع النوم. كنت فى العام الماضى أجلس عند رأس ماريا فى وقت مساء فى السقيفة الخربة، على ضفاف «الاين». ماريا المسكينة كانت مثلى أيضاً، مؤرقة مسهدة، لكنها كانت تريد منى أن أنام، وعندما قلت لها: «لا أستطيع النوم، لقد طار منى» فكانت تقول: «اغمض عينيك وعد، عد حتى المائة، فإذا لم تستطع النوم، فعد مرة أخرى، عد حتى الألف، عد دائماً، وستنام». تذكرت كلامها هذا مساء أمس فأخذت فى العد واحد.. اثنان.. خمسة.. عشرة.. مائة.. أرى أننا لم نعبر سوق (أومان) وأرى المشنقة الموجودة فى الميدان.. خمسة أشخاص معلقين على المشنقة، ينتفض كل جسدى تحت اللحاف الأحمر الحرير.. كان ينبغى لى ألا أفكر. كان ينبغى لى ألا أعد.. مائتان.. مائتان وواحد.. مائتان واثنان.. وأمام عينى: أقدام هؤلاء وهى مقطوعة مرتفعة عن الأرض تهتز اهتزازاً خفيفاً. ما أفظعه من موت! رأيت أنواعاً مختلفة من الموت، وأفظع نوع منها هو تسليم الروح على مشنقة. لو قيل لى اختر لك طريقة تفضلها لتموت بها، فماذا كنت أختار؟ لو قيل لى أبالرصاص؟ لقلت نعم أموت بالرصاص. الذين يموتون ضرباً بالرصاص، يموتون وهم يخبئون الحياة فى أجسادهم، أما الذين يسلمون الروح على المشنقة والذين

يموتون جوعاً ومرضاً، فأظن أنهم يتراجعون عن الحياة قبل أن يموتوا. كان الروس أيضاً يشنقون الجناة.. مثلى.. وأنا إذا لم أحب الحياة أو بالأصح لم تحبنى الحياة فلأذهب بعد الموت أينما أذهب، أريد أن أحمل معى الحياة. أيتها الحياة الحلوة: إنى أخاف الموت عندما أفكر فيك! ولكن ياترى أليس فى الدنيا شيء أقوى من الموت؟ لو لم يكن موجوداً فإنى لم أكن أحيا حتى الآن.

وإذا كان موجوداً فلماذا لا أراه ولا أحس به؟ ربما لأنى مازلت شاباً. ربما لم أفطن بعد جيداً إلى ما تعنيه الحياة. ربما إنى أريد من الحياة أعمالاً؛ لا تستطيع الحياة أن تعطيها لى، ولا لغيرى. أأنا فقط الإنسان الضعيف فى الحياة؟ فى كيوفجراد: كان الأومباشى مصطفى الآق مسجدى، أقوى منا وأصح وأشجع منا، رعانا مثل الأب. لم يكن يأكل ويقدم لنا الأكل. كان رجلاً مثل الجبال. من كان يتصور أنه سينهار؟ لكنه لم يستطع مقاومة معسكر «أومان» ، انهار ومرض.

أظلمت الآفاق. تغيرت ألوان الحديقة رويداً رويداً. احترقت النجوم فى السماء وهبط صمت مطلسم فى حجرتى. كنت كأنى خجلت من نفسى عندما تذكرت الأومباشى مصطفى الآق مسجدى. أكن له فى نفسى الحب والاحترام. ابتعدت عن النافذة أفكر فى مصطفى رحمه الله وأنا أتمدد على سريرى.

فى اليوم التالى الذى أخذ فيه الجاويش الألمانى، الحذاء من قدمى، لم أتحدث مع أى شخص قط، فى ذلك اليوم بدأت بالنسبة لى حياة جديدة، لكنى لم أكن مستعداً بعد، لتلك الحياة الجديدة. لم أكن قد فكرت فى يوم من الأيام – حتى حينها – أننى سأبتعد عن الحياة التى عشتها. كان هنالك ألم فى نفسى. أشمئز من كل الناس. كل شخص فى نظرى: عدو. وأتصور أن كل شخص ينظر إلىّ بعداء. كنت أحس فى الحياة الجديدة بضرورة الحرب من أجل الحياة، ولهذا أيضاً أنفر

من كل الناس. كنت راضياً بالعودة مرة أخرى إلى الجبهة وإلى الحرب. ضد من؟ ضد أى أحد. وفى أى سبيل. ولشرف أى شىء كان. فقط ألا يكون فى سبيل هذه الحياة التى تدور حول جدران أربعة. فقط أخرج من بين هؤلاء الناس. فى ذلك اليوم، وكل اليوم، فكرت فى الهروب من الأسر. أخذونا بعد يومين إلى معسكر آخر. وهنالك بدأ الأسر بكامل معناه. عندما دخلنا «شتالاك.. ٣» (١) فهمت أن الأسر أصعب وأشد وأمرّ من كل شىء. مبانٍ طويلة حمراء وميدان واسع جداً، وخلف المبانى فوهات المدافع الرشاشة موجهة نحو الميدان. أبراج مضاءة، والأسلاك الشائكة بين المبانى الحمراء، وفى الأبراج كان الألمان يطلقون الرصاص على كل أسير يقترب من الأسلاك.

كان الميدان مزدحماً كأنه المحشر. وكان أكثر الأسرى مشغولين بقتل القمل الموجود فى قمصانهم وبناطيلهم. كان بعضهم مقملاً للدرجة التى كانوا فيها يأخذون القمل من قمصانهم بقبضات أيديهم، ويطرحونه جانباً، ويلفت النظر أيضاً هؤلاء الأسرى الذين يرقدون هنا وهناك بلا حركة. ولا يتضح فيما إذا كانوا موتى أم أحياء. لا يبدو عليهم شىء. بعضهم كان يتجول وعيناه فى الأرض وكأنه معتوه. والجسد المسجى على الأرض لا يمكن معرفة موته إلا بعد يوم أو يومين، وأحياناً ثلاثة أيام وأربعة، وذلك بعد أن ينتن جسده. كانوا يجمعون الموتى بجوار الحائط كما يجمعون الحطب. يبدو قلب الميدان مزدحماً دائماً، عند دخول الشتالاك، تقدمت نحو الزحام، سوق. ليس هناك شىء ناقص إلا الطعام. يقدمون هنا نصف سيجارة مع علبة صفيح صغيرة فارغة، كل شىء هنا موجود بوفرة، الأمشاط، موس الحلاقة، الأحزمة، الخواتم، حتى ما تستخدمه السيدات من الطلاء. وفى جيبى صورة أسرتى وبكر، وليس فى جيبى غيرها، معنى هذا أننى لن

(١) شتالاك كلمة ألمانية معناها معسكر، تجمع، معتقل .

آخذ شيئاً من السوق. أنسحب إلى أحد الأركان. أنظر إلى دنياى الغريبة هذه، لكى أتعود عليها. مرة أخرى أبحث عن مواطن يؤنسنى. ولكن أين؟! كل واحد يفكر فى نفسه، كل واحد يحمل فى قلبه مرارته ودنياه، وفى الوجوه لا يمكن عمل شىء إلا قراءة آثار اضطراب الحياة فقط. لا أحد ينظر إلى أحد. لا أحد يتحدث مع أحد.

يأتى المساء، أين سأنام؟ أريد أن أجد مكاناً أنام فيه. أرى مكاناً فى جانب الميدان، مكاناً فارغاً، ليس فيه أحد. أتقدم إليه.

الروائح الكريهة تصيبنى بالغثيان، قبل أن أجد طرف الميدان الذى أتوجه إليه أرى فى الأمام حفر قضاء الحاجة، طويلة وعميقة، وسرعان ما أتجه إلى اليسار وأسير نحو المبانى الحمراء. الحجرات مملوءة حتى نوافذ الباب، يتصارع الأسرى أمام الأبواب بعنف وقسوة من أجل الدخول، أقترب من الأسرى، يدفعنى أحدهم فى صدرى:

- ليس هناك مكان يا صديقى، ليس هناك مكان، ألا ترى؟ إننا نختنق.

ليس ثمة مكان فى السماء سحب رصاصية ثقيلة. الجو يبعث على الضيق، كما يبدو أن المطر فى طريقه إلى الهطول ليلاً، مازلت أبحث عن مكان فى الميدان ولابد أن أجد مكاناً، فالسماء تبدو وكأنها ستمطر ليلاً. أتقدم ببطء. يبدو أننى دست على يد أحدهم، يشتمنى وهو يصيح:

- أعمى!.. أعمى.. ألا فقئت عيناك!

أصوات غاضبة أخرى تشترك مع صوت ذلك الإنسان :

- ابتعد!

- هل تظن نفسك فى حديقة؟

- هيا ابتعد عنا.

كم من مرة وقعت على هؤلاء المساكين، وكم من ركلة تلقيتها منهم. أحس بأنى ضعيف عاجز، أشمئز، ليس من هؤلاء الناس الذين لا

يحبوننى، وإنما من نفسى، وأخيراً أذهب مرة أخرى إلى تلك الحفر السابقة. أصبحت لا أبالى بهذه الروائح الكريهة.. أجلس على حافة حفرة. أحس بانتفاخ فى فمى يتسرب رويداً رويداً. يا ربى! يا لهذا من ظلم! ولأول مرة فى حياتى أفهم أننى فى مكان ليس فيه أمل فى الخلاص. أبكى ورأسى بين كفى، مثل طفل ضال.

ينتصب فى هذه الأثناء أمامى إنسان، فأرفع رأسى وأنظر إلى وجهه، يحدجنى بنظرات من عينيه الكبيرتين اللتين استطاعتا رغم ما عانتاه، الاحتفاظ بجمالهما، عيناه رحيمتان. إنه ضعيف نحيف لكنه يبدو كقوة هادئة صامتة من خلال عينيه هاتين. يمكن أن تكون قوتهما تكمن فى أنى أحبهما. أريد أن أتحدث إلى الرجل. سبقنى هو وسألنى بصوت خفيض:

- هل أنت تتارى؟

انطلق قلبى وبدا كأنه سينفجر عند سماعى صوت هذا الرجل وجدت نفسى أنهض على قدمى من فرط اضطرابى.

- كيف عرفت هذا؟

- أنا أيضاً قرمى. فهمت ذلك من وجهك. هنا مجموعة من تتار القرم، إذا كنت مهتماً فتعال آخذك إليهم.

أفهم فوراً من كلام هذا القرمى أنه قرمجاك (١).

- ولماذا لا تكون معهم؟

يسير دون أن يجيب عن سؤالى. وأنا بدورى أسير بجانبه. يقف قبل الوصول إلى جدار المبنى الأحمر وهو يشير إلى الأسرى.

- بجانب الحائط هناك.. خمسة أشخاص يجلسون معاً..

- أراهم..

- إنهم تتار.. وأنت أيضاً.. اذهب إليهم.

(١) القرمجاك : اليهودى من القرم

ومضى يقول:

– السماء ملبدة بالغيوم. يبدو أن الليل سيكون مطيراً. جانب الحائط هو أحسن مكان وقت المطر. تلتصق بالحائط فتنجو من المطر. إياك أن تقول لابد من الدخول إلى الغرف لأنهم قبل أسبوعين أخرجوا ثمانين ميتاً من الغرف وكان ذلك فى صباح ليلة مطيرة. وفى هذا الميدان ٢٨ ألف أسير. وفى المطر يريد كل واحد أن يدخل الغرف، أستودعك الله.

وجدت نفسى أمسك بذراعه أثناء ما كان يهم بالذهاب.

– تعال معى. ففى هذا المطر مكان لنا جميعاً. ألست مواطناً لى؟

– ليس هناك مطر بعد.. كل ما هناك: حائط.. أحياناً تصدر من خلف ذلك الحائط أصوات تؤذى راحة الإنسان. قد تسمع أنت أيضاً تلك الأصوات فى هذه الليلة. أنا لا أخاف الموت لكنى أحب الحياة كثيراً.

ثم مال على أذنى وهمس قائلاً:

– وهناك أيضاً أوكرانيون يعرفوننى وأخاف منهم.

ثم صافحنى ومشى.

أنظر إلى مواطنىّ الذين يرقدون بجوار الحائط، يتحدثون بأصوات خفيضة. أتقدم. وعندما أصل إليهم، ألقى السلام عليهم. ينهضون سريعاً، ويمدون إلىّ أياديهم. يبدو أنهم جميعاً من عائلات طيبة. فيهم رقة وحياء. واحد منهم فقط ينظر إلىّ بنظرات جافة بعينين ناريتين، وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره، طويل القامة، عريض المنكبين. لكنه لم يكن دائماً جافاً. وجهه المؤمن يبدو أحياناً جافاً وأحياناً أخرى مسروراً. وعندما يأخذ مظهره الجاف، يلوى بشكل قبيح شفتيه الغليظتين تحت شاربه الكث، وعندما يضحك كانت أسنانه الحادة تظهر مثل أسنان الذئب، بيضاء مثل الصدف، عنده دائماً ما يشغله. يدق

مسماراً في حائط، يعلق بطانية، ينظف حذاء بقطعة قماش في يده، وعندما لا يجد ما يفعله، فإنه إما أن يصدر الأوامر إلى الآخرين، أو يغني. وكان الآخرون يستمعون إليه بصمت. كان ذلك هو الأومباشي مصطفى الآق مسجدى. يضع الأومباشي مصطفى الآق مسجدى الآن يده على كتفي ويقول:

- قرمى إن شاء الله؟!

- نعم، قرمى، من آق مسجد.

- أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ يحيا أهل آق مسجد، كلهم كوسة طازة، ياملازم.

تمتد يد بيضاء من تحت البطانية:

- آه يامصطفى آغا، ليت لسانك كان حلواً مثل قلبك.

تتلوى شفتا مصطفى بقبح.

- اسكت يا ولد. أنت مريض. وهذا يتعب معدتك.

ثم يلتفت إليّ ويقول:

- أول بياع كوسة هو عثمان الآي واصلى. هذا الذى ينام تحت البطانية. وهو تحت البطانية منذ أسبوعين، ولا يفعل غير ذلك. أكل أخونا هذا كوسة نيئة من بستان على الطريق أثناء نقل الألمان لنا إلى كيوفجراد، وكان هذا سبباً في مرضه.

يحاول عثمان بصوت ضعيف أن يظهر نفسه بأنه كان معذوراً في هذا:

- كل الناس أكلوا، وأكلت أنا مثلهم.

- «كل الناس أكلوا، وأكلت أنا مثلهم» انظر إلى هذا الكلام! هل معدة المسلم مثل معدة الكافر؟

- وما الذى يدرينى، أليست المعدة معدة؟

- معدة الكافر ضخمة وسيئة مثل معدة الخنزير. لا تفرق بين

الحلال وبين الحرام تأكل ما تجده. أليس لهذا السبب يكون شكل الكافر مثل الخنزير؟ أما أنت فمسلم.

كلنا ننظر إلى عثمان ونضحك. عثمان أيضاً يضحك. وبينما نحن هكذا نستمع إلى كلام مصطفى آغا، الذى يبدو مضحكاً أحياناً، جافاً أحياناً أخرى، إذا بروسى منهك يقترب منه، زاحفاً، عندما اقترب الروسى منا قليلاً قام الأومباشى مصطفى وأخذ يأمر «جودت» الذى يجلس بجوارى ويقول له:

- خذ مكانك إلى يمين عثمان، ياجودت، واحم المريض، فالمطر قد أوشك، والروس يلحقون بنا.

ثم يقول للروسى المقترب منا:

- إلى الوراء توفاريج! إلى الوراء. ألا ترى أن ليس لك مكان هنا.

يقول هذا وهو راقد على الأرض، ثم يهمس قائلاً:

- إن مكانكم إنما هو بجوار حفر الغائط يا قوادون.

تحدثنا ذلك فى المساء، طويلاً، عن الوطن، وتذكرنا عائلاتنا وشكونا من الأسر ورثينا لنصيبنا، قال مصطفى الذى يستمع إلى شكوانا:

- هيا ياكوسة! اشكروا الله أن نجانا! هل هذا أسر؟! إننا نشتم الروس فى وجوههم. أهذا أسر؟ هذا حرية!.

كان فى وجه مصطفى آغا، فى ذلك المساء، جمال متوحش. لكن شفتيه كانتا تتلويان ووجهه القبيح يعبس. كنا نرى قلبه قبل أن نرى تغير وجهه، حتى وهو فى الدقائق التى يبدو فيها جافاً ومرعباً. ومنذ ذلك المساء وقد رأيت قلب مصطفى الرحيم، فأحببته، وكنت أفكر وأقول: «إن هذا الرجل إنما هو بالنسبة لنا منقذ، وهو شىء أشبه بالولى».

الظلام يحل بالميدان. أذكر جيداً جداً، مصطفى آغا وقد أخرج نصف رغيف من كيسه، وقسمه إلى ستة أقسام. وكان نصيبه أصغر من نصيب كل واحد منا. علقت عيناه عندما كان يأكل خبزه بالروسى

الذى جاء إلينا منذ حين، وكان ينظر دون أن ترمش عيناه إلى فم مصطفى. لم يلتفت مصطفى إلى يمين أو شمال، وإنما قام ونهض بعد أن حدث نفسه بأشياء. ذهب إلى الروسى وأعطاه خبزه الذى كان يأكل منه. لكن الروسى المسكين يخاف ولم يكن يجرؤ على مد يده إلى الخبز الذى في يد مصطفى. قال له مصطفى بصوت مرتعش:

– خذ.. خذ.. ولا تخف.

رويداً رويداً مد الروسى يده، وأخذ الخبز وضغطه على صدره، واختفى فى الظلام. عاد مصطفى إلى مكانه. جلس. أخذ رأسه بين راحتيه واستغرق فى تفكير عميق.

لم يمطر المطر الذى انتظرنا هطوله تلك الليلة.

كان الميدان مظلماً وصامتاً. وكان القمر الذى يظهر أحياناً من بين السحب الرصاصية اللون، ينثر أضواءه على بحر الأسرى وهم يئنون.

كان لعثمان المريض، وجه رقيق، ومتحضر عنا جميعاً. ربما يبدو كذلك لأنه مريض. استيقظ حب عثمان فى قلبى فى ذلك المساء. ذهبت ونمت بجواره وبمنتهى الهدوء قلت له:

– هل نمت ياعثمان؟

– أهو أنت يا حضرة الملازم؟

– أنا.

– لا أستطيع النوم. الجو مختنق لكن المطر لن ينزل. انظر إلى السحاب إنه يتفرق ويذهب.

وسكت. كان ينظر بعينيه الواسعتين إلى السحاب الرصاصى.

– أيمكن أن تعطينى معلومات عن مصطفى آغا، ياعثمان؟

لم يتكلم عثمان فى البداية، بل حتى لم يتحرك، ولم يهتز فبدا كأنما لم يسمع سؤالى.

– عثمان!!

لاحظت الدموع الظاهرة فى طرف أهداب عثمان الطويلة السوداء. لاحظتها فى ضوء القمر وهو يتخلص من السحب الرصاصية. ثم، وبعد قليل، أخذ عثمان يتكلم بصوت بدا مخنوقاً:

– معلوماتى.. إنه من آق مسجد. ويطلقون عليه اسم الأومباشى مصطفى الآق مسجدى نسبة إلى بلدته.. أحضرنى إلى هنا، قرمجاكى..

لم يكن مصطفى آغا يتحدث عن نفسه قط. لكن جودت حكى لى عنه.

فى الصباح سيكون هناك بجانب الأبواب القريبة ازدحام كالمحشر. آلاف الأسرى ينتظرون الصباح بجوار تلك الأبواب. يأتى الألمان فى الصباح ويأخذون مائة بل مائتين من بين آلاف الأسرى ويسوقونهم إلى الخدمة. وعند عودة هؤلاء فى المساء، تلقى النساء الأوكرانيات الخبز عليهم، السعيد منهم هو الذى يعود بخبز، والتعيس هو الذى لا يعود بخبز. لم أكن أعرف هذا إنما حدثنى به جودت أيضاً.. ذات يوم، استطاع مصطفى آغا أن يخرج للعمل. مصطفى يستطيع أن يقوم بنفسه بعمل عشرة أشخاص. دهش الألمان كثيراً لما يستطيع مصطفى القيام به من عمل لدرجة أنهم الآن، وكل صباح، يأتون إلى المعسكر ويأخذون مصطفى للعمل. وعندما يقترب المساء يعبئون كيسه بالخبز. وفي كل مساء، يطعمنا الخبز الذى يكسبه وكأنه يطعم أطفاله. يفكر فينا أكثر مما يفكر فى نفسه.

سكت عثمان، ولم أثقل عليه، بدورى، بالأسئلة. أغمضت عينى وفكرت فى القرمجاك الذى كان معنا منذ حين.

فى اليوم التالى، ومن الصباح وحتى المساء، وأنا أبحث عن اليهودى القرمى بين الأسرى. لم أجده فى أى مكان. لكن بعد يومين رأيت ما لن أستطيع طوال عمرى أن أنساه. كان هذا أفظع ما فى النكبات التى

مرت بى فى الأسر.

كنت أتحدث مع عثمان المريض بجوار الحائط، أصوات تصدر من طرف الميدان. وازدحام يتكون فى ذلك المكان. وبعد خمس أو عشر دقائق إذا بحوالى ثمانية أو عشرة جنود أوكرانيين يدفعون أمامهم ثلاثة من الأسرى اليهود، ويسوقونهم وهم يصيحون بهم نحو الألمان الواقفين بجانب الأبواب. وقبل وصول الأوكرانيين إلى الأبواب، تجمع جمع آخر عند حافة الحفر. لكن هذا الجمع لا يشبه قط ذلك الازدحام الذى كان منذ حين فى طرف الميدان. على حافة كل حفرة، مجموعة من الأسرى يطلقون القهقهات نحو داخل الحفرة. وكانت هذه أول مرة لى فى الأسر أجد الأسرى يضحكون. كان بعضهم يشير بيده إلى الحفرة ويستدعون الشرطة الأوكرانيين. وشرطة المعسكر كانت تختار فى أغلب الأحيان من بين الأوكرانيين. وبعد قليل وصل إلى جانب الحفرة شرطيان يحملان عصاهما. كنت أكتفى بالتفرج على الأسرى الذين يضحكون ويقهقهون، من بعيد، لأنى تلقيت فى ذلك الصباح أمراً من مصطفى بألا أترك عثمان المريض بمفرده. سألت أسيراً وكان يمر من جوارى بعد أن ابتعد عن الحفر:

- ماذا يحدث هناك؟

فقال:

- ألقى بنفسه إلى بيت الخلاء.

قال هذا ثم مضى. ولم أفهم ماذا يقصد. ومن شدة حب الاستطلاع، تركت عثمان وانحشرت فى الزحام المتجمع عند أطراف الحفرة. والآن.. أرى بوضوح أرى اليهودى القرمى الذى جاء بى منذ يومين وجدته بين الأسرى الذين ملأوا أنوفهم بالسخريات والقهقهات. أألقى المسكين بنفسه فى الحفرة؟ هل وقع فيها قضاءً وقدراً؟ لا أدرى.. إلا أن هذا المنظر كان يتراءى لى أمام عينى بين الحين والحين. رجال

الشرطة يصيحون به ويضربونه بالعصى على ظهره، يسوقونه إلى الأبواب. أما هو فقد وضع يديه على صدره وأخذ يتقدم بسلبية واضحة دون تمرد، ودون طلب النجدة. يقع أحياناً على الأرض تحت العصى النازلة على ظهره، ثم يقوم ليستمر فى السير. التجمع أخذ فى التفرق. تتبعت اليهودى القرمى حتى اختفى من أمام ناظرى. إلى أين أخذوه؟ لا أدرى. وإنما كانوا فى ذلك اليوم وكل يوم يقتلون اليهود خلف الحائط الذى كنا نرقد أسفله.

يحدث زحام فظيع كل يوم فى الصباح أمام الأبواب. يتجمع كل من فى الميدان من الأسرى الذين يستطيعون الوقوف على أقدامهم، أمام الأبواب، ويتصارعون كالحيوانات المسعورة ساعات بأصوات مرعبة وأنين رهيب. يكون الزحام فى أشده فى حوالى التاسعة. الشرطة الظالمة تهجم من الخلف لكى تشق هذا الزحام وتسوق الأسرى إلى خلف الميدان. يضربون المساكين بالسياط وبالعصى وبالحديد على ظهورهم وعلى رؤوسهم. يقع كثير منهم على الأرض يعوى. فيهم من يبكى كالطفل، لكنهم لا يرغبون فى الانسحاب إلى الميدان الخلفى.

يتزايد عدد رجال الشرطة خلف جدران زحام الأسرى.. يرقد كثير من الموتى تحت الأقدام. يتصدى الجرحى ورؤوسهم تغرق فى الدماء، يتصدون للشرطة التى أسالت الدماء. يموج الزحام. ترتفع إلى الهواء الأيدى التى تريد أن تمزق الشرطة من داخل الزحام إرباً إرباً وتتقد العيون بنيران الانتقام. يتراجع رجال الشرطة من الأوكرانيين، بعد أن فهموا خطورة الوضع. يحل محلهم أمام الباب مجموعة من الجنود الألمان ببنادقهم. تفتح الأبواب، وأوامر شديدة، طراق! طاق.. طاق.. وينقطع فجأة صوت الزحام المسعور الذى كان قبل عدة دقائق، ثم يخترق الصمت، أصوات بنادق متوالية. الأسرى فى رعب يجرون تحت السقيفة ملاصقين للجدران. لا صوت فى كتلة البشر الهائلة. عدة

أسرى بجانب الأبواب يتلوون مضرجين بدمائهم ثم يسلمون الروح. ينتفض جسدى ويرتعش. ولابد أن أصدقائى أيضاً يفكرون فى مصطفى، حتى إنهم ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ولا يجرؤون على التحدث.

- لا تخافوا، مصطفى آغا لا يدخل الزحام.

يتوجه خليل نحو الأبواب، بوجه شاب مؤمن، وبعد قليل يخبرنا قائلاً:

- لا تخافوا، مصطفى آغا ليس هناك. ثمانية أشخاص وقد يكونون عشرة رأيتهم مجروحين فى سيقانهم. واحد منهم مجروح فى صدره، وأظن أنه أسلم روحه لله. إنه لا يتحرك.

انتظرنا مصطفى طوال اليوم بنفاد صبر، وعندما اقترب المساء جاء مصطفى بجانبنا وجلس وحقيبته على كتفه، يداه ووجهه وشعره يسبحون في بحر من الغبار والتراب.

كان يبدو متعباً لكنه كان سعيداً.. التفت إلى عثمان وقال:

- ماذا هناك ياعثمان؟ تنظر إلىَّ كأنك قرد.

قال عثمان بصوت خفيض:

- كنا ننتظرك يامصطفى آغا.

- ماذا هناك حتى تنتظرنى؟ أذهبت إلى حفل عرس.. يعنى؟

استلقى أرضاً، راح يفكر، ثم واصل كلامه قائلاً:

- رجلنا العجوز فى آق مسجد الآن. ومصطفانا! ومن يعلم لعله يفكر فى الفتيات الأوكرانيات. آه، يا لكم من «كوسة»! لو لم تكونوا موجودين لكنت اليوم أطعم أبناء المسلمين فى قرى أوكرانيا.

ثم ضحك ضحكة أبرزت أسنانه البراقة. لم ننطق نحن ببنت شفة. مسح مصطفى التراب العالق بوجهه. أشعل سيجارة. لكنه لم يستطع تحمل صمتنا كثيراً. وفجأة قام على قدميه وصاح قائلاً:

– يا لكم من أصحاب حس مرهف وكأنكم أولاد سيدة رقيقة الروح! ما هذا كله؟ عدة كفار أصيبوا فى سيقانهم. ماذا حدث؟ فليمت هؤلاء الديوثون! ما لكم وهذا؟ ومرة أخرى لم نستطع أن نرفع أصواتنا. إلا أن عثمان قال:

– اليوم هم، وغداً نحن.

كان قلب الأومباشى مصطفى مليئاً بالخير، رغم كل مظاهر الجفاف البادية على وجهه أراه الآن ولأول مرة، غاضباً، محتداً. قال:

– فى اليوم الذى تروننى أخاف فيه من الموت، لن تجدونى بينكم.

قال هذا، ومشى.

لكن، لا عثمان، ولا أى أحد آخر منا كان يخاف الموت.

كنا نحب مصطفى، ليس لأنه يطعمنا، إنما كنا نحبه لأن قلوبنا وأرواحنا قد توحدت. كنا نعتبر أنفسنا أخوة. كنا نحس باضطراب عندما يغيب واحد منا.

أرى أن الأمة التتارية تعيش فى كل أدوار تاريخها كجسد واحد. ولهذا فإن هذه الأمة مستقبلاً، إما أن تعيش قوية سليمة وكبيرة. وإما أن تنتهى تماماً. هكذا كنت أفكر. أحياناً أرغب فى أن يعتمد قيام أمتى على أسس علمية وحقوقية ودينية. مثلما هو حادث فى بعض الأمم النصرانية. فى تواريخ هذه الأمم نكبات وكوارث مختلفة. لكن هذه الكوارث تذهب بالضعفاء وبالمرضى من داخل هذه الأمم. يتزايد الأقوياء خلال العهود، أحياناً بشكل سرى وأحياناً علناً، ويثورون رويداً رويداً. أما نحن، فإن الأقوياء فينا والضعفاء واحد. نساق إلى النصر كأننا نجرى معاً. ونساق دائماً هكذا، إلى الهزيمة، ولهذا، فإننا كما أننا لا نستطيع أن نعيش بدون الأومباشى مصطفى فإنه هو أيضاً لا يستطيع أن يعيش بدوننا. ولم يمر وقت طويل حتى عاد. حدجنا كلنا بنظرة من نظراته بعينه التى كانت عاتبة منذ قليل، من قمم رؤوسنا

حتى أخامص أقدامنا، ثم جلس بجوارنا، وقال:

- يا صادق! إذا أردت أن تبقى معنا، فيجب عليك أن تتخلى عن رتبتك فقلت:

- لا يبعدنى عنكم إلا القدر.

- أبعدوا عنا منذ أسبوعين الضباط بأن أخذوهم إلى معسكرات أخرى. سأجد لك ملابس، أستبدل بها ملابس الضباط هذه.

نهض من جانبى. وبعد نصف ساعة، عاد وفى يده ملابس. قال لى وهو يلقى بالملابس تحت قدمى:

- خذ! لكن نظفها من القمل قبل أن تلبسها، فقملنا يكفينا، ولا نريد قمل الكفار.

ارتديت الملابس. وبقدر ما كان البنطلون ضيقاً، كان القميص واسعاً جداً. كان شكلى سيكون مضحكاً للغاية حتى إن مصطفى وصحبه من ورائه كانوا قد أطلقوا قهقهاتهم وقالوا:

- أنت تشبه صورارفو (١).

فى تلك الليلة نمنا يحتضن بعضنا بعضاً، وتذكرنا الوطن. غنى الأومباشى مصطفى أغنية «يا زينب الجميلة! يازينبى» غناها ونمنا.

مصطفى المسكين: كم كان يسره سرورنا. يفرح ويسعد مثلما يفرح الأطفال ويسعدون إذا وجدنا شبعانين وسعداء.

لم تستمر - للأسف - هذه الحياة طويلاً. فذات مساء، عاد مصطفى مهموماً. لا يتحدث مع أحد. أخذ رأسه بين كفيه وراح يفكر. لكنه قال فجأة:

- أنا لا أخشى الأسر ولا الجوع ولا الموت.

طار النوم من عينى فى تلك الليلة. فكرت فى مصطفى كثيراً. كان هناك شىء يهمه ويقلقه. اصفر وجهه وأصبح كالمريض. كان هناك شىء يحدث، لكن.. ما هو؟

---

(١) صورارفو: جنرال روسى قيصرى مشهور.

علمنا في اليوم التالي، أن الألماني الذي كان يعمل مصطفى معه، قد ذهب إلى الجبهة. الموقف يسوء من يوم إلى يوم. منذ أسبوع ونحن جياع لم نأكل شيئاً. يموت كل يوم في الميدان، أكثر من مائة أسير، يموتون من الجوع والعطش والمرض. كان بيننا أسرى ضعفاء ومرضى. مرضى للدرجة التي لم نكن ندري أنهم يرقدون موتى بجوارنا. الجوع يمحو جسمي يؤثر في نخاعي ويرتفع إلى مخي. يتراءى لي الخبز، شريحة من رغيف القرية. ويظل هكذا ساعات لا تبرح صورتها رؤياي. يحدث أحياناً كأني أرى الخبز بين كفي، فأجد نفسي أود أن أقرب يدي من فمي وأعضها. أعلنوا ذات صباح أنهم سيفرقون أكلاً على الأسرى. ذهبنا زحفاً إلى الأبواب قالوا بالميكروفونات في نواحي الميدان الأربعة:

– انتبهوا – انتبهوا – إذا سادت الفوضى أثناء توزيع الطعام فستنطلق النيران من الأبراج.

ومع ذلك لم يوزعوا علينا شيئاً إنما عزفوا في ذلك اليوم وحتى المساء موسيقى الجاز والفوكسترول والتانجو.

أعلنوا في اليوم التالي – مرة أخرى – أنهم سيعطوننا طعاماً. ومرة أخرى أيضاً استمعنا إلى الموسيقى من الميكروفونات، ببطون جائعة، طوال اليوم لكنهم في اليوم الثالث أرسلوا لنا الشرطة الأوكرانيين فنادوا بنا إلى نوبة الأكل، أعطوا كل أسير خمسين جراماً من الخبز ونصف لتر حساء. انتظمنا في صف وأخذنا ننتظر الدور، الأسرى الذين يخرجون من المطبخ يتجهون نحو الحائط، وكثير منهم اتجه إلى جانب الجدار من فرط خوفهم على خبزهم، أداروا ظهورهم لإخوانهم وأخذوا يأكلون خلسة وفي سرية. كنت أراقب كل هذا بدقة. كان أكثر الأسرى يشربون حساءهم في علب صغيرة من الصفيح الفارغ الذي كان أصلاً علباً لحفظ المأكولات. أما الذين لم يكن معهم مثل هذه العلب

فقد كانوا يأخذون حساءهم فى قبعاتهم، يشربون وعندما ينتهون يظلون مدة طويلة يديرون قبعاتهم على أفواههم، أما المرضى والمرهقون لدرجة عدم قدرتهم على الوقوف فى الصف على أقدامهم فقد كانوا ينظرون بصمت إلى هؤلاء الذين يشربون الحساء. ينظرون إليهم بأفواه فاغرة وعيون متسعة. ولم أستطع أنا الحصول على خبزى إلا فى منتصف الليل. كان لون الحساء أخضر وكان بالخبز من الحصى والتبن واللبن ما يجعل له شكلاً خاصاً، لكنه كان ألذ من كل خبز أكلته فى حياتى حتى ذلك اليوم.

لم يعد الأومباشى مصطفى منطلقاً مثلما كان. مقاومتى للجوع ملحوظة فقد كنت أكثر من يتحمله. يرقد بجوار الحائط وينام عدة ساعات. وعندما يستيقظ تثبت عيناه على نقطة ويظل كذلك. لم أعد أرى وجهه الذى كان قبل أسبوعين، نضراً مليئاً بالصحة. لقد أصبح مصطفى فى حالة يأس لا نهاية لها.

مهما حاول مصطفى إخفاء هذا إلا أننا كنا ندركه ونفهمه. إن غرق إنسان سليم وسعيد فى التفكير وفى اليأس يتضح بسرعة، من شأن الاضطراب أن يطفىء سريعاً إنساناً سليماً. وكان مصطفى ينطفىء سريعاً أمام عينى. ورغم ضعفى وقلة حيلتى فإن شيئاً ما بداخلى كان يدفعنى أمام أصدقائى، صوت فى داخلى كان يقول لى أسرع لمساعدتهم، وقبيل مساء، اتخذت قرارى، ذهبت إلى الأبواب فى منتصف الليل دون أن أشعر أحداً بذلك. تجمع جمع كبير بجانب الأبواب قبيل الصباح، وخلفى، خلف الأسلاك الشائكة، آلاف الأسرى جياع، مسعورون، مستعدون ليقاتل بعضهم بعضاً. كنت أفكر فى إخوانهم الذين أسلموا أرواحهم مضرجين فى دمائهم منذ أسبوعين. لكنى كنت اتخذت قرارى: أن أخرج من المعسكر لأحضر الخبز لأصدقائى. سأنجح بمفردى فى العمل الذى لا يفلح فى تحقيقه مائة

شخص. سأكسب ذلك الخبز وأطعم به مصطفى وعثمان وجودت وخليل.

يدق قلبى بشدة عندما اقترب منا ديدبان مسلح ببندقية، خلف الأبواب ذات العيدان الحديدية، يخيل إلي أنه سيقتلنى عندما ينزل البندقية من على كتفه. لا يخرج صوتاً. يأتى ويذهب أمام الأبواب خطوة خطوة وكأنه يعد خطواته. يصبح الصباح. الازدحام خلفى يزداد تداخلاً. ثمانية أسرى وعشرة هم الذين بينى وبين الأبواب التى أمامى. يدفعوننى أكثر وأكثر. تبدأ الشتائم والصياح والأنين بين الأسرى الذين ورائى، لكنى كنت اتخذت قرارى. لا أخاف. سأحضر هذا المساء خبزاً إلى المعسكر. وعندما يسألنى مصطفى «أين كنت؟»، سأخرج الخبز من حضنى وأضعه بجانبه. ماذا لو أطلق الألمانى النار عليّ؟ يتجمع الجنود الألمان أمام الأبواب. فيهم غير مسلحين. السلاح هو أخوف ما أخافه. وجه السلاح جاف ورهيب. أتصور الجنود غير المسلحين متحضرين، رحماء، قلوبهم طيبة. لماذا كلهم غير مسلح؟! يتقدم واحد منهم نحونا. طويل القامة. أشقر.. يقف خلف ستارة الباب الحديدية أرى الآن وجهه جيداً. لا تبدو الرحمة عليه. لكن لا أدرى لماذا أجده يضحك. حاجباه الغزيران الأصفران يغطيان عينيه اللتين هربتا إلى الحفرة. هذان الحاجبان مع جبهته الضيقة وشعره الجاف المنتصب كالفرشاة، كل هذا يشكل صورةً لحيوان يداه خلف ظهره يضحك وهو يبتسم لنا دائماً، يرفع نحونا عصاه الجلدية التى أخفاها وراءه، يهزها ويضحك. هل يضحك علينا إنسان يريد أن يضربنا؟ إنه يضحك. يمد الأسرى أيديهم.. يريدون سيجارة. لكنه لا يجيب. إنما يضحك كالقرد وهو يهز عصاه. كم من وقت مضى ولم نر فيه إنساناً يضحك وهو ينظر إلينا. يموج الجمع المزدحم عندما يفتح الديدبان المسلح الباب رويداً رويداً، يتغير فجأة وجه الألمانى الذى يضحك، يجف وجهه وهو ينظر إلينا ثم يندس بيننا من فتحة الباب ويصيح قائلاً :

– إلى الوراء، أيها الخنازير! إلى الوراء!.

أمن المعقول أن يفسد فجأة، إنسان طيب، هكذا؟!، لم نستطع أن نفهم تغيره . لم نصدق هذا ، فكان يصيح بوحشية ونحن نضحك، لم يكن الضحك رغبتنا إنما نضحك لأنه كان يضحك لنا. لكن فى عينيه لمعان خائن ووحشى. يندس بيننا من فتحة الباب. يضرب على وجوهنا بعصاه الجلدية التى فى يده، ليس على وجوهنا فقط، بل وعلى رؤوسنا. يصيح كالمجنون يركلنا بقدميه ويشتمنا. نحن لا نرجع إلى الوراء إلا فى حالة واحدة وهى إطلاق الرصاص علينا. لكنه، الآن، وسطنا ونحن حواليه ننظر إليه، لم يعد الآن يشتم، يذهب ويجيء أمام الأسري، يهز عصاه ويضحك، أقول فى نفسي: «هذا الديوث، ألم يجد لعبة أخرى غير ما هو عليه؟» وبينما أنا هكذا، إذا به يقف فى وسط المكان ويرمى سيجارته التى كان يدخنها، تحت أقدام الأسري، فإذا بهم ينطلقون على الأرض كالحيوانات الكاسرة، يتصارعون بأصوات رهيبة وأنّات مفزعة، من أجل نصف سيجارة، وبينما الأسرى يتصارعون فيما بينهم، وهم على الأرض، إذا بالألمانى يضرب مجموعة منهم بعصاه. ترى من فاز بالسيجارة؟ لا أدري، إلاّ أن جميع الأسرى صاحوا بعد أن نهضوا من على الأرض وهم يقولون:

– ارم، واحدة أخري! ارم!.

لكن الألمانى لم يلق سيجارة أخري، بل أخذ جولة أخرى ماراً من أمام الأسرى وفى الوسط رفع عصاه إلى الهواء وقال:

– من يريد أن يخرج للعمل؟

كنت أنا – تقريباً – الذى فهمت هذا السؤال قبل أى أحد آخر، فرفعت يدى قائلاً:

– أنا.

أشار إليّ بعصاه، ليستدعينى بجواره، خفت أن يضربنى «علقة» لكنه لم يفعل شيئاً. لا أستطيع التعبير عن سرورى عند خروجنا من الباب. لكن

للأسف لم تستمر هذه الفرحة طويلاً، وصلنا أمام مبنى قيادة «الشتالاك» وجدت ما لا يمكن نسيانه، كان كرسى خشبى فاخرٌ بجوار السلم الحجري، ذهب الألمانى وجلس على هذا الكرسى وأنا واقف أمامه، أشعل سيجارة، وأشار إلى طوبتين بجوار الحائط وقال:

– ائت بالطوبتين إلى هنا!

أحضرت الطوبتين، وضعتهما على الأرض تحت أقدام الألماني، أمرنى وهو يشتم أن أحمل الطوبتين فى يدي، لم أفهم مراده، لماذا يصيح بى ويشتمني؟ لا أدري. كنت أريد العمل. العمل بكل ما بى من قوة. أكسب الخبز وأحضره إلى مصطفي. قال لى الألماني، بعد أن أمطرنى بوابل من الشتائم:

– أمسك بالطوبتين وضعهما على رأسك.

أمسكت الطوب ووضعته فوق رأسي. الألمانى يجلس على كرسيه يدخن سيجارته يأمرنى بعصاه الجلدية وكأنه قائد أوركسترا:

– نزول على الأرض! قيام!

نزلت أرضاً ثم قمت، بناء على أوامره عدة مئات من المرات ورويداً رويداً. وقف كل شيء فى حلقي. وصوت من داخلى يقول:

– اسحق هذا الحقير بالطوبتين اللتين فى يديك.

لكنى لا أستطيع عمل شيء. لماذا؟ أكنت أريد أن أعيش؟ رويداً. رويداً أدرت ظهرى إلى الألماني، ولم أستطع تمالك نفسي. والحمدلله أن الألمانى لم ير بكائى وفرحت بهذا. نعم لا أدرى كم مائة مرة هبطت على ركبتى ثم قمت واقفاً وأنا أحمل الطوبتين وأنا منقاد للعصا الجلدية. وبعد نصف ساعة قام الألمانى من على كرسيه وتقدم نحوى وجعلنى أرمى الطوبتين على الأرض وأعطانى سيجارة من سجائره وأخذنى إلى الأبواب وساقنى مباشرة إلى الميدان. ولم أتحدث إلى أحد فى ذلك اليوم. إلا أنى طواله وأنا أفكر فى الناس وفى الحياة وفى الموت.

وهناك قطعة من طريق حياتى الذى سرت فيه حتى الآن، تحرق ذكراها نفسي. إنى اجتزت ذلك الطريق، لكنى كنت أنام فى بعض الليالى وأنا أغرق فى العرق وأظن نفسى وكأنى مازلت فى هذا الطريق. مازالت أنّات ذلك الطريق مسموعة فى أذني. ولهب ذلك الطريق مازالت ترتفع أمام ناظري.. أعرف جيداً أننى الآن فى غرفة فى فندق من فنادق روما.. ومع هذا أسأل نفسي: لماذا أخاف كل هذا الخوف وأرتعش كل هذا الارتعاش..؟مازلت أرى ذلك الطريق واضحاً بكل مآسيه. أريد - لو أستطيع - الكتابة أن أبدأ هذه القطعة من طريق حياتى بأسماء عثمان وخليل وجودت وأنور.

يا إخوانى الأحباء الأعزاء!! لقد كنت معكم على ذلك الطريق الدامي، عندما كان يمسك بعضكم بأيدى بعض أثناء توجهكم إلى الموت. لقد انفصلت أرواحكم الحلوة عن أجسادكم، فى الأماكن البعيدة، عن بلادكم، أثناء غربتكم، فى الوديان التى تخلو من الطيور الطائرة والقوافل العابرة.. يا إخواني: إنى أكتب هذه السطور، وأنا أستمد القوة مما منحتنى أرواحكم، وكأنى أسمعها فى نفسى، أتذكركم بعينين دامعتين أتذكركم وأنا أرى الشباب التتارى المؤمن، من وراء ستارة ضبابية. نعم إنكم تعيشون فى قلوب الشباب وستظلون تنتقلون هكذا من جيل إلى جيل، وستعيشون فى القلوب طالما أن اسم التتار يعيش ويحيا.

لن أنسى طوال عمري، أنْ جاء مصطفى ذات مساء إلى جانب الجدار وهو منفعل. كان فى عينيه بريق مختلف ، بريق غريب، برك على الأرض، على ركبتيه، وبشكل هامس ولكن بصوت حاد قال:

- هيا، انهضوا فنحن ذاهبون.

سألناه جميعاً وبنفس الصوت الهامس:

- إلى أين؟

كان يحدثنا وهو يضع ملابسه الداخلية فى الحقيبة، عما سمعه من

الشرطة الأوكرانيين.

- غداً صباحاً، سيأخذ الألمان من هذا الشتالاك حوالي خمسمائة أسير منا، ليسوقوهم إلى الخدمة في القرى القريبة من كيفوجراد.

وذهبنا في نفس المساء إلى جانب الأبواب، في انتظار الصباح.

لو رميت إبرةً أمام الأبواب قبيل منتصف الليل، ما سقطت على الأرض، وأريد تصديق كلام مصطفي، قد يكون فيه خلاصنا.. الجنود الألمان يتجمعون قرب الصباح وراء أبواب المعسكر، وكلهم مسلحون.

تتكاثف على التوالي كتلة البشر التي خلفنا، وعند ابيضاض الجو نرى في الميدان كل الأسرى الذين يستطيعون الوقوف على أقدامهم وقد تجمعوا كلهم أمام الأبواب. هناك شيء سيحدث، ولكن ما هو؟ هل سيذهبون بنا إلى القري؟ ربما.. كل هؤلاء الجنود المسلحين لنقل خمسمائة أسير جائع نصف عريان.. الزحام الآن مسعور ويزداد سعيراً، وكان الخبر الذي قاله لنا مصطفى عند المساء قد انتشر. بعض الأسرى كان يصيح قائلاً:

- الألمان سيطلقون سراح الأسري.

كل واحد منا يصدق هذا الخبر، يؤمن به، ويفرح له، بل حتى وجدنا بين الأسرى من يهتف بحياة ألمانيا. عينا مصطفى علينا يقول لنا متوسلاً:

- أمسكوا أيديكم بعضها ببعض ولا تتركوها حتى الخروج من الأبواب.

ماذا يحدث؟ هل سنذهب إلى القري؟ ربما! المحاصيل تفسد في الغيطان. ولم يعد هناك أحد يشتغل في القري. رأى الألمان أن يذهبوا بنا إلى القرى ليشغلونا هناك بدلاً من أن يغلقوا علينا المعسكرات ويقتلونا جوعاً. ترى ماذا يقول الأومباشي مصطفي؟ هيا لنخرج إلى القرى وفي أول فرصة تسنح. هيا إلى القرم! ولنتخلص من هذا الميدان فهذا وحده يكفي. تسرى هذه الأنات إلى داخل نفسي ولا أستطيع النظر إلى الدموع، فأنا إنسان متعود على الحرية. لقدِ نشأت تحت شمس القرم ولا أستطيع تحمل هذه الروائح. لنخرج إلى القرى أولاً، ثم وفي الظلام سأقتل هؤلاء الديوثين

المسلحين وسأهرب وسأجعلكم تهربون أيها الكوسة! لا تخافوا!. هكذا قال مصطفي.

وحدات جديدة تظهر خلف الأبواب، وكان الجنود فى انتظار هجوم العدو.. أوامر حادة وقاطعة، كلمات، سلاح، أصوات، استعداد الأسلحة استعداد على أشده، لا تبدو له نهاية، ماذا سيحدث، أرى جيداً من بين الأصابع الحديدية فى الأبواب. الجنود على صفين. حائطان مشغولان بالجنود المسلحين على جانبى الطريق الذى خلف الأبواب. يخرج ضابط طويل القامة، نحيل الجسد، دقيق الملامح، ويتجه نحو الأبواب ومعه مترجم والمترجم يبدو تشيكياً أو بولونياً، يقول بلغة روسية قبيحة للغاية:

- كل خمسة من الأسرى سيأخذون رغيفاً واحداً، لن تأكلوا الخبز هنا. الأسير الذى يأكل الخبز هنا، يُضرب بالرصاص فوراً.

كرر هذا الكلام مرتين، ثم فتحت الأبواب، وكان فى يد مصطفى خبز.

نجرى خلف مصطفى ونحن ننظر إلى اليمين وإلى الشمال. الجنود على الجانبين ينظرون إلينا نظرات جافة، ننحرف إلى اليمين، نخرج إلى طريق إسفلتى نرى على الجانب الأيسر صفوف جنود مسلحة، وسيارات نقل ورشاشات فى سيارات النقل. ولم أر جنوداً ألماناً بهذا الشكل فى مكان واحد، لم أر ذلك القدر من الجنود حتى فى الجبهة. نتقدم يجرى الجنود الألمان عن يميننا وعن يسارنا كأنهم كلاب حراسة. أنظر إلى الجنود القادمين من ورائنا. كم عددهم؟ لا أدري. لا أستطيع أن أرى نهاية للطابور على كل حال، لابد أنهم أكثر من ألف.. ربما ألفان. أمضى بين ناس خرسٍ، المنازل فارغة، جوانب المكان صامتة، وكأن الدنيا جميعها حبست أنفاسها وتستمع إلى أنَّاتنا. نخرج من المدينة. مصطفى لا يتكلم قط. الاضطراب واضح على وجهه. يبدو أن أشياء سيئة للغاية تتولد فى داخله. أريد أن أتحدث، لكن الألمان يصيحون دون توقف. يدفعوننا من خلفنا بقواعد بنادقهم. لن نجرى هكذا، غالباً، وبنفس السرعة طوال اليوم!! يبدو أنهم

يريدون إخراجنا فوراً من المدينة. قد يعطوننا عندما نخرج من المدينة فرصة للراحة قليلاً، إننا فى أطراف المدينة ونواصل التقدم بنفس السرعة وأنا أمسك عثمان الشاب من يده، مصطفى بين خليل وأنور يسبقوننا. وجودت وراءنا. ألتفتُ بين الحين والحين إلى جودت وأنظر إليه. فيقول لى بصوته الحزين:

– لا تخف، يا ملازم، لن أتخلف، لا تخف!

نحن الآن فى سهل. بعد أن كان الألمان يجرون من عن يميننا وعن شمالنا، أخذوا يبتعدون عن صفوف الأسرى بحوالى مائة وربما مائة وخمسين متراً، وبابتعاد الجنود الألمان خرج من الصف بعض الأسرى الروس الذين يسيرون بجانبي. يجثون على ركبهم، وفى لحظة اقتسامهم الخبز إذا بـ .. طاك .. طراك! ثلاث طلقات.. أسيرٌ ينهار على الأرض، وقطعة خبزه بين ساقيه، وقبل أن أراه جيداً إذا بى أسمع أنة خرجت من صدر جودت فى الخلف ويصرخ قائلاً:

– آه يا أمى ...

لم يبرح هذا المنظر مرآى حتى الآن، أمسك مصطفى بجودت من وسطه. دم صديقه ينزف ويسيل من بين إصبعيه إلى أطراف حذائه، رأس جودت يتدلى إلى الخلف، ينظر دائماً إلى أعلى وكأنه ينتظر شيئاً من السماء، وجهه جميل، وجهه نوراني، وأنا أكتب هذه السطور أجد ركبتيَّ ترتعشان، ويهتز قلبى وتتجمع على جبهتى نقط من العرق البارد، وتحترق نفسى لهيباً. جودت بين ذراعى مصطفي. عثمان وخليل وأنور غطوا وجوههم بأيديهم يبكون مختنقين. يقبل مصطفى – وبلا توقف – عينى جودت، ويئن ويقول:

– آه يا أخى ! آه يا أخي!

يمر الأسرى عن اليمين وعن الشمال زاحفين قائمين واقعين. ولا أحد يلتفت إلينا ولا يتكلم معنا، وبعد قليل إذا بصوت بجوار مصطفى يقول:

– هيا ياصديقي: فالموتى لا يُبعثون الآن. أخرجه إلى حافة الطريق،

اتركه وامش أنت!

تظهر فى حدقتى عينى مصطفى لهب سوداء. ينطلق فوراً نحو الروسى الذى قال له هذا الكلام. أظن أنه سيخنق بيديه الداميتين ذلك الروسى ويمزقه إرباً إرباً. يدفع الروسى من صدره ويقوله له:

– امش! اذهب إلى ما أنت فيه.

الروسى لا يذهب، ينظر بصداقة إلى وجه مصطفى الآخذ فى التوحش:

– لا تختلف كثيراً. إن الألمان يضربون سريعاً من يتخلف عن الطابور ومن يخرج من الصف.

– ومن أين تعرف؟

– خرج ثمانية عشر ألف أسير من معسكر كيفوجراد. ولم أرغب أنا فى الخروج. لكن الألمان دخلوا الغرف وأخرجوا الأسرى السالمين عنوة. وعند التقدم داخل المدينة كنت أنا فى أخريات الطابور. لم يقتلوا أحداً داخل المدينة. لكن عند الخروج منها قتلوا كل أسير تأخر عن الطابور ثلاث خطوات. وكم سقط من الموت فى الخلف! آه لو تعلم!.

يبكى مصطفي. يشكّل جسد جودت، بين ذراعى مصطفي، كل وجود مصطفي، وكل حياته. يقبّل – دون توقف – عينى جودت اللتين لا يراهما. يبدو أننا تخلفنا حتى أصبحنا فى نهاية الطابور. أصوات البنادق تختلط بالآهات، وبعد قليل، الأسرى عن يميننا وعن شمالنا يتصارعون، يسرعون، يجرون، وهم يقولون:

– أسرعوا، خلصوا أنفسكم، أيها الإخوة، أسرعوا بالنجاة.

وإنه لأمر صعب للغاية: تَرْكُ جسد جودت والذهاب، لكنى أفهم رويداً رويداً أنه لا حيلة غير تركه. يصعب أن أقول هذا لمصطفى وللآخرين، يبدو أننى كنت أكثر زملائى خوفاً من الموت، ورغم هذا، فإنى أقسم فى داخلى إنى أنا أيضاً لن أترك جسد جودت حتى يتركوه هم. وأخيراً، قام الأومباشى مصطفى بنقل جسد جودت إلى حافة الطريق. أرقده على العشب

الأخضر، وجثا على ركبتيه بالقرب من رأسه.

إننا في نهاية الطابور. نرى سيارات النقل وفوهات المدافع الرشاشة وقد اتجهت إلى الأسرى المسوقين، وفجأة يبدأ سيل من طلقات الرصاص. يداي ترتعشان وركبتاي كذلك. أسمع قهقهات الألمان. يتقدم ثلاثة من الأسرى يترنحون وكأنهم سكارى بين سيارات النقل الألمانية. طاق . طاق. طلقتان فقط ويقع أسيران في منتصف الطريق. أنظر إلى أصدقائي.. يا ربي! ما هذا الاضطراب؟ نخرج من الصف. دوم! صوت بندقية أخري. الآن، وفي وسط الطريق، وعلى بعد خمس عشرة خطوة من هذين الأسيرين الراقدين أرضاً أسير ثالث يقع منكفئاً على وجهه أرضاً يتجندل في دمائه. نتبادل النظرات، أصوات طلقات من البنادق مرة أخري. والرصاص يمر أزيزه أسفل أذني. في هذا الوقت يأخذ مصطفى رأسه بين كفيه ويقول:

– عفوك إلهي! عفوك إلهي .

ثم يقوم على قدميه ويختفي بين زحام الأسري. ونحن بدورنا نترك جسد جودت مسجى على حافة الطريق ونجري في أعقاب مصطفي.

عثرت على مصطفى في الزحام بعد نصف ساعة. كان كمن فقد عقله. لم يكن يتحدث مع أحد منا. لم يكن يرفع رأسه من الأرض ولم يكن ينظر إلى أحد منا. عبرنا في ذلك اليوم من قرية. لكننا لم نر إنساناً ولا حيواناً. كان المكان مغلفاً بالسكون. لم يعد أحد يقول إن الألمان يأخذوننا إلى القري. وعند المساء وقفنا في واد ممتد فسيح . الأسرى وهم تحت السحب الرصاصية المنخفضة يئنون ويدخل بعضهم في أحضان بعض وينامون. لم نكن نتحدث قط. وكانت في عيني مصطفى نظرات منطفئة ولا معنى لها، حتى إني كنت أخاف من أن يحدث له شيء، وكنت أدعو وأقول: يا رب كن معه حتى لا يحدث له مكروه.

وفي اليوم التالي، في ساعة مبكرة من صباحه استيقظت على أصوات البنادق وصيحات وحشية يطلقها الجنود الألمان، أردت الوقوف على قدمي

فخيل إليّ أن أسفل ركبتّي عبارة عن قطعتى خشب، وسريعاً انهرت على الأرض وعثمان بجانبي. أمسكني من وسطي وقال:

- قم يا صادق آغا. قم. لا تتأخر.

ولم أكن أستطيع القيام، كنت كإنسان فقد ساقيه. لكن عثمان المسكين كان يتوسل إليّ قائلاً: قم يا صادق آغا. قم، نزعت حذائي. جاء مصطفى ليساعدني، لف خرقة من القماش وقطعاً من القمصان القديمة، لفها على ساقي. تقدمت مستنداً على كتف عثمان. عشنا طوال اليوم فى محنة ورعب. كنا نأمل الخلاص عندما كنا نمر بكل قرية. لكننا عندما نخرج من قرية كنا نتطلع إلى القرية التالية بأعين دامعة مرة أخري. كنا نخرج ذات مساء من قرية فحدث حفل من نار ومن دم بكل معانى الكلمة. نزل بعض الأسرى إلى البساتين الموجودة على جانبى الطريق. لم يطلق الألمان النار عليهم رغم رؤيتهم لهم. عاد هؤلاء الأسرى من البساتين وانخرطوا فى صفوف الأسرى ثانية وكانت الكوسة والبنجر فى أيديهم. مئات الأسرى الذين رأوا هذا المنظر، انطلقوا هم الآخرون بدورهم إلى البساتين. وفى تلك اللحظة حدث ما حدث: أخذت فوهات المدافع الرشاشة تصيب الأسرى بوابل من رصاصها. لا أدرى كم شخصاً استطاع النجاة من هذه العاصفة النارية؟

وبينما نحن نتقدم، كانت تتجلى فى أعين خليل وعثمان الشابة نظرات غاية فى الغرابة: عندما كانا ينظران إلى أفواه الأسرى الذين كانوا يأكلون الكوسة والبنجر.

وحتى الآن، مازالت صورة هذين الوجهين الشابين تتراءى لي. وجهان شابان بريئان أبيضان كالحليب، غَضّان. هذان الوجهان اللذان ظهرا لى فجأة بين النار والدم فرأيتهما، إنما أعطتهما لى أمتى كأسلم إيمان وأقوى إيمان. لن يخرجا من عقلى حتى آخر نفس فى حياتى.

يحل الظلام. البرد مفزع. غطت السحب السماء. كذلك تبدو كأنها ستمطر. خليل بجانبى يقول بعض أشياء لكنى لا أستطيع فهمها جيداً. إنه

يبدو مريضاً. يتلفظ بكلمات لا أدرى ما إذا كانت أنيناً أم سبّاً أم شتائم. أذهب إليه يمد يديه فجأة إليَّ. لكنه ينهار، قبل أن أصل إليه ويقع على الأرض. يحاول – وهو يرتعش – أن يشرح لى بعض الأشياء.

– ماذا بك يا خليل!

لا يجيب، لكنه يمسك بقدمى وهو يرتعش.

ورويداً رويداً يحل الظلام بالمكان، عربات النقل البعيدة تضيء الصحراء بأنوارها الكاشفة، وهى على الجانب الأيمن من الطريق. نخرج إلى الصحراء وننام تحت أضواء القمر الطالع بين السحب المتفرقة فى منتصف الليل، كان الأسرى يرقدون فى الوحل. إنه منظر يتفوق على جهنم دانتي.

– واستيقظنا فى الصباح الباكر على أصوات الألمان المختلطة بصيحاتهم المتوحشة. كان ذلك هو اليوم الثالث على خروجنا من المعسكر، لقد أصبح ذلك اليوم من أسود أيام حياتي. وكنت أخاف من كتابته. لم أفكر فى كتابته وقت أن شرعت فى كتابة مذكراتي . آه لو كنت فكرت فى هذا من قبل، ربما لم أكن أبدأ قط فى كتابة مذكراتي. أكتب هذه الأسطر مع رنين صوت خليل وعثمان فى أذني.

خليل يتقدم بسكون، إنه بجانبى وعلى وجهه تعبير مخيف، فى المقدمة يسير مصطفى مهتزاً كأنه سكير، وبجواره أنور. إنه أيضاً مثلى حافى القدمين. لم يلبس حذاءه فى ذلك الصباح، كان يحمل حذاءه على كتفه فقد كانت الحاجة ماتزال إليه. أما عثمان فقد كان يسير خلفى قليلاً. كنت أحياناً أسمع أنينه. وهو يقول:

– آه يا أمي! ترى هل أستطيع التحمل؟!.

سمعت بكاءه، فالتفت إلى الخلف وسألته:

– ماذا جرى يا عثمان؟

لم يجب. لكن دموع عينيه، أتنساب على وجنتيه تاركة فيها آثاراً متسخة. وبنفس الأنين قال:

- آه يا أمي، أأستطيع التحمل؟ أأستطيع التحمل؟!

وبينما أخفف عن عثمان ألمه، إذا بخليل فجأة يأخذ رأسه بين كفيه ويلقى بنفسه على الأرض يعوى كالحيوان وهو ينهش الأرض بأظافره. وعندما انحنيت أريد إنهاضه على قدميه، عض يدي، قال له عثمان وقد جاء بجوارنا مسرعاً:

- أجننت يا خليل؟ أجننت؟

وتجمعنا بعد قليل - كلنا - حول خليل . ينظر مصطفى إلى خليل عاتباً. مسكين خليل، عيناه فى الأرض، ويداه وقدماه ترتعشان. يقترب عثمان من خليل، يريد أن يمسكه من كتفه لكنه يخرج فى تلك اللحظة من الصف وهو يأخذ رأسه بين يديه، ويغيب فى الوادى هل ينوى الموت؟ يا ربي!!!

يصيح مصطفى من خلفه قائلاً:

- عد يا خليل! عد يا خليل!

وخليل لا يسمع . رأسه بين يديه ويجرى بسرعة البرق نحو الوادي. نحو سيارات النقل الألمانية.. يجرى عثمان خلف خليل وهو يصيح به. أمسكت بكل من مصطفى وأنور من ظهريهما، ثلاثتنا أيضاً ننظر إلى خليل وهو يجرى نحو سيارات النقل. وفجأة صوت بندقية. يتوقف خليل، وكالسكير، يتقدم خطوتين أو ثلاثاً ثم ينكفيء أرضاً على وجهه طلقة ثالثة من خلفه.. فى هذه المرة ينقلب عثمان خلف خليل على بعد ثمانى خطوات أو عشر.

يغطى مصطفى وجهه بيديه ويبكى وكأنه يختنق. يده طوال النهار على كتفى وهو بجانبي. يستغفر الله ويرجوه رحمته.

فى اليوم الرابع من خروجنا من المعسكر، يختفى أنور فى زحام الأسري. أبحث أنا ومصطفى عنه حتى المساء فلا نجده. ماذا حدث لأنور؟ أهو أيضاً لقى نهاية عثمان وخليل لا أدري. فى تلك الليلة أيضاً كان المطر ينزل غزيراً.. طوال الطريق الذى سرنا منه صباحاً كنت أنحنى لأشرب من المياه المتجمعة فى الحفر، عندها يبدو مصطفى كأنه يعاتبنى على هذا، فلا

ينظر إلى وجهي. لحيته الفاحمة السواد الخشنة الكثة وقد استرسلت. وعيناه قد انتفختا من البكاء. إن رؤية إنسان قوى متين وقد أخذه الانهيار، ليضيف إلى الإنسان مرارة أكثر من تلك التى يحسها! أسأله أحياناً لمجرد الاسترسال فى الكلام:

– هل سنستطيع التحمل يا مصطفي؟

فيهز رأسه فقط دون فتح فمه. ولا أستطيع جيداً فهم ما يعنيه. وبدورى لا أسأله أكثر. وبينما نعبر من قرية خربة، إذا بمصطفى يضع فى يدى شيئاً كأنه معوذة، ويقول:

– خذ هذه واحتفظ بها يا صادق.

يقول هذا وفى قوله ذلك الهدوء المخيف الذى يغشى الناس الذين يصرون على ضروسهم حتى يكبتوا صيحاتهم. وعندما سألته قائلاً:

– وما هذا يا مصطفي؟

رأيت الدموع المتجمعة بين جفنى عينيه. أفك عقدة هذا الشيء الذى يماثل المعوذة، فيخرج منها شعر أسود مجعد.

– من شعر السيدة؟

– لا . إنه شعر ابنتى عائشة. تركتها فى المنزل رقم ١٥ شارع قنطار. وفى لحظة يبدو أمام عينى المنزل رقم (١٥) فى شارع قنطار، وفتاة لطيفة بشعر مجعد وعينين سوداوين تقف على عتبة الباب. أخرج من جيبى الداخلى صورة بكر وأمدّ يدى بها إلى مصطفي. شوق قلبين يعانق بعضهما بعضاً كل منا يبكى على صدر الآخر. قد تكون بعد هذه الدقيقة، بداية التغير فى نفسي. إن هذا لإحساس غريب!.

هناك تل بعيد، عند عبوره يخيل إليّ أننى سأدخل ضفتى «صالغير» ومنهما إلى حديقتنا الخضراء. وفى نفس الدقيقة وبينما أنا على ذلك، يختفى من أمام ناظرى التل الواقع على الناحية الشمالية. والآن، أمامى أكوام من الأرض الصفراء الطويلة. صالغير خلف أكوام هذه الأرض. آه لو أستطيع

عبور هذه الأكوام. سأشرب من مياه «صالغير». فقط أجتاز أكوام الأرض هذه. كم قريبة منا هذه الأكوام. يا الله!! ألا أجتازها؟ منذ متى ونحن نسير؟ كم هي بعيدة أيضاً أكوام الأرض هذه!! لو أستطيع التحمل قليلاً.

يخيل إليَّ في كل دقيقة أن جبل «آيى دا غ» سيخرخ من آفاق السماء بسفوحه. هذه السفوح التى لا لون لها. وخلف الجبل، جبل آيى دا غ: سواحل البحر الأسود العذبة: درمان كوي، قيزيل طاش، كورزوف، والماء البارد.. الماء.. الماء.. الماء يا ربي. نقطة ماء. لكن عليَّ أن أعبر أكوام الأرض الصفراء الطويلة هذه التى أمامي. ثم يحدث ما يحدث. أخرج منها فقط! يأتي مصطفى بجوارى زاحفاً. لماذا لا يجري؟ لماذا؟ يبدو أن خليل وجودت وعثمان وأنور بجواري.. لماذا لا يجرى هؤلاء الأطفال ذوو القلوب النقية؟.. آه لو أصعد على أكوام الأرض الصفراء تلك.. يرتفع شيء طويل دقيق إلى السماء خلف الأكوام يا تري.. أهي مئذنة جامع طوقال في آق مسجد؟ أذكر.. أذكر أن الروس هدموا ذاك الجامع في عام ١٩٣٤.. ولقد شاهدت سقوط هذه المئذنة من نافذة فصلنا في المدرسة. آه .. ذلك الجامع.. دار العبادة والإيمان، التى ارتفعت وأقيمت بأيدى أجدادنا، بأياديهم المتشققة التى جمدت طبقات جلودها. هدموا الجامع، وانتهي.. وسليمان؟! أين هو الآن؟ أصوات الشباب القادمة من السماء، وأصوات أجدادى ذوى الشعر الأبيض الصادرة من تحت الأرض، تأخذنى إلى تلك النواحي. آه لو أصعد على أكوام الرمل الأصفر هذه.

وفجأة أرى أن الأكوام قد انتهت. أرى مكانها في المرتفع ثلاثة منازل، أسطحها من التبن. نسير في اتجاه المنازل. إن شمساً تغطيها طبقة رقيقة من الضباب. حمراء اللون، في حجم الصينية، تختبيء رويداً رويداً خلف المنازل، أفيق رويداً رويداً. تهز النساء الملتحفات بالشالات في حدائق المنازل وفتيات أوكرانيا الشابات، أيديهن لنا بالتحية، نقترب من الحدائق. الإنسان الإنسان والبشر الحق. الناس الطيبون الذين يحيوننا يرفعون لنا أياديهم

بالتحية. فماذا عن الألمان؟ إنهم يجرون من عن يميننا وعن شمالنا ضائعين لم نعد نسمع أصوات البنادق. منذ الصباح ولم أسمع صوت بندقية، لماذا؟ ماذا يحدث لم أفكر في هذا قط.

نسير أمام الحدائق. أخذت النساء رؤوسهن بين أكفهن. يبكون وقد أخذن يهتززن والفتيات الشابات يلوحن بأيديهن وبينهن النائحات والصائحات .

صوت بجوارى يسأل:

– أين نحن؟

النساء في الحديقة يصحن بصوت عال، يقلن:

– أومان! أومان..

نجتاز تلك المنازل. وتبدأ المنازل الواطئة من عن اليمين وعن الشمال. فى حدائقها عدة نساء وفتيات. وبينما نعبر من أمام المنازل هذه إذا بامرأة شابة ترتدى ملابس – بيضاء – وكانت حاملاً – تجرى نحونا . وفى يدها خبز تحمله، وعندما رأيت الألمانى الذى يسير بجوارى قد شهر بندقيته تجاه المرأة، إذا بقلبى يصعد إلى حلقي، تضع الخبز على رأسها وتجرى نحونا. صاحب إلقاءها الخبز إلى الأسرى صوت انطلاق البندقية، تتوقف المرأة. تحاول العودة إلى الحديقة، لكن قبل وصولها باب الحديقة، تترنح. تقع على الأرض. على ظهرها.. وفى صدرها بقعة حمراء فاقعة.. لكن الذى رأيناه وعانيناه قد أخرجنا من نطاق الإنسانية حتى إننا واصلنا مسيرنا دون أن نفتح لنا فماً، بل حتى دون أن ننظر إلى المرأة الراقدة على الأرض.

ندخل المدينة. أمامنا كنيسة. وعلى جانبى الطريق حائطان من النساء والفتيات، مناديلهن فى أفواههن، يبكين. كثير منهن يردن الجرى من جانب الجنود الألمان لإلقاء الخبز الذى فى أيديهن إلينا. يا لشجاعة الفتيات الأوكرانيات ذوات الخدود التفاحية والعيون الخضراء.

إنى أدهش من شجاعتهن المتناهية التى تخلو من أى أثر للخوف من

الرصاص ومن الموت. فى هذه الأرض المملوءة بالنار وبالدم وبين ألف محنة ومحنة، لا نجد نيران الرحمة متوقدة إلا فى عيون تلك الفتيات. وكأن الحياة لم يبق لها بقاء إلا فى أعينهن فقط.

نساق بين الألمان ونجري. وهم يجْرون صائحين بنا، عن يميننا وعن شمالنا. نحن الآن فى شارع ضيق، وأطفال ألصقوا وجوههم النحيفة الدقيقة على زجاج نوافذ المنازل ينظرون إلينا مشدوهين. مساكين هؤلاء الأطفال. أيشاهدون هذه الأيام المرة، وهم فى هذه السن الغضة. تُرى أيقولون فى ذهابهم إلى النوم هذا المساء:

يا جدتي! احك لنا حكاية!.

ندخل في ميدان واسع يشبه السوق. لا نسمع صوت الألمان المتوحش المفزع. عن اليسار هيكل من حديد أحمر، لبناء كان فى وقته شامخاً، والآن محترق. أرى من خلال الحديد مجموعة عربات السكة الحديد. لابد أن يكون هذا المكان محطة سكة حديد. هل ينقلوننا إلى القطار؟ لا.. إننا نصعد من المرتفع الذى عن اليمين ثم نجد أنفسنا بعد قليل فى واد. يخطر فى ذهنى الآن أن الألمان سيسوقوننا إلى الموت المحقق. خاصة بعد أن تركنا خلفنا المدينة والناس. أبحث عن مصطفي. لا أثر له.-أخاف. أين مصطفي؟ لو أجد مصطفى وأمسكه من يده، فى هذه الحالة لن أخاف من شيء. حتى من الموت. أريد أن أبكى مثل الطفل وأنادى باسم مصطفى. نحن الآن فى السهل. لم يطلق الألمان النار بعد. آه لو أجد مصطفى وأمسك به من يده قبل أن يبدأوا فى إطلاق النار!.

ومرة أخرى أرى أمامى أكوام الرمل الأصفر التى كانت منذ حين. أرتعش .. إلى أين نحن ذاهبون؟ أإلى الموت مسوقون؟ لا .. لا .. أين مصطفي؟ شارع قنطار.. المنزل رقم خمسة عشر. على عتبة المنزل، عائشة بشعرها الأسود المجعد.. إذن أين مصطفي؟ إننا نذهب إلى القرم. إن خلاصنا هناك، فيما وراء أكوام الرمال الصفراء التى أمامنا. عن اليمين

سقائف مستطيلة. السقائف تشبه مخازن الدخان الموجودة في قرى الساد في القرم. ترى هل هؤلاء الناس الذين بين السقائف أسرى أيضاً؟ يشبهو الأسري. أقدامهم ملفوفة بقطع قماش قديم. يعلو التراب وجوههم وبجواره جنود مسلحون. نعم إنهم أيضاً أسري.

نجتاز السقائف. نقترب من أكوام الرمل الأصفر الموجود أمامنا. لك الأسرى الذين في الأمام يختفون قبل الوصول إلى الرمال. وكأن الأرض فتحت فاها وابتلعتهم بهدوء لا أصدق. أنظر باضطراب وحيرة إلى السقائف السابقة. لا أجدها في أماكنها. حتى الأسرى الذين كانوا بينها، اختفوا وقافلة الأسرى التي تتقدمني تقل في عددها ويقصر طابورها. وقبل وصو الأسرى إلى الأكوام الصفراء يختفون!! ماذا أري؟ أهو حلم؟ لماذا كنا أنتظر الخلاص من هذه الأكوام؟ لماذا يختفي هؤلاء الناس من أمام عيني أين مصطفي؟ أين..؟

نحن لم نعبر مدينة ولم نقترب من الأكوام. ويبدو غالباً أننا في السهل الذي نمنا فيه ليلة أمس، ومازلنا فيه. كل ما أراه كان خيالاً. أريد أن أفيق أرتعش الآن.. أنظر مرة أخرى إلى أكوام الرمل الأصفر التي في الأمام مازال الناس حتى الآن يختفون أمام عيني. أخوف ما أخافه الآن هو من هذا. ليس هناك أدنى تغيير في أوجه الناس الذين يتقدمون أمامي وهم يحجلون. ترى هل يريدون أن يغرق الأسرى في الرمال التي في الأمام؛ أتمرد على الذهاب إلى الموت هكذا، دون حس ولا خبر . أليس لهؤلاء الناس أحاسيس؟ كل حياة الانسان المشرف على الغرق في الماء ، تتراءى له أمام عينيه عند لفظه أنفاسه .. وأنا الآن أيضا ، تظهر أمام عيني صورة أخي بكر، يبدو أنني لا أؤمن بأنني مازلت على قيد الحياة إلا لدقائق قليلة قادمة؛ على رأسه طاقية شركسية ضخمة. ينظر إلى عيني ويضحك، وكأنه يريد بنظراته هذه أن يتدفق كل حُبِّه لي من قلبه مباشرة إلى قلبي. آه لو أن هاتين العينين تنظران ضاحكتين إليّ حتى أموت؟ ثم يقول والدي وهو يمسك

بدى بجوار حديقة جامع طوقال:

لا تخف! لا تخف يا بنى !

تأتى من تحت الأرض أنّات عميقة وتدخل مسمعي. يا ربي، أين أنا؟ أرى حفرة واسعة وعميقة بينى وبين أكوام الرمل الصفراء. يبدو قاع الحفرة كجهنم. آلاف الأسرى يتلوون فى الطين، فى الحفرة وهم يئنون. أنزل إلى الحفرة وأختلط بموجة الأسرى القادمين من خلفي. أسير وأنا أدوس على الأسرى الذين يئنون تحت قدمي. ينام أكثرهم فى الوحل دون حراك. أموتى هؤلاء أم مازالوا على قيد الحياة؟ لا أدرى بالضبط كم مشيت بين الأسري؟ إلا أنى أخيراً انهرت على الأرض. رفعت رأسى فإذا بكل مكان مظلم كالسجن. فى داخلى صوت غريب يقول: أين أنا؟ وعلى جوانبى الأربعة من كل اتجاه: أنّات وأنّات، وأنّات.

- ٧ -

روما، فى ١٩٤٦/٧/٢

أخى صادق،

مرَّ عليَّ شهران منذ أن حضرت إلى الأرجنتين، ومع ذلك لم أستطع أن أجلس لأكتب لك خطاباً. وماذا كنت سأكتب؟! إننا نرقد فى السقائف الخشبية منذ شهرين وكما هو حادث فى أوروبا، نبحث بين أسطر الصحف عن الأخبار التى من شأنها أن تبعث فينا بشرى التحرير. أنا فقط التاتارى من بين ناس من مختلف الشعوب. أقرب أصدقائى اثنان: واحد من زاباروجيا، وواحد روسى من أوكرانيا. لا أعرف شيئاً عن ماضيهم، إلاّ أننى أتصور أنهم ناس طيبو القلب جيدو الخلق. واحد منهما عمل فى الشرطة مع الألمان فى جان كوي. وكلاهما منذ علما أننى تتاري، يمتدحان كل مساء فى السقيفات الأمة التترية. لا أدرى عن الآخرين شيئاً، هؤلاء الناس تجمعوا بعد الحرب فى أراضى أمريكا اللاتينية، لإنقاذ أرواحهم، هم من ألوان مختلفة ومن أمم شتي، ولا أجد فى نفسى الرغبة فى استطلاع ماضيهم، منهم الأطباء ومنهم رجال الشرطة ومنهم أساتذة الجامعة ومنهم القتلة. ومع ذلك فإنهم يعيشون خلص بعضهم لبعض متحابين بدرجة كبيرة.

قد تكون تسلمت الخطاب الذى كتبته إليك من السفينة فى ميناء نابولي. هل تصدق أننى بكيت عندما أقلعت السفينة من الميناء، وكأن كل أضواء المدينة تمتد إلى قلبي؟ كان فى داخلى عندما كنت فى أوروبا أمل فى أننا سنعود إلى وطننا. أما الآن فإننى أفكر متى سأعود إلى وطني، وكيف سأعود مثلما كان ماجلان فى سواحل الأطلنطى يبحث عن الطريق إلى الهند وهو بلا حيلة، على مراكب خشبية. هل تذكر عندما كنا نتذكر وطننا ذات مساء ونحن فى حديقة روما، وقلنا يكفى أن يفتحوا لنا الطريق إلى العودة للقرم، وسنعود زاحفين على ركبنا؟ والآن أرى من وراء المحيطات أنك

قريب من الوطن، وأنك سعيد محظوظ. من أجل هذا، فإنى أنتظر منك رسالة تنبها لى أنتظرها بفارغ الصبر. هل تتلقى أخباراً من إخوتنا الذين كانوا معنا فى معسكرات اللاجئين فى ألمانيا؟ أرجو أن تكتب لى هذه الأوضاع بالتفصيل. لم يمرَّ عليَّ يوم إلاّ وفكرت فيهم.. يا إلهي! أين سيختبئون بأطفالهم وعيالهم. لا تثق كثيراً بالأمريكيين. فعلى حسب الأخبار التى تلقيتها من ميونخ، إنهم سلموا للبلاشفة ما يقرب من مائة لاجيء. مغفلون بعض اللاجئين اختبأ فى الكنيسة، وقسم منهم أخذوا الموسى وقطعوا بها شرايين أذرعهم، فقتلوا أنفسهم بأنفسهم. لفّ الخوف والاضطراب كل من فى المعسكرات بعد هذه المأساة. أخاف من حياة مواطنينا الجماعية. أليس من الأفضل أن يختلطوا بلاجئى بولندا والمجر ولتوانيا؟ ظلوا سالمين بعناية الله منْ ألف خطر وخطر. ووقوعهم فى ذلك كله فى أيدى إيفان الدموية كارثة. صوت هذه الأمة وفيها صراخ هؤلاء الشباب الأبرياء لن يختفي. أيمكن أن يختفى كلية يا صادق؟

أتذكر يا صادق قصة الأومباشى مصطفى التى حكيتها لى فى معسكر الأسرى فى أوكرانيا؟ أتذكر أيضاً شاباً يدعى (ولي) وارايناه التراب فى (قورب) وكان دائماً مع مصطفي؟ وكان ولى شاباً فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة. طويل القامة عيناه جوزيتان. وكان متحمساً. ذات مساء كنا فى محطة فيينا ننتظر القطار الذى سينقلنا إلى تيرول: أطفال ونساء وكبار فى السن ومواطنون. العدد حوالى ثمانين شخصاً. كان الأطفال الصغار يبكون بحرقة على صدور أمهاتهم الجائعات اللاتى لا يجدن اللبن فى أثدائهن. كنت خرجت لأنزل السلم الحجرى واستندت إلى عامود التلغراف. وأشعلت سيجارة فإذا بى أسمع صوتاً فى الظلام يقول لي:

– خبئنى بالله عليك يا أخى .

ولما لم أستطع رؤية وجه هذا الذى يتحدث معى فى الظلام سألته:

– هل أنت جندي؟ ومن أين؟

– لست جندياً، أنا عامل. كان الألمان يشغّلوننا فى السكة الحديد. علمت أن فى المحطة تتاراً، فجئت. الروس على وشك دخول فيينا. وهناك من يقول إنهم على مقربة ستين كيلومترا فقط، بالله عليك.

قلت له:

– لا تخف! تعال معي. أخبئك بين أكياس الأمتعة، ولو بحث عنك الألمان لن يستطيعوا العثور عليك وحتى يأتى القطار.

تركنا فيينا عند منتصف الليل. كان الأطفال ينامون، والنساء صامتات، وكبار السن يفكرون. كان هناك سكون. قلق يسيطر على المكان. أما نحن الشباب فقد تجمعنا فى جناح آخر فى القطار. كنا نتكلم بصوت خفيض عن الحرب، وعن القرم، وعن حظ شعبنا وكان (ولي) بجواري. كان فى عينيه الزرقاوين الصغيرتين، امتنان يمكن قراءته فيهما. كان مسروراً من فراره من فيينا إلى درجة لا توصف! وصباحاً، يمر قطارنا من أرض منبسطة يرتفع على جانبها الأيمن جبال الجليد. دخل القطار بعد ذلك إلى نفق، وهو يطلق صفارة حزينة مريرة. وكأن هناك مَنْ يطرده من خلفه. واهتززنا عند الخروج من النفق نتيجة دوى مرعب قادم من تحت الأرض. هدأ القطار من سرعته وكأنه تنين طعنوه فى قلبه ثم توقف. عيون النساء تبرق كالخرز. كل واحدة تنظر إلى الأخري. أعقب الدوى الذى حصل منذ حين، أصوات طائرات وأصوات طلقات مدافع رشاشة. قال واحد منا بصوت عال:

– لا تخافوا!! ادعوا الله! اطرحوا أنفسكم أرضاً!

أصوات الطائرات والمدافع الرشاشة مستمرة. يختلط التراب بالدخان. الأنَّات المرة . صيحات الاستغاثة. وفى الأرض كانت دماء الأمهاء والأطفال تسيل ويختلط بعضها ببعض.

كان (ولى) يجرى من باب إلى باب، ومن نافذة إلى أخرى، يكسر

بقبضتى يديه الزجاج، وكان يصيح فى نفس الوقت قائلا:

- اهربوا! اهربوا!

وبعد قليل كنا فى الخارج، نجرى فى اتجاه النفق. وبين الحين والحين كنت أقيم رأسى وأنظر إلى الطائرات الأمريكية بعلمها النجمى الأبيض وهى تطلق نيرانها المتواصلة على القطار العاجز عن الدفاع والموجود فى الأرض المنبسطة. كنا كلنا نجرى نحو النفق: الأطفال والنساء فى المقدمة. ونحن فى المؤخرة. لكن رصاصة طائشة أصابت «ولى» قبل أن يصل إلى النفق. أصابته فى بطنه. أمسك المسكين بطنه بيديه التى خضبتها الدماء كان يقول وهو يرتعش:

-أصابونى يا آغا! انتهيت!

أمسكته وأحضرته حتى النفق. واأسفاه. لقد أسلم الروح بين الجرحى الذين ينتظرون دورهم فى إجراء العمليات. أسلم روحه فى ممرات المستشفى بعد بضع ساعات. كان مجموع ضحايا كارثة ذلك القطار فى ذلك اليوم ستين منهم اثنا عشر تتارياً من مواطنى كانوا من ضمن هؤلاء الستين.

وفى مقبرة نصرانية مغطاة بالأزهار فى سفح جبل أقرع فى شمال «فوربل» وتحت شجرة من أشجار البلوط، على المرتفع، وبين اثنى عشر قبرا حفر لبعضهم إلى جانب بعض. يرقد ولى فى قبره.

كان ولى قد قال لى فى القطار: إنه من آق مسجد، وإن أخاه الكبير مصطفى قد أدى الخدمة العسكرية فى أوكرانيا قبل الحرب. ألا يمكن أن يكون هو أخا مصطفى الذى عرفته أنت؟

افترض أنك على شطآن وطنك المحبوب . ارفع رأسك وحاول أن ترى صحارى أوكرانيا وسواحل بحار الشمال، وميادين الحرب فى أوروبا. كم قبراً، وكم حفرة، وكم ضحية! ألم يمت هؤلاء يا صادق وهم يتأوهون،

يقولون: «آه يا قرم»؟ ألم تلد أمهاتنا من أجل ذلك الوطن؟ ونحن بدورنا يا صادق متنا فى سبيل هذا الوطن وسنموت فى سبيله. أليس الموت فى سبيل الوطن أشرف شيء لنا؟

رأيت أنك تغيرت قليلا فى ايطاليا، كنت تبدو كالمهموم . لم تقل لى فيم كنت تفكر؟ لماذا ومن أجل من عانيت كل هذا العناء فى أوكرانيا؟ لم يكن الأمر سهلا كما يظهر. أتشعر أنك فاقد القوة. لست مؤمنا بذلك. لا بد أنك تجد فى الدم الذى يسرى فى عروقك القوة اللازمة والاستعداد الضرورى. فقط ابدأ كل عمل تقوم به بقولك:« أنا تركي، لهذا أعيش ولهذا أعمل».

والآن يكفى هذا. اكتب لى سريعا أرجو الله لك الصحة والسعادة.

أخوك محمد

لا أذكر جيدا بالضبط كيف ومتى خرجت من الحفرة أفقت ذات صباح أمام أبواب معسكر فى الرياح الجليدية الفظيعة كانت رطوبة الصباح تعمل عملها فى عظامى . كنا ننتظر ويختبئ بعضنا فى بعض . وبعد ساعة بدأ الجنود الألمان يتجمعون حولنا بأسلحتهم ووجوههم العبوسة. وكانت عيونهم تتفجر شراراً . أما نحن فقد اعتدنا على تلك العيون وتلك الصيحات. حتى الدم والموت، لم يعد من الأشياء التى نأبه بها كثيرا. لم نكن نعلم المكان الذى سيسوقوننا إليه، ولم نكن أيضا فى شغف لمعرفة ذلك، وفجأة إذا بصوت آمر، وإذا بالجنود الشباب يحولون تجاهنا قواعد بنادقهم ثم يهجمون علينا . سقط أغلبنا على الأرض تحت قوة ضربات مؤخرات البنادق، دخل الألمان بيننا . أطلقوا صيحاتهم وأخذوا يكيلون لنا الضربات بمؤخرات بنادقهم هذه . وأخذوا يقسموننا إلى قسمين: مجموعة الضعفاء وهؤلاء كانوا الذين وقعوا أرضا، ومجموعة الأقوياء، وهم الذين لم يقعوا على الأرض، لم أسقط أنا على الأرض، لكن الألمانى الذى أمامى نظر إلى متفحصا من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ونظر إلى لحيتى وقال:

- عجوز! عجوز!

وضمنى إلى مجموعة الضعفاء . شاب فى الثالثة والعشرين، كم يبدو عجوزا؟! ها أنذا فى مجموعة الضعفاء . ولم يكن لهذا أدنى أهمية بالنسبة لى فى ذلك الصباح . لكن ما عانيته فى السقيفة رقم (٥) ، علمنى، بعد ذلك معناه مكثنا فى البرد مقدار ساعة أخرى . كنت ألتفت حولى على أمل أن أرى مصطفى . لكن لم يكن لمصطفى أى وجود . رأيت شخصا أسمر اللون فى مكان قريب من الألمان، خارج الزحام، كانت بذلته الرسمية نظيفة وفى قدميه حذاء وإشارة الصليب الأحمر التى يعلقها فى ذراعه تنبئ عن أنه من الفصيلة الطبية . استولى على الفضول لأنه يشبه الشرقيين، لكنى لا أستطيع الاقتراب منه وبعد قليل جاء هو إلى ناحيتى وقال:

- هل أنت أذربايجاني؟

- لا، أنا قرمى.

صمت برهة، ثم قال:

- وأنا أيضا قرمى، أرمنى.

سألته قائلا:

- إلى أين يأخذوننا يا عزيزى؟

أدار رأسه ناحية السقيفة وقال:

- إلى المعسكر.. مرة أخرى حظكم طيب . قبل شهرين كنا نحن ستين ألف أسير عشنا فى تلك الحفرة شهراً. أما أنتم فلم تمكثوا فيها غير ليلة واحدة، هل من قرمى غيرك هنا؟

- نعم، الأومباشى مصطفى الآق مسجدى فقدته أمس بين الزحام.

- مات..

سألته والخوف يأخذنى..

- كيف؟ هل رأيته؟

– لا، ولكنى خمنت هذا، خرج ثمانية عشر ألف أسير من كيفوجراد، ولم يستطع أن يصل إلى «أومـان» منهم إلا ثمـانيـة آلاف فـقط، أين ذهب الآخرون؟ يقول الألمان إنهم هربوا وأنت تعرف جيدا ماذا حدث لهم.

سمعنا صياح صوت مقطع مبحوح بين الألمان . وقف الألمان. ماجت صفوف الأسرى واختفى الأرمنى بين الألمان. وبعد فترة فتحت أبواب المعسكر ودخلنا بسكون إلى الشتالاك أومان رقم «٢». وضع الألمانى الذى يقف بجانب الباب، فى كفى قطعة خبز حجرية تبنية مثل الطوب وتزن خمسين جراما. وتقدمنا من شارع موحل واسع يقسم سقائف المعسكر الضخم إلى جزأين وكل سقيفة محاطة بالأسلاك الشائكة والروائح العفنة الكريهة تنبعث من السقائف ذات الأبواب المفتوحة. الأنات واضحة. ما ألعن هذه الروائح،! إنها تصيب معدة الإنسان بالغثيان الفظيع. فى تلك الدقائق يتبدل حالى بشكل غريب، كنت أريد أن أقع فى بئر لا قرار له، وأنمحى من الوجود بكل أفكارى.

وأخيرا وصلنا أمام السقيفة رقم «٥» كل مكان محاط بالأسلاك الشائكة فتحت الأبواب ودخلنا إلى الميدان الكائن أمام السقيفة. ومع أن السقيفة كانت خالية تماما، إلا أن الشرطة الأوكرانية –وبأيديها العصي– تقذف بنا فورا إلى الداخل. تقدم واحد منهم بعد نصف ساعة وقرأ علينا تعليمات الشتالاك وهو يضرب سوطه المبروم على حذائه:

«واحد – سيحصل كل أسير يوميا على خمسين جراما من الخبز. اثنان– لن يسمح بالاقتراب أكثر من خمسة أمتار من أسلاك المعسكر، وسيطلق الجنود الألمان النار من فوق الأبراج، على الأسرى الذين سيقتربون من الأسلاك. ثلاثة – لن يسمح لأحد فى السقيفات، بالكلام بعد الساعة السابعة مساءً، كما سيطلق الجنود الألمان النار من الأبراج على السقائف التى يسمع الصوت فيها. أربعة– ممنوع إيقاد النار أو تدخين السجائر فى

الظلام، وسيطلق الجنود الألمان النار من الأبراج على الذين لا ينقادون للأمر.

بعد هذا، فتح رجال الشرطة أبواب السقائف وأدخلونا. لا أستطيع رؤية شيء مطلقا فى الظلام، وبعد قليل، تعودت عيناى على الظلام بالتدريج. فرأيت السرير المغرى ذا الطبقات الخشبية الثلاث. كان هناك نصف متر بين كل طبقة من السرير مع الأخرى. وبين الطابق الثالث وبين سقف السقيفة فراغ نصف متر أيضاً. ولم تكن هناك نوافذ ولم يكن الضوء يدخل إلى السقيفة إلا من الفتحات الموجودة بين الخشب أو بين الفراغات الخشبية.

الطبقات السفلى من الأسرة محجوزة، صعدت أنا إلى الدور الثالث وبعد ساعتين جاءت مجموعة ثانية من الأسرى. وعند ذلك أصبحت السقيفة مزدحمة بشكل جعل الكثير من الأسرى يقفون على أقدامهم بجانب الأبواب حتى الصباح. وجدوا لهؤلاء، فى اليوم التالي مكانا ليستقروا فيه رويدا رويدا، أفقت.. ومن أحاديثهم فهمت أننا الآن فى ميادين ضرب الطوب وتجفيفه وهى أماكن تابعة لمصنع الطوب القديم فى (أومان). الحفرة التى نمنا فيها الليلة الماضية، كانت نتيجة لحفرها قبل الحرب من التراب المستخدم فى صنع طوب البناء.

يقوم الألمان بإيداع الأسرى القادمين إلى معسكر أومان فى هذه الحفرة أولا، ثم بعد ذلك يوزعونهم على السقائف المختلفة مجموعات مجموعات حسب الموقف الصحى لكل أسير. وأسعد هؤلاء الأسرى هم الذين فى السقيفتين رقم اثنين وهما تواجه كل واحدة الأخرى، ذلك لأن الألمان يأخذون من هاتين السقيفتين للخدمة يوميا فيشغلونهم فى رصف الطرق على حافة المدينة. وتلقى عليهم النسوة الأوكرانيات الخبز والسجائر أثناء توجههم لأعمال الرصف.

ثم تبدأ نفس أيامنا المظلمة الكدرة المتشابهة. أحس بالوحدة بقدر ما

أحس بالجوع. وأحس باليأس مع الوحدة. ليس فى السقائف أحد يفهم لغتى وليس فيهم من ينتمى إلى دينى. وكان على أن أتعود - مع الوقت - على الجوع وعلى الوحدة. كنت أنام بالساعات على ظهرى، أنظر من بين الأخشاب إلى السحب الرصاصية وإلى وجه السماء الذى لا لون له. أعدموا ذات ليلة شخصين كانا من كبار السن. لدى الشيوخ غالبا شجاعة تفوق ما لدى الشبان.

من السهل التحدث عن الموت بحبل فى الرقبة والأقدام مرفوعة عن الأرض.. إلا أنى فكرت فى الموت طويلا وأنا أنظر من بين فتحات الخشب. إننى لو اقتربت أكثر من خمسة أمتار من الأسلاك الشائكة.. فماذا سيحدث؟ فى دقائق، رصاصة ألمانية. ارتعشت. ولم أعد أفكر فى الموت مرة أخرى.

دهمنا الشتاء مبكرا، وعلى حين غرة، فذات ليلة جاء برد شديد، الجليد الذى بدأ فى هطوله فى الصباح التالى، تساقط نتفا نتفا طوال اليوم، أرقد وركبتاى تحت ذقنى وأصابع ساقى كانت باردة جدا. والبرد القارس من جانب، والقمل المزعج من جانب، لا يتركون فرصة للإنسان أن تطرف عيناه. لقد كثر القمل جدا إلى درجة كان الأسرى الذين يرقدون فى الأدوار العليا، يأخذون القمل من على أقفيتهم ملء الأكف، ويلقون بها على الأرض. وفى كل يوم موت، وفى كل يوم مشاجرات. الأيام مرعبة وكل يوم أكثر رعبا من اليوم الآخر! وعلى أتفه الأسباب يلتحم الأسرى فى معارك رهيبة فيما بينهم.

وقبيل مساء، انفجرت صيحة فى الظلام:

- .... هذا اليهودى.

وكان هذا الصوت رهيبا جدا للدرجة التى قام كل من فى السقيفة واقفا على قدميه. وقبل أن أفهم مرة أخرى ماذا هناك، إذا بى أسمع صوتا آخر

يقول:

- اضرب! اضرب ابن البغى هذا. اضرب اليهودى.

وسريعا ما تجمع فى الأسفل زحام. الأسرى فى الطبقات العالية يصيحون بلا انقطاع ويصدرون أوامرهم للذين فى الأسفل.

- اقتلوا اليهودى! اذبحوه! اقتلوه! الحرية لروسيا. اليهود دائما هم السبب فى كل ما نعانيه! اقتلوا هذا اليهودى.

وهذا اليهودى هل كان يهوديا حقا؟ لا أدرى. والناس المسعورون المتوحشون الذين فى أسفل كانوا يكيلون الركلات. ويقذفون السباب الذى ما له من نهاية لهذا اليهودى ونسمع أحيانا صوتا رقيقا يتوسل إلى جلاديه، ويقول:

- من فضلكم.. من فضلكم!! أنا مريض.. رقوا لحالى!

لكن القرار كان قد صدر.

- اقتلوا القذر!

- اقتلوا اليهودى!

سحقوا اليهودى تحت الأقدام مقدار نصف ساعة، ثم ألقى خارجا بعد أن رفسوه بالأقدام. ومرة أخرى ساد الصمت السقيفة. ولم نكن نسمع غير أنات عميقة وسعال مخنوق، وفى صباح اليوم التالى وجدوا اليهودى خارج المعسكر، ركبتاه فى صدره، وقد تجمد. مسكين! هل مات من الركل بالأقدام الذى حدث له بالأمس أم أنه تجمد من البرد. لا أدرى. جروا بجثته إلى مكان بوسط الميدان، بقى هناك يومين وليلتين. وكان فى داخل الجليد مثله مثل الجذع. واختفى فى اليوم الثالث.

ينام المرضى فى زاوية من زوايا السقيفة. لا أدرى كيف يعيش هؤلاء الناس خلف الضباب والدخان، وفيم يفكرون؟ دائما صامتون، وقد ركزوا نظرات أعينهم المتسعة، على نقطة ما، وكأن كل كوارث الدنيا قد تجمعت فى

أعينهم. لا يفتحون أفواههم ولا يتحركون. لا تخرج منهم، ولو أنهم لا يفتحون أفواههم ولا يتحركون. أحيانا يخرجون أيديهم من بين أفخاذهم التى صارت كالعصى، وينقلونها إلى أفواههم، ويقرضون، ولعدة ساعات، شيئا، إما قطعة خشب أو عصا أو ربما أيضا قطعة صغيرة من حجر. إنهم أناس عالم آخر، ويعيشون بطريقة أخرى. ومع ذلك فالحياة لا تتركهم فى حالهم يرتاحون، إنما تسحقهم. ذلك أن الموت الذى يتسلل كل ليلة إلى السقيفة، يعوى من بين الأخشاب.

يصارع بعض الناس بعضا، بجوار الموتى، وكأنهم ضباع جائعة. يأخذون ما يجدون على الموتى وعلى رؤوسهم، يسرقونه فيعرونهم، والموتى لا يشعرون بالبرد، لأن سيقانهم لا تبرد مثل سيقاننا. هذه الأجساد لم تعد تصلح لعمل شئ! حتى إن القمل يهرب من على أقفيتهم السوداء وشعرهم القذر.

يحدث أحيانا أن يشعروا بأن مريضا سيموت. فيتجمعون حوله قبل عدة ساعات ينتظرون، مثله، بصبر، يتطلعون إلى عينى المريض يترقبون لحظة موته، بل إن هناك من يتصارعون بجوار هذا المريض المشرف على الموت، يتصارعون من أجل الحصول على ثيابه بعد أن يموت.

الشتاء أيضا ظالم، كالألمان، يلوح أحيانا أن الرياح ستنقطع، لكن البرد مستمر، ولا ينتهى. فى ذلك الوقت أجد القمل أكثر إزعاجا من البرد. أحيانا ألف الأوراق على قدمى وعلى جسدى. إلا أنى أشعر بحركة القمل بين الورق وبين جلدى والقمل أكثر إيذاء من البرد. وأخيرا أخبئ الورق فى الكيس الذى معى. أستجمع نفسى وأخبئ ركبتى تحت لحيتى. أرتعش. أحاول النوم. لكنى لا أستطيعه. قدماى كأنهما عنقودا ثلج. لا أستطيع النوم. استيقظت. إنى راض بالرعشة التى تتولانى. لكن أتمنى أن يغشانى النوم ولو ساعة واحدة. أرضى بالموت إذا استطعت النوم... فقط، أريد أن أنام

أبحث عن طريقة أنوِّم بها نفسى. أوقظ فى مخيلتى مدفأة تحرق ما فيها بصوت مرتفع وأقول لنفسى:

– يا صادق، أنت بجوار هذه المدفأة، أنت لا تبرد. أنت بجوار المدفأة. والبرد لا يصيب من بجوار المدفأة.

يبدو وكأن ما ألقنه لنفسى قد أثر ولو قليلا. أستمر:

– يا صادق، على ظهرك قطعة فرو. البرد لا يصيبك. نم. نم.. أنت بجوار المدفأة أنت لا تنام. على ظهرك فرو. اسحب الفرو على رأسك. ونم.

يبدو لى مصطفى أمام عينى. يجلس مصطفى فى السقيفة رقم (٢) وبجوار المدفأة أجلس أنا أيضا بجوار مصطفى. يمد إلىَّ يده بالخبز. هل هى رؤيا تلك التى أراها؟ لا.. ليست رؤيا. أنام.. ألتفت إلى يمينى. أين مصطفى؟ كل جسدى كالجليد.. لا أستطيع النوم . ليس على ظهرى غير قميص ممزق مقمل. لماذا أخدع نفسى؟ أريد أن أخلع قميصى وألف به قدمى. إذا لففت قدمى سيبقى ظهرى عاريا. أفكر فى مصطفى مرة أخرى. أين تراه؟ هل مات؟ هل مازال حيا؟ ربما هو الآن فى إحدى السقائف يفكر فىّ لأننى أفكر فيه. لابد أن يكون حيا إذا لم يكونوا قتلوه. ربما أخذه الألمان ووضعوه فى السقيفة رقم (٢) فقد كان أقوى منى جسدا وما دمت أنا قد استطعت تحمل الجوع حتى الآن، فلابد أنه هو أيضا حى.. فى السقيفة رقم (٢).. لماذا لم أكن أنا فى السقيفة رقم (٢)؟ متى سأتخلص من جهنم هذه؟ أنات عميقة تأتى إلينا من الزاوية التى ينام فيها المرضى. آه من هذا الأنين! إذا لم أستطع غداً الصعود إلى الطابق الثالث، والخمسون جراما من الخبز فى يدى، فسأذهب وأنام فى تلك الزاوية. يا ربى! لا تمتنى بهذا الشكل! تعوى الرياح فى الخارج. يبدو أن النوم ألم بى يبدو أننى نمت . استيقظت. توقفت الرياح. كان هناك صمت عميق فى السقيفة. يصبح الصباح.. أخذت الرياح الأخشاب التى فوق رأسى، ففتحت بذلك فتحة كبيرة واضحة. عندما

وقفت على قدمى وجدت رأسى خارج السقيفة. كل مكان فى الخارج أبيض شديد البياض. أرى آثار أقدام فى الطريق الذى يقطع السقيفة. من هذا الذى يتجول فى المعسكر مبكراً هكذا؟ إما شرطى أو طباخ. دخان أسود يتلوى من أنبوبة المدفأة التى تخرج من خشب لصق السقيفة رقم (٢) وتسقط من على أسطح السقيفة على الطريق الأبيض. مازال الوقت مبكرا. الجو ساكن. لا أحد يرانى. رأسى خارج سطح السقيفة. لم أنظر فى أى وقت قط من أوقات الأسر. من قريب إلى هذا الحد، إلى الحرية. أفكر قائلا: «ماذا لو أهرب» يداى ترتعشان وركبتاى. يبدو الارتعاش وكأنه لن يتوقف. السقيفة رقم (٢) قريبة.. كل جسدى يريد الخروج مثل رأسى إلى خارج السقيفة.

– لو أهرب!

صوت من داخلى، صوت شبيه بصوتى، يجيب:

– اهرب!

– لو رأونى!

– لا أحد يرى! اهرب.

– وإذا قبضوا علىّ؟

– الفرصة سانحة، اهرب.

– إلى أين؟

– إلى السقيفة رقم (٢) .. فلعلك تجد مصطفى هناك.

– مازال الوقت مبكراً. الجنود الألمان ليسوا موجودين داخل المعسكر. أمام كل باب سقيفة يقف شرطى أوكرانى. إنك تعرف لغتهم. تتوسل إليهم وتستعطفهم. ابك أمامهم قل له إن أخى فى السقيفة. يفهم. ولم لا يفهم؟ تقول له إنك طباخ. تؤلف أكذوبة لابد منْ وجود حل. ماذا هناك في هذه السقيفة غير الموت؟ اهرب!.

أنا فى سقف السقيفة. اتخذت قرارى. ولم يعد هناك تراجع. أقفز من السقف إلى الطريق. يقف شرطى أمام السقيفة رقم (٥). ترى هل رآنى؟ ألقيم ظهرى وأتقدم. بلغ قلبى حلقومى وأنا أمر من جانب الشرطى. لكنه لا يتكلم. أمر من جانبه، وأسير. أفرح لأن الشرطى لم يتكلم. حتى قدماى لا ترتعشان. أمام كل سقيفة جندى. لكن لا أحد منهم يهتم بى. يبدو أنهم يظنون أنى طباخ أو واحد من الوحدة الطبية. والآن. أقترب من السقيفة رقم (٢) يبدأ الارتعاش فى تملكى. شرطى أمام الباب. ياقة المعطف الثقيل الذى يرتديه مرفوعة، وأذنا غطاء رأسه مربوطتان جيداً تحت ذقنه. فى يده عصاة، وفى شفتيه سيجارة. أقفز فى المكان الذى هو به. ينظر إلىّ. كنت فى خوف عندما اقتربت منه، وأى خوف. ماذا لو أرجع إلى السقيفة رقم (٥)؟ لا، لا.. فإذا فهم رجال الشرطة أننى هربت من الفتحة سيقتلوننى ضربا.. أتقدم. ماذا يجب على أن أقول؟ لابد من إيجاد كذبة. الشرطى يرى أننى أتجه إليه. ينظر إلى وهو يركز نظراته علىّ. ماذا يجب أن أقول؟ إنى خائف.

أنظر إلى الميدان وإلى أمام السقيفة رقم (٢) المحاطة بالأسلاك الشائكة لا أستطيع رؤية آثار أقدام. يأتى طنين من داخل السقيفة أشبه بطنين خلية النحل. أقترب أنا من الشرطى، أبحث عن آثار رحمة قد تتجلى فى عينيه. وجهه الأحمر – من غير شعر ظاهر – يبدو مثل وجه الدمية. يخرج من فتحتى أنفه بخاراً يختلط بدخان السيجارة. وأنا أنظر بصمت إلى وجهه. وأبتسم كالأبله وفجأة يتفل السيجارة الموجودة بين شفتيه، يتفلها أرضاً ويقترب منى:

– تىٔ قودىٔ كالوبجيك؟

أسكت.. كلمة كالوبجيك أعطتنى الأمل. ماذا يجب أن أقول؟ أأقول كذباً؟ لا. إنه يبدو إنساناً طيباً، إنه هو أيضاً يحمل قلباً. يفهمنى. أتوسل إليه

وأقول:

- أنا.. أنا.. من السقيفة رقم (٥)، وأخى الكبير فى هذه السقيفة.. من فضلك، من فضلك أيها الشرطى المحترم.

لا يجيب، يضحك بطريقة قبيحة. لكنى أريد أن أنكفئ على قدميه وأتوسل إليه أكثر. الشرطى يخرج إلى الطريق، ويناديني:

- أيويدي صومنوى كالوبجيك، بريدى.

فأذهب إليه هو فى المقدمة وأنا خلفه ونتجه نحو أبواب الشتالاك. إلى أين يأخذنى. لا أدرى، حتى التفكير لا يشغلنى. أسير خلفه وأنا أجر قدمى المربوطتين بقطع القماش.. نقترب من أبواب المعسكر الكبيرة المحاطة بالأسلاك الشائكة. يقف الديدبان الألمانى المسلح أمام الباب، مرفوع القامة، يذهب الشرطى إلى الجندي ويقول له بعض أشياء، يشرح له أمرا، مستخدما فى حديثه إشارات يده. ثم يستدعينى بجانبه. يفتح الجندى الديدبان الأبواب، ويتركنا نخرج. خرجنا الآن من الشتالاك ننحرف إلى اليمين. نتجه إلى منزل صغير خشبى واطئ مربع الشكل. إلى أين يسوقنى هذا؟ ليذهب بى أينما يذهب، فلن يجد مكاناً يذهب بى إليه أكثر من السقيفة رقم (٥) ليس هناك من صوت قط. وكلما اقتربنا من المنزل الصغير أشعر بالخوف. نحن الآن أمام هذا المنزل الصغير. أدعو الله من أعماقى قائلا: اللهم امنحنى أنا عبدك الضعيف القوة والشجاعة.

ندخل غرفة مربعة. ستة سرائر مغطاة ببطاطين سوداء، أمام جدرانين فى الوسط مدفأة. ومنضدة طويلة، قريبة من النافذة. وعلى المنضدة يجلس خمسة جنود يلعبون أوراق النرد والكوتشينة وبينهم واحد يرتدى البذلة العسكرية الألمانية وظهره متجه لى. يذهب الشرطى الذى أحضرنى إلى هذا الشخص وأنا واقف على قدمى بجوار الباب. صوب رجال الشرطة الأوكرانية الذين يجلسون على المنضدة نظراتهم جميعا ومرة واحدة نحوى

وكأنهم إنسان واحد. بينما يتحدث الشرطى إلى الرجل ذى البزة الرسمية، يقول واحد منهم لى:

- هيا استعد يافديا فالجاويش سيكلفك بعمل.

يضحك الجميع مرة واحدة لماذا؟ لا أعرف بعد. ثم يقف واحد منهم ويتجه نحوى. إنه شاب فى التاسعة عشرة من عمره أو العشرين. وجهه يذكر بفتيات القرية. كم كان جميلاً. عيناه خضراوان تحيطهما هالة تميل إلى الحمرة. ينظر كالثعبان. يلتفت الشرطى الشاب إلى الرجل ذى البزة الرسمية ويسأله:

- كم مرة يا هر فيلد فيبل؟

فيقول له:

- هل يتحمل خمساً وعشرين؟

يمسك الشرطى الشاب بلحم أردافى، ويضغط عليها، ويقول:

- إنه يتحمل. إنها مليئة باللحم.

لم أفهم بعدُ معنى هذا. أنظر إلى الشرطى الذى أتى بى إلى هنا بنظرات ولد ينظر إلى والده عساه أن ينقذنى. ينهض رجال الشرطة الذين على المائدة ويتجهون ببطء إلى أسرتهم: يجلس الرجل الذى يرتدى الملابس الرسمية صامتاً، ساكناً، وبعد قليل يدير رقبته النحيلة الطويلة التى تخرج من ياقته البيضاء كأنها رقبة ضفدعة. وعندما ينظر إلى وجهى. أحس فى قلبى بكل المعانى الرهيبة التى تشعها عيناه فأرتعش. ينطلق فجأة من مكانه. وفى عدة ثوان، يُخرج من شفتيه المزبدتين صياحاً وأصواتاً مختلفة لا أدرى كنهها.

الشرطى الشاب يركلنى بقدمه عدة ركلات فيدفعنى إلى ناحية المائدة. والألمانى ينبح بلا توقف وكأنه كلب مسعور. وصلت عيناه وكل وجهه إلى درجة مخيفة جعلتنى أفكر قائلا: «إن رغبتى فى التنقل من سقيفة إلى سقيفة

أخرى شئ صغير». لكن يبدو أننى ولابد قد ارتكبت جرماً عظيماً أكبر مما فعلت. يغضب الألمانى فجأة ويسكت فجأة. يذهب ويجلس على حافة سرير. يشعل سيجارة. بينما يتناول الشرطى الشاب، عصا حديدية من على المائدة. يركلنى مرة أخرى فى ظهرى ويصيح قائلاً:

- اخلع بنطلونك يا خنزير!

وفى لحظة أحس كأننى أخاف. لكنى وسريعاً أحس بقوة فى يدى وفى ساقى لا أدرى من أين جاءتنى. لن أطلب الصفح. فليذبحنى وليقتلنى، وليفعل بى ما يحلو له، لكنى لن أتوسل إليه. ومع كل أمر يصدره لى الشرطى الشاب كان يوجه إلىّ لكمة أو ركلة.

- اقترب من المنضدة!

أرتعش. لكن مازلت أحس بتلك القوة، أحسها فى قدمى، أنزل بنطالى حتى ركبتى وأتمدد على وجهى على المنضدة. أضغط على طرف المنضدة حتى أكاد أنزعها أو هكذا أتصور. إنى أخاف، لكنى لا أخاف من الضرب ولا من الموت، لكنى أخاف أن أموت بين هؤلاء الناس. أريد بعد هذا الضرب المبرح أن أذهب إلى السقيفة رقم (٥) وأسلم الروح بين المرضى، فالموت بينهم سهل. ويخيل إلىّ أنه سيكون مريحاً. عيناى مغلقتان أرى الذين ينازعون الموت فى زاوية السقيفة رقم (٥) أريد أن أختلط بهم وأن أموت معهم إنهم عباد الله السعداء.. لماذا لست بينهم؟ أريد أن يبدأ الشرطى ضربه وعقابه. أريد سرعة تنفيذ هذا العقاب البدنى.

وفجأة، أسمع صوتاً، واحتراقاً فى لحمى، شئ كالنار.

- واااحد.

إنه يعد مع كل ضربة، بصوت منتزع من قلب ظالم.

- ثلاثة... خمسة.... ستة..

أما أنا فأدعو الله فى نفسى قائلاً:

- يا ربى! يا ربى! يا ربى! أعطنى الشجاعة.

أضغط على حافة المنضدة ويداى كالكماشة.. ولا أدرى إلى أى عدد وصل فى عده وأخيراً صاح قائلاً:

- انهض!

سابت يداى وانهرت على الأرض وتكومت عليها.

أثناء انهيارى من على المنضدة أمسكت بساقها لكى أقيم ظهرى. فإذا بى أشعر وكأن برقاً قد برق بين عينى. يبدو أننى أغشيت لفترة ما. ومن خلف ستارة من الضباب كنت أرى عينى الخائن تقدحان شرراً. تناهى إلى سمعى صوت من رجال الشرطة الذين يجلسون على الأسرَّة، وهو يقول:

- دافولنو فديا! أوبيوش.. أوبيوش..

نهض الألمانى على قدميه وهو يقول أشياء لرجال الشرطة، فأجابوه جميعاً فى نفس واحد. قام الجاويش، نظر إلى حزامه وبه مسدس وكان معلقاً على الشماعة ثم أخذه، لبسه، وخرج. أمرنى رجال الشرطة بأن أتبع الجاويش. خرجت من الغرفة وأنا أرتعش. الألمانى فى المقدمة وأنا خلفه. سرنا فى شارع ضيق أزيل الجليد منه. الألمانى لا ينبس بكلمة، ولا يبالى بى. سألت نفسى قائلاً، ترى هل نسى أننى أسير خلفه؟ أسقط بين الحين والحين على ركبتى فأنهار على الأرض وأنا أمسك ببنطالى حتى لا يلامس جروحى، وأتقدم كالكلب فى أثر الألمانى. لم أكن أعلم إلى أين نسير. كان واضحا أننا لسنا متجهين إلى المعسكر. لقد أصبح الشتالاك بعيداً بدرجة واضحة. كنا نتقدم من حافة الحفرة الهائلة. كنت أظن أن الألمانى سيقتلنى عند الحفرة. كان هذا الشعور ينتابنى كلما وضع يده إلى الخلف وأمسك بمسدسه. لكنى أيضا لم أكن خائفاً لقد كنت أرى الموت حقيراً حقيراً حتى إننى لم أفكر فى كيفية موتى.

تركنا الآن الحفرة إلى يسارنا، ونتقدم إلى مبنى سليم. هنا مقر قيادة

الشتالاك الألمان: الجنود الشبان، يذهبون ويجيئون أمام المبنى، أبدأ فى التخوف أيأخذونك إلى القيادة؟ نسير من جوار الجنود. أسمع قهقهاتهم خلفى. أصوات طلقات بنادق تأتى من خلف المبنى. أللموت يأخذنى هذا الألمانى؟ لا. إننا ننعطف إلى الشمال ونتقدم إلى مبنى آخر ذى منظر منتظم. مازالت أصوات البنادق تصدر من خلف مبني القيادة لكنى أحس عندما نقترب من المبنى الآخر أننى أتخلص من الموت. مبنى عال مربع، أسمنتى، فخم. والهدوء يلفه. هدوء يشغل قلب الإنسان. هذا المبنى بلا نوافذ وبلا مدخنة لكنه بسقف، وله باب حديدى ضخم. يبدو أنه بنى لسكن الإنسان. أخاف من الدخول فيه لكننا لم ندخله، الألمانى يسير بجانب المبنى. يقف لحظة ثم ينزل على السلم الحجرى المؤدى إلى طابق المبنى الأرضى، أنظر إلى الألمانى وكأنى طفل يتيم. أما هو، فدائماً خشن، دائماً فظيع. نسمع صرير الباب الحديدى. أنهار على الأرض تحت شئ ثقيل سقط على قفاى وعندما أفقت وفتحت عينى وجدت نفسى فى سجن. انتظرت وأنا أحدث نفسى قائلاً: لعل الألمانى يأتى ويفتح باب السجن. مرت الساعات الطوال ولا أحد يأتى. أخذت رأسى بين كفى ورحت أفكر فى السجن ونقط الماء المتساقطة من سقفه، والرطوبة. أقول لنفسى.. هذه هى النهاية فلم يعد خلاص من هذا المكان، وفى لحظة إذا بأمى تمثل أمام عينى وهى تلبس رداءها الطويل الممتد من تحت فكها إلى كعب ساقيها وتحمل سيفاً فى يدها. ثم إذا بردائها ووجهها أيضاً يتحولان إلى اللون الأبيض الساطع البياض، ثم تختفى رويداً رويداً من أمامى. أهى رؤيا التى رأيتها؟ لا أدرى. وبعد هذا لم أفكر لا فى أمى ولا فى وطنى ولا فى مصطفى. لقد تحكم البرد والجوع فى كل كيانى وأثر فى نخاعى ومخى. كنت أرى مدفأة تحترق بصوت مسموع وعلى المدفأة إبريق وكنت أسمع صوت الماء المغلى فى الإبريق، ويستمر هذا ساعات وكنت فى أوقات مثل هذه الأوقات، لا أريد أن

يأتي أحد ناحيتي ولا أن يزعجني. أي قوة خفية تلك التي كانت تقيمني تلك الأيام في ذلك السجن؟ ما هي؟ أكان هناك بالفعل مدفأة وعليها إبريق فيه ماء يغلي؟.. كم يوماً مكثتها في السجن لا أعلم. وفي يوم من الأيام سمعت صرير الباب، انفتح. وإذا بي أرى أمامي الألماني الفظيع. صب من بين أسنانه صوتاً يشبه الصوت الذي يخرج من حديد مبرود:

ـ هير ـ را ـ وس!

اعتدلت، فكرر قوله:

ـ هيراوس!

أإلى الحياة؟ أإلى الموت؟ وإلى الباب. وصعدت السلم الحجري. هو في المقدمة وأنا في المؤخرة. كنا نتجه نحو المعسكر. لا أستطيع أن أتذكر كيف وأين تركني الجاويش الألماني. وجدت نفسي في السقيفة رقم (٥)، وفي زاوية المرضى، وسريعاً رقدت. عشر ساعات تلك التي مرت على أم أيام لم أكن أدري. وذات يوم جاء إلى السقيفة عدة أشخاص وأخذوا يتجولون فترة بين المرضى. ثم وقفوا بجانبي. أيقظوني ووضعوني على نقالة. أحدهم انحنى فوقي وقال لي شيئاً في أذني. ولم أفهم ما قاله. لكني أيضاً لم أعترض. أخرجوني من السقيفة على نقالة. لا أدري إلى أين حملوني ولا أدري شيئاً عن الزمن بعد ذلك. أفقت فوجدت نفسي في غرفة دافئة. سريرها عليه بطانية وللغرفة نافذة، وفي الغرفة مدفأة، ظننت أنني أحلم عندما فتحت عيني ورأيت هذا. مازالت جدران السجن خلف ستارة ضبابية ومازالت نقط الماء تسقط من سقف غرفة السجن وأسمع صوتها. وفجأة، دخل أحدهم إلى الداخل بعد أن انفتح الباب، وصاح بي قائلاً:

ـ يا ولد، إني أبحث عنك في السقائف منذ يومين.

وعندما اقترب بجواري، سألني بصوت أكثر انخفاضاً:

ـ ماذا فعلت؟ أي حال هذا الذي ألم بك؟

نظر إلى وجهى بدقة. إنى رأيت هذا الوجه وهذين العينين فى مكان ما. ولكن أين؟ يواصل كلامه:

– أخبرنى أحد رجال الشرطة بأن الألمانى حبسك. أعلم أنك قاسيت من التعذيب كثيراً. لكن لا عليك. لقد أنقذت نفسك.

أخذ «بقجة» من على الرف، وهى كيس به ملابس وألقاها على السرير وقال:

– اخلع ملابسك. والبس هذه الملابس. لا تقلق. واضح أنك لم تعرفنى بعد. أنا الأرمنى الذى تحدث معك صباحاً عند خروجنا من الحفرة، والآن: هل تذكرت؟ اشرب الشاى وكل الخبز، ابق معى يومين أو ثلاثة أيام، سأجعلك تقف على قدميك. ثم – وفوق ذلك – سأعطى لك عملاً تعمل وبذلك تنقذ نفسك. أيمكن أن أرجو لك الموت وأنت قرمى؟ قلت مشتبهاً فى حديثه:

– كيف هو العمل؟

– لا تشغل بالك. فأنا طبيب. لكن طبابتى هنا تقتصر على المرور على كل سقيفة وأفرز الموتى من بين المرضى، تأخذ أنت الموتى وتحملهم إلى الحفرة. وتحصل فى مقابل هذا العمل على خمسين جراماً من الخبز. وحصتك أنت خمسين جراماً. يعنى المجموع مائة جرام. هل هذا سيىء؟

أشعل سيجارة وخرج، وبقيت بمفردى فى الغرفة. فكرت فى الأرمنى طويلاً. كنت أريد أن يتكلم معى مدة أطول وأن يتحدث معى عن القرم. لكنه لم يتكلم. وذات مساء، وقبل أن يشد بطانيته على رأسه قال:

– غداً صباحاً، ستقوم الشرطة بحمل عشرة أسرى خارج المعسكر إلى المستشفى فاذهب أنت أيضاً معهم. فى المستشفى أمراض كثيرة، تيفوس وسل ودوزنتاريا. الناس يموتون كأنهم البعوض، والعمل هناك كثير.

أردت أن أسأله بعض الأسئلة، إلا أنه سحب بطانيته فوق رأسه ونام.

وفى اليوم التالى فى الصباح الباكر ذهبنا إلى المستشفى. مبنى مربع

من طابقين، كان فى الأصل مدرسة وهو الآن محاط بالأسلاك الشائكة. فى فنائه تتناثر نقالات ملطخة بالدماء. وقف الشرطى الذى أتى بنا إلى المستشفى. وقف بجانب الباب وصاح قائلاً:

ـ هيا يا أبطال! إلى النقالات. سأعطى كل واحد منكم مائة جرام خبز، هذا المساء، وكذلك الحساء، هيا إلى النقالات.. هيا إلى النقالات.

وأبطالنا هؤلاء فرحوا واشتد سرورهم إلى حد لا يتصور. ينقلون الموتى من أبواب المستشفى على النقالات. الموتى كلهم تقريباً حفاة. وبلا قمصان. أفواههم مفتوحة تتدلى أيديهم الصفراء من على أطراف رسوغهم، تتدلى من النقالات. يخرج هؤلاء الحمالون بهدوء من الأبواب نحو أطراف غابة قريبة من المستشفى وبهدوء، ندخل إلى الداخل، يقوم أسير من الوحدة الطبية بريـنا الطريق، تصدر من الغرف أنات المرضى، مؤلمة. نفتح أحد الأبواب، غرفة مربعة شديدة البرودة فيها حوالى ثمانية أو عشرة أشخاص موتى.. وأسير من الوحدة الطبية يأمرنا:

ـ هيا، بسرعة! نظفوا هؤلاء وعودوا سراعاً.

وفى أطراف الغابة، حفر عميقة حفرت حديثاً، وهناك بعيداً عنا، فرقة من الأسرى مشغولة بحفر الحفر، نرمى الموتى فى الحفرة كأننا نطرح قطعاً من الخشب أو الحطب. ثم نعود إلى المستشفى. لا أحد يتكلم. والسماء منخفضة ولا لون لها. وكأن الأرض والسماء يقيمان نفس المأتم. الدنيا صامتة، صماء، مع من تسير الحياة؟ أمع الموتى أم مع الذين يحملون الموتى إلى القبور؟

نمنا فى تلك الليلة فى سقيفة صغيرة فى حوش المستشفى، وفى اليوم التالى قمنا أيضاً بنقل الموتى إلى حفر القبور. واستمر ذلك حتى المساء. وعند المساء قال لنا رجال الشرطة:

ـ إن الموتى يقلون عدداً، وإن النقالين أكثر من الحاجة لذلك سيرجع

أكثرنا إلى الشتالاك. بقيت أنا. وكان يبدو أن هناك ما لم أره بعد!

بعد أسبوع كامل دخلنا الغرفة التى يصفون فيها الموتى. كان فيها حوالى ثمانية أو عشرة من الموتى. أكثرهم متروك على وجهه أرضاً. اثنان منهم عاريان تماماً وبجوار الباب كان ميت طويل القامة، كبير الرأس، ملتح، راقد على ظهره، ولم أكن أستطيع تبين ملامحه لأن شعره الأسود الطويل قد غطى وجهه تماماً. كان ذلك الميت يرقد فى وضع غريب قبضتا يديه مضغوطتان، ويبدو وكأن قوة تدب فى جسده الميت. كان هذا الميت يختلف كل الاختلاف عن العديد من الموتى الذين رأيتهم. لم يكن مثل أحدهم قط. أخذته بين ذراعى، وبرفق بالغ، ودون إيذاء أى موضع فى جسده الميت أردت أن أرقده على النقالة.

انحنيت على ركبتى. وعندما مددت يدى إلى شعره لأكشف عن وجهه، إذا بالعرق الذى يشبه الثلج برودة، قد تجمع فى جبهتى. ظهر وجه محبوب أمام عينى، واختفى وجه يشبهه. ترى أيكون هو؟ رفعت شعره فظهر وجهه. استطعت أن أقول:

- يا إلهى!

وبعد أن أفقت، قبلته من خديه اللذين صارا كالجليد، قبلته وقبلته، وضعت رأسي بجوار رأسه، ثم تهت أنا أيضاً فى ظلام عميق مثل مصطفى.

- مصطفى! مصطفى! افتح عينيك يا مصطفى. لماذا لا تتحرك شفتاك يا مصطفى؟!

ورفعت رأسى ببطء. كان زميلى النقال ينظر إلى مشفقاً متألماً. ثم سمعنا صوت أسير من الوحدة الطبية، من خلف الباب، يقول:

- نظفوا! نظفوا! هيا، أسرعوا!

دخل نقالون آخرون إلى الغرفة. حملنا جثة مصطفى برفق على النقالة وحملنا النقالة زميلى من الأمام وأنا من الخلف . كانت السماء منخفضة

متكدرة رمادية. ونتف الثلج المتساقط يبدو كأنه يربط الأرض بالسماء. لم أكن أستطيع أن أبعد عينى الدامعتين عن وجه مصطفى والجليد كأنه النحل المتساقط على الزهرة. يتساقط على شعر مصطفى الأسود الطويل. وعلى لحيته كان كل توتر فى وجهه قد راح. وبدا الحب الذى يكنه لنا. كأنه خرج من داخله وطفح على وجهه، وبالحب البادى فى وجهه قد ذهب عنى.. بعيداً.. بعيداً.. كان يبدو سعيداً وكأنه يعرف أنه متوجه إلى عالم عثمان وخليل وجودت.

ـ مصطفى! مصطفى! لو أضع رأسى بجانب رأسك؟ لو أذهب معك إلى عالمك.

وإذا بصوت من داخلى يقول:

ـ تشجع يا صادق!

أحس أن هذا الصوت هو صوت مصطفى أكثر مما هو صوتى.

يهبط على المكان مساء ثقيل أليم. نقترب من الحفرة. أتطلع لآخر مرة إلى ابن عزيز من أبناء وطنى.

ـ الوداع، يا مصطفى، الوداع..

كنت أشعر، ونحن ننزله إلى الحفرة، وكأنه يسحب بيديه البيضاوين كل وجودى، كل روحى ونفسى.

ـ يا إلهى! اللهم كن فى عون عبدك صادق.

ألقيه الآن فى الحفرة. والآن. جسد مصطفى يشبه أجساد الآخرين فى هذه الحفرة التى تضم عدة أجساد موتى. أخرج من جيبى تلك الرقية التى تحوى شعر عائشة العزيزة على نفسه، وكان قد أسلمها لى أمانة عندما كنا فى طريق كيوفجراد ـ أومان، وأضعها على صدره.. ثم.. يبتعد بعضنا عن بعض.

فى صباح اليوم التالى ألقيت نظرة إلى ناحية الغابة. أهال الأسرى

التراب على الحفرة التى أنزلنا فيها الأومباشى مصطفى الآق مسجدى، مساء أمس، أمطرت السماء طوال ليلة أمس، ثلجاً، كل المكان يخلو من العمار.. ومن الأصوات.

طلبت من الشرطى فى نفس اليوم إعادتى إلى المعسكر، وافق. فكرت كثيراً وطوال الطريق، طريق كيوفجراد ـ أومان، فى خليل وجودت وعثمان وأنور. لم أكن أسمع أحياناً بعض أشياء كان يقولها الشرطى لى. وعندما اقتربنا من المعسكر اتضح لى فجأة: السقيفة رقم خمسة بكل بشاعتها. ولكن ماذا بيدى أن أفعله. إن المكتوب على الجبين لابد أن تراه العين.

دخلنا المعسكر. نحن الآن فى الطريق الواسع الذى يفصل السقائف إلى قسمين. أحشر المائة جرام من الخبز التى أخذتها فى المستشفى فى الكيس وأحشر الكيس تحت إبطى . وها نحن نتقدم. أنا فى الأمام، والشرطى خلفى. وقبل أن نصل إلى السقيفة رقم اثنين سار الشرطى بجانبى وأمسكنى من يدى، وقال:

ـ تعال معى.

ـ إلى أين؟

ـ إلى السقيفة رقم «٢».

لا أصدق الشرطى. ظننت أنه سيأخذنى إلى الألمانى، وسيجعله يضربنى علقة. وفى هذه الأثناء قال الشرطى الواقف أمام السقيفة رقم «٢»:

ـ ألا ترى رقم اثنين؟ أيها العامل المغفل.

الباب يفتح، وأدخل إلى ساحة السقيفة رقم اثنين، وبعد قليل، ألتفت لأرى الشرطى الذى أحضرنى. إنه يتجه بخطى واسعة نحو أبواب المعتقل..

-٨-

روما، فى ١٩٤٦/٧/٢٢.

أخى صادق،

لا أعلم عنك شيئا منذ كثير، أكتب إليك ثالث خطاباتى، وسأغضب كثيراً إذا لم ترسل لى رسالة جوابية على مكتوبى هذا. أحيانا يصيبنى القلق عندما أفكر قائلا: ترى هل ترك روما؟ هل أنت فى روما؟ لماذا لا تكتب لى شيئا، ولو سطرين؟! يبدو أن خطابى هذا سيكون آخر خطاب أكتبه إليك فى معسكر اللاجئين، فقسم من اللاجئين وجد عملاً فى شئون الغابات، وقسم منهم وجد عملاً فى مصانع المدينة. أنوى ترك المعسكر خلال أسبوع أو أسبوعين من الآن، كما قلت لك فى خطابى قبل الماضى، أنوى تركه أنا مع اثنين روسيين زارارو - جياليين والإقامة فى مزرعة. أجرنا نحن الثلاثة هذه المزرعة قبل شهر. من يدرى منذ متى وهى لا تجد من يفلحها؟ فيها منزل لا سقف له. يبدو أنه طار وأصبح كومة من الأحجار. هذه المزرعة الجافة يبدو أنها استوت تحت الشمس الحارقة منذ أعوام، لذا فلابد أننا لا نتوقع حياة مريحة. عندما أنظر إلى هذه الأرض الفقيرة أفكر فى أرضنا. يخيل إلى أن بساتيننا وحدائقنا ومياهنا ومراعينا، جنة من الجنان، لكن الخيال لا يشبع بطناً. مأساتنا عظيمة، أعرف هذا، ولابد من رؤية الحياة. واستقبالها بلا خوف، أليس كذلك ياصادق؟ فكرنا كثيراً واتخذنا القرار بعد أسبوعين وبعون الله، سنشمر عن سواعدنا ونبدأ العمل فى تلك المزرعة. إن صعوبات جمة تنتظرنا ومع ذلك سنكون فى سعادة الأطفال. سنبدأ أولا فى ترميم جدران المنزل وعمل سقفه. وعندما نستقر فى المنزل سننظف الأحجار والأرض المحيطة به. وفى الأسبوع الثانى سنشتغل فى أرض الرجل الذى أجرنا منه هذه المزرعة. وبالنقود التى سنكسبها سنشترى ما يلزم من حيوان. هكذا خططنا. وإذا سارت الأمور كما تصورنا فسيكون لى منزل

أبيض داخل حديقة جميلة، منزل يناظر منزلي في القرم الذي لا يفارق خيالي. وفي رسائلي التالية سأتحدث إليك حديثاً أكثر تفصيلاً عن محاولتنا هذه.

كيف حالك؟ وكيف حال الأخوة في ألمانيا؟ ترى هل مازالوا حتى الآن في معسكرات اللاجئين؟ لن أنسى أبداً ذلك المعسكر الذي في تيرول بجبال الألب. كم كانت الأيام سيئة. أما زال هؤلاء المساكين يعيشون في خوف حتى الآن؟ لم أقل لك ونحن في روما عنه. لذا أكتب الآن لك.

كان ذلك في اليوم العاشر من شهر مايو ١٩٤٥، في ذلك الصباح، في طريق قريب من حدود سويسرا قام الأمريكيون بشحننا في سيارات نقل امتلأت بنا ونقلونا إلى المعسكر وعندما رأينا الأعلام الحمراء المتماوجة على أبواب المعسكر أحسست وكأن لكمة سددت إلى حلقي. سمعنا في الطريق أشياء سيئة عن الأمريكان لكننا لم نصدق. أما الآن، فإننا نرى الأعلام البلشفية تموج على الأبواب جنباً إلى جنب مع الأعلام الأمريكية. نعم خفنا لكن خوفنا هذا لم يكن يفهمه الأمريكان. كانوا يقولون إن الأوامر تقضي بذهابكم إلى المعسكر. ودخلنا المعسكر. تقدمنا بين الأعلام ووصلنا إلى ميدان. تجمع جمع كبير في وسط الميدان. قام زنجيان أمريكيان بإحضار منضدة ووضعاها على الأرض بالقرب من الزحام. يبدو وكأن شيئاً سيحدث ولكن ما هو؟ لا أحد يعرف. بعد قليل صعد على المنضدة ضابط أمريكي شاب وألقى خطبة ثم نزل ثم صعد بعده على المنضدة ضابط روسي عريض المنكبين يلبس بذلة رسمية مطرزة. ثم بعض أصوات أغلبها أصوات نساء تأتي من هنا وهناك. بدأ الضابط حديثه، وكأنه لم يسمع شيئاً، قال:

- أيها الأصدقاء.

فصاح به شخص من بين الزحام قائلاً:

- فكني لست صديقك، أيها الديوث!

صاح به آخرون، قالوا له وهو على المنضدة:

- قل: أيها السادة!

واستمر الضابط بنفس رباطة الجأش، وبنفس الصوت:

- أيها الأصدقاء! إن الوطن السوفييتى الجميل ينتظركم. آباؤنا أمهاتنا وأولادنا وبلادنا فى انتظاركم.

- وسيبيريا أيضاً!!

واشترك مع هذا الصوت أصوات أخرى:

- سيبيريا!

- سيبيريا!

- سالاوكى!

- المخابرات الروسية!

حدة المستمعين آخذة فى الازدياد.

كانت كلمتا «سيبيريا» و«سالاوكى» تخرجان من مئات الأفواه. كانت هناك لكمات فى الهواء بقدر عدد الموجودين فى الميدان، مواجهة نحو الضابط وأنا أيضا كنت أصيح مع كل الموجودين. يعنى أن كل الناس أعداء الروس. أشعر بالسرور الآن بقدر خوفى عند رؤيتى للأعلام. أشار واحد من المتصايحين بجوارى إلى الأعلام الحمراء التى ترفرف على الأبواب، وقال:

- أنزلوا هذه الأعلام!

- مزقوها.

- اقذفوا بها أرضاً.

وهجمنا على الأعلام. كان هناك آلاف من البشر يتبعوننا وكأنهم نهر قد فاض أما نحن فقد وصلنا إلى الأعلام متسلقين وأنزلناها ومزقناها بل ودسناها تحت أقدامنا، ولقد بلغ بى الحماس مبلغاً عظيماً حتى إننى كنت أصيح بأعلى صوتى قائلاً:

– لتحيا الحرية! لتحيا الحرية!

وبعد قليل هدأت موجة الغضب. كان البشر ذوو الوجوه الأشد خشونة يعودون إلى السقائف وهم يكثرون من البصق على الأرض. قال أحدهم وهو يقترب منى، وكان متوسط الطول، سمينا نوعاً ما، أشقر اللون، يرتدى قبعة وجاكت من الجلد:

– لقد ميزتك من بعيد وأنت على ذلك الباب تقول إنه لعمل طيب. أنزلنا الأعلام ومزقناها. سأسلخ جلدك ذات يوم. وأشرب من دمك وسأعلقك على نفس الباب مثل العلم الأحمر. لا تنس هذا! هه!

قال هذا ثم ابتعد. أخبرنى شجعاننا فى مساء نفس اليوم بهوية ذلك الرجل. قالوا إنه كوميسير واسمه شيشكوف. على كل حال فالميدان يخلو من الناس رويداً رويداً. كانت أعلام بولندا والمجر وليتوانيا ترفرف على أبواب السقائف.

كيف لا أدهش ياصادق وثلاثة أعلام تركية على ثلاث سقائف فى سفح جبل مرتفع فى أقصى مكان فى المعسكر. أعلى من كل الأعلام.. أعظم من كل الأعلام. أجمل من كل الأعلام. أدهشتنى الأعلام التركية. نعم. الأتراك! ولكن كيف؟ ومن أين؟ جريت سريعاً نحو السقائف أبحث عن الأتراك فى حماسة وانفعال. السقائف الثلاث ممتلئة كلها بالأتراك. شباب وكهول وأطفال ونساء كلهم أتراك، أتراكنا، قرميون. وأمام السقيفة شيخ يطلقون عليه «العم» وهو رجل يرتدى قميصاً مرقعاً لكنه نظيف. شاربه أبيض اللون مبروم وكأنه قرنا خروف، حول هذا العم مجموعة من الشباب وهو ينصحهم قائلاً:

– سأفقأ عين من يتلفظ بلفظة روسية منكم، سأسلخ جلده، وسأدفن جثته فى السماء مفهوم.. وإذا سأل الأمريكى قائلاً «من أنت»؟ فلا كلمة اللهم إلا كلمة «أنا تركى» وإذا سأل الأمريكى من أين أنت؟ فلا كلمة اللهم إلا كلمة

من تركيا من أنقرة من أسكى شهر، والسلام. كما لا تبتعدوا كثيراً عن السقيفة.

سلخ الجلد فى معسكر اللاجئين أتلقاه كأمر طبيعى، وفى مساء ذلك اليوم وعند النوم قلت لمواطنى حمزة:

– أعداء الروس فى المعسكر أكثر من أصدقائهم، فما الداعى للخوف؟

– هذا المكان خطر يامحمد.

– خطر؟

– هناك معسكر روسى بلشفى فى سفح الجبل، على بعد خمسمائة متر من سقيفتنا فى قبعة كل منهم نجمة حمراء كلهم بلشفى. لم يكن طيباً أن يراك الكوميسير وأنت تمزق العلم. انتبه وخذ حذرك. إنه رجل غاية فى السوء.

– سيسلخ جلدى وسيعلقنى على الباب مثل العلم.

– ديوث!

– هل يصدقون أننا من تركيا؟

– إنهم اجتازوا إطار الفلك يا محمد! كيف فهموا هويتنا؟ لا أدرى. إنهم يعلمون منذ أن جئنا المعسكر أننا قرميون.

ذلك الكوميسير شيشكوف يذهب كل يوم إلى القيادة الأمريكية ويقول لهم: «إنهم ليسوا من تركيا. كلهم من تتار القرم. كلهم أعداء روسيا. هيا سلموهم كلهم بأولادهم وبأطفالهم إلى الروس». ونحن هنا نعيش فى خوف يا محمد. إن الروس يجوسون حول السقيفة صباحاً ومساء. يقولون إن فينا ثلاثة من الشبان عملوا فى الجيش الألمانى. إنهم يريدون القبض عليهم بأى شكل من الأشكال. يريدون أخذهم إلى معسكرهم ليحاسبوهم. ونحن بدورنا نتبادل نوبات الحراسة ليلاً ونهاراً فى كل سقائفنا. وشبابنا يحملون سكاكينهم معهم دائماً. والعم على يأمرنا ويقول: «لا تتحدثوا مع الروس ولن

تكونوا أنتم الذين يبدأون معهم معركة، لكن إذا دخلوا السقائف وأرادوا خطف أحد أو أرادوا الاعتداء على بناتنا فاقتلوا هؤلاء الكلاب».

– إيه!! وإلى متى سيستمر هذا الوضع؟

– وكيف لى أن أعرف؟ شخصان ذهبا إلى سويسرا، وذهب اثنان آخران إلى روما لمقابلة القنصلين التركيين هناك لتأمين العون لنا.

وهكذا يا صادق، عشت ثلاثة أشهر تحت العلم التركى الحبيب، ونحن محاطون بالعدو، وبالأتراك. هل لديهم أخبار عنا ياترى؟ التتار فى معسكراتهم معذبون ومن أجل حفنة من تراب يموتون، ولا علم لأحد بهذا. من يدرى بهذا؟ أنت فى أوروبا. ربما يتغير الزمان وتسوقك قدماك إلى تركيا. فى ذلك الوقت وبكل فخر وإيمان ستجد كما أؤمن من صميم قلبى بأن: «لو كانت هناك أمة فى العالم تكسب شرف الحياة تحت العلم التركى، فإنها هذه الأمة».

لم يدعنى الكوميسير شيشكوف فى راحة. كتبوا خطاباً قالوا فيه: أيها التتار! إذا لم تسلموا محمداً إلى الروس، فسنأتى فى المساء وسنحرق سقائفكم. كنت أفكر أحيانا فى أننى سأتسبب فى انهمار دموع الأطفال. ماذا كان علىّ عمله؟ الشىء الوحيد الممكن عمله هو الهرب. وهربت وطوال أسبوعين وأنا أجوب الجبال. كنت كحيوان جائع متوحش وأخيراً وجدت حدود إيطاليا فاجتزتها. وما بعد ذلك تعرفه جيداً.

والآن أبدأ حياة جديدة. أصرف كل جهدى فى هذه المزرعة تحت شمس جهنم أمريكا. كان الله فى عوننا جميعاً.

... محمد

*

روما، فى ١٩٤٦/٧/٢٢

قررت قبل شهر كتابة رد على الخطاب الثانى الذى أرسله لى محمد، ومع

ذلك لم أكتب بل لم أستطع الكتابة، ماذا كنت سأكتب وعن ماذا كنت سأتحدث؟ فكرت وانتظرت وقلت لعل شيئاً يحدث. نعم. شيء.. تغيير انتظرت. تسلمت اليوم خطابه الثالث ، فتحته سريعاً وقرأته، لم أجد فيما كتب ما يعنيني. قد يكون مرد ذلك سأقابل اليوم طبيبي. لا شيء في ذهني إلا الطبيب، الأسئلة التي سيسألني إياها، والإجابات التي سأرد بها عليه. أحتفظ في ذهني بما رأيته في رؤياي بالليل. قال لي لا تنس أن ما تراه إنما هي رؤى. لعل صداع رأسي الذي انتابني هذا المساء ينتهي قليلا، إذا انتهى سأجلس لأكتب رسالة إلى محمد وسأشكر له أنه لم ينسني.

*

روما، في ١٩٤٦/٧/٢٣

انشغل الطبيب بي ساعة كاملة، مساء أمس تكلم هو طوال الوقت، أما أنا فقد أنصت إليه مع أني في أعماقي كنت أرفض ما يقوله: يقول لابد من الثقة في الطبيب. يقول في أعماقك خوف هائل، وأنت تعيش الآن داخل هذا الخوف. لكن لا تبال بهذا. لا أدري كم مرة قال لي فيها هذا الكلام، لا تخف أقبل على الحياة كما هي، اعمل! افرح وستنتهي مخاوفك. هذه الكلمات جميلة وصحيحة لكني لست طفلاً. لا أستطيع الحياة بما في داخل رأسي ولا أستطيع النظر إلى أوجه الناس.

خرجنا معاً من الغرفة ضحك وهو ضغط على يدي في الممر وقال:

– أليست لك صديقة؟

فارتعشت فجأة، ارتعشت كما ارتعشت عندما ابتعدت عن قبر ماريا في تيرول في العام الماضي، كنت أخرج من عيادة الطبيب متفائلاً دائما. فماذا حدث لي مساء أمس؟ كنت أنفر من الطبيب! لن أذهب إلى الطبيب فترة طويلة، ماذا لو ارتعشت غداً؟ ماذا لو خفت من الدخول إلى سريري ليلاً؟ بينما كنت في غرفة الطبيب أمس، تراءت أمام عيني يد ماريا البيضاء تتدلى

إلى أسفل السرير فى تلك السقيفة، فى تيرول، العام الماضى. كان الطبيب يتكلم معى. أما أنا فلم أكن أرى غير يد ماريا. ماذا لو فقدت وعيي وصحت بالطبيب قائلاً: أنا قتلتها، أنا قتلتها! لماذا أفكر يا ربى هكذا؟ إنها ماتت فنجت. وأنا كيف سأتخلص من أفكارى السوداء هذه؟

قال لي الطبيب وأنا أغادر عيادته:

– حاول أن تتذكر جيداً، الحياة التى عشتها فى معسكرات الأسرى هذه وقل لى هذا الأسبوع القادم. بهذا أعثر على جذور هذه المخاوف، وأعمل على شفائك.

سكت، فلم أستطع أن أجيبه، وبينما أنا راجع إلى الفندق، كنت أفكر فى أن نقودى تتناقص، كيف سأعيش بلا طبيب بعد انتهاء نقودى؟ تذكرت محمداً ورسالته. إنه يريد العمل فى الغابات الوحشية المهملة فى أمريكا الجنوبية! لماذا؟ أنا فقط، أعيش يائساً مكسور الجناح. دخلت غرفتى وأنا مقرر كتابة جواب على رسالة محمد. لكن ماريا مازالت فى أعماقى. تصفحت «المذكرات» بدأت قبل ستة أشهر كتابتها، فهل أستطيع استكمالها؟ لا أدرى. أريد بالتأكيد التحدث عن ماريا. المذكرات بدون ماريا؟ كيف ماريا لم تفارق عينى حتى منتصف الليل.

أريد النهوض والكتابة، لكن لابد من التحدث عن أيامى التى أمضيتها فى الأسر قبل التحدث عن ماريا..

أنا فى السقيفة رقم (٢) حيث المكان بارد مثلما كان فى السقيفة رقم (٥) لكن ليس هناك نظام الأسرّة المكونة من ثلاث طبقات، الأرض كلها تبن. هنا وهناك بعض الأسرى يتلوون وينامون. أسأل نفسى أحياناً بشك قائلاً هل أنا فى السقيفة رقم (٢)؟ أريد أحداً أتحدث إليه. لكن الناس الذين يرقدون هنا لايتكلمون ولايبدو عليهم أثر لحياة، مدفونون فى التبن ويرقدون كجذوع الأشجار. ظننت أولاً أننى فى سقيفة أخرى وكل ما هناك أن

الشرطى خدعنى، لا، إننى فى السقيفة رقم (٢)...

يهبط المساء، يتمادى الظلام داخل السقيفة، يعتدل الأسرى رويداً رويداً بعد أن كانوا يرقدون هنا وهناك، يأتى إلى مسمعى أصوات وصياح. وأنا أيضاً أنهض وأتقدم نحو الأبواب فى تثاقل، وأمام الأبواب: أسرى ملتحون، وجوههم متربة وأقدامهم ملفوفة بقطع من القماش القديم، ويحملون على أكتافهم الحصر والجوالات والأكياس القديمة الممزقة، ينسلون إلى السقيفة، ويصيحون بمجرد دخولهم، منادين:

– أهل كييوف.

– مواطنو خاركوف.

– الزاباروجيون.

أنتظر من سيصيح منادياً على القرم وآق مسجد. لم ينطق أحد بهاتين الكلمتين، بعد قليل أستجمع أنا شجاعتى لأصيح قائلاً:

– القرميون!

– القرميون!

ولا جواب..

أصيح مرة أخرى:

– القرميون.

وفى الظلام، قال واحد تحت قدمى:

– لا تصح هكذا يا أخ! لن تجد هنا أحداً من القرم.

أجلس بجانبه، يقول الرجل:

– أنا أذربيجانى.

ويستمر فى كلامه بعد برهة صمت:

– فى المطبخ خادم قرمى يدعى اسكندر، لكنه رجل ظالم، لا يأخذ أحداً بجانبه ليعمل معه.

- أتساعدنى فى رؤية اسكندر هذا؟

لا أدرى إن كان سمعنى أم لم يسمعنى، لانه لم يحر جواباً، أنتظر أن يبدأ فى الثرثرة، جو السقيفة يزداد ظلمة، الأحاديث والأصوات العالية أخذت فى الهدوء، وبدأت الهمسات، كنت أتوقع أن يجيب الأذرى على سؤالى. أجده فى هذا الظلام يشعل سيجارة أرى وجهه فى ضوء القداحة، يبدو إنساناً سليما قوياً. نظر فى عينى بأعين فقدت حيويتها فهمت حينئذ أنه لن يتكلم. أتمدد وأرقد.

أما الأذرى فأخذ يغنى بصوت حزين:

يغنى هو أغنيته، وأفكر أنا فى مصطفى. يصمت بعد قليل. وبعد صمت واضح يقول:

- هل نمت يا أخ؟

- لا.

- ادع الله ونم.

- فقدت واحداً ممن أحبهم، وحسرته مازالت فى نفسى، ولا أستطيع النوم.

- انس الأشياء القديمة، كما لا تفكر أيضاً فى الغد.

- ليست قديمة جدا.

- هل أنت جائع؟

إن هذا سؤال عجيب منه. صمت. إنه يخرج من حقيبته فى الظلام شيئاً، ويمد يده به إلىّ. أنظر إلى هذا فإذا به خبز:

- خذ وكل.

أرفض.

- بطنك خاوية يا آغا.

- كل أنت يا أخ. أما عن الغد، فالله كريم.

- ما هو العمل الذى كلفوك به؟

- أحمل الماء إلى المطبخ من عين ماء، تبعد كيلومترين من هنا، والألمانى لايدعنى وشأنى، لكن آه لو تركنى ..

ودون أن يتم كلمته تأوه آهة ثم تمدد بجوارى، وبعد قليل يبدأ فى الحديث:

- هذا الألمانى رجل طيب ولكنه يعطينى قليلاً من خبز الشُريك! ابن الكلب .. لو ابتعد عنى.

- لو ابتعد؟

- أهربُ، أهربُ يا آغا.

وفى لحظة تذكرت هروبى من السقيفة رقم (٥).

- لا تفعل هذا يا أخى، لأنهم سيقبضون عليك إن فعلت.

- هربت مرة وأمسكونى.

- ثم؟

- الألمانى ابن الكلب، أرقدنى على المنضدة وضربنى على ظهرى بالعصا خمساً وسبعين ضربة، وحوالى أسبوعين لا خبز ولا قطرة ماء، ونمت فى هذه السقيفة على وجهى وظهرى أحمر كالكباب، ومع ذلك لو وجدت فرصة للهرب فسأهرب يا أخى.

سكت، وأحسست ونحن فى الظلام من كلماته الأخيرة، بأنه سكت وهو يصر على أسنانه. انتظرت كثيراً عسى أن يتحدث عن اسكندر، لكنه لم يتكلم أكثر من هذا. استيقظت وأنا أفكر فى اسكندر. استيقظنا مبكراً. كانت السقيفة مزدحمة لدرجة مدهشة. كان صياح الشرطة عند فم الأبواب نسمعه:

- الحجارون!

- المسفلتون!

– هيا . هيا إلى الخارج .. يا أولاد...

خرجت وأنا بين مجموعتين من الأسرى يلفون أقدامهم بالقماش وبطاطينهم المقملة تتدلى من على أكتافهم.

وفى الخارج رياح باردة تأخذ الجليد من على أسقف السقيفات لتضربه فى وجوهنا. كان كثير من الأسرى يحتمون بحافة سقف السقيفة لحماية أجسادهم نصف العارية من عدوان الرياح، لكن الشرطة تسوقهم إلى وسط الميدان بعد أن يضربوهم بالعصى. كان بعضنا يحتمى ببعض وننتظر. وبعد قليل يقوم رجال الشرطة بواسطة العصى والسياط التى بين أيديهم بتقسيمنا إلى فريقين:

– الحجارون! على اليمين!

قليل من كان يعبر إلى الجانب الأيمن ويتطوعون بذلك. لم يكن هذا يحدث إلا إذا نزلت العصى على الأسرى، وقررت أن أعبر إلى الجانب الأيمن قبل نزول أى ضربة على رأسى، وسرت ناحية الجانب المطلوب. وبعد قليل زاد عددنا على المائة، من حولنا رجال الشرطة القاسية منذ قليل وجوههم أخذت تلين الآن هذه الوجوه. الأسرى الذين بجوارى يسبون الشرطة ويشتكون من العمل، ويبصقون على الأرض.

وقبل الخروج إلى الميدان، جاء الأذرى إلى جانبى، كان يلبس فى رأسه جورباً يصل إلى أذنيه، وفى كتفيه كيس كبير. وقال:

– لماذا تذهب مع الحجارين يا أخ؟

قلت وأنا أشير إلى الشرطة، برأسى:

– وماذا فى يدى أن أفعل؟

ثم أضفت قائلاً:

– وأنت .. ذاهب مع الحجارين؟

– لا، فقط، حتى المطبخ، ثم سأسحب الماء، إن شغل الحجار صعب يا

أخ. كان يجب أن يكون ذهابك مع السفلتين. على كل حال لا تبعد عنى. سأريك اسكندر هذا خادم جاف، لكنه مواطنك، قد ينفعك، أو لعله يعطيك قليلاً من الماء. خرجنا من ميدان السقيفة رقم (٢). وتقدمنا نحو المطبخ على طول الطريق الواسع الذى يفصل المعتقل إلى منطقتين. كان الطابور الذى تكون منا يبلغ كيلومترين طولاً. والبرد مثل السم والأذرى بجانبى كان يتكلم وكأنه يحدث نفسه:

– آه لو سنحت لى الفرصة. آه لو سنحت لى الفرصة.

وصلنا بعد ساعتين باب المطبخ. أخذ الأسرى يفكون علب الصفيح الصغيرة المربوطة إلى وسطهم. وكنا ننظر إلى أفواه الأسرى الخارجين من المطبخ وفى أيديهم الخبز، مائة جرام من الخبز مع نصف لتر ماء دافىء لكل منهم، لكن قيمة ذلك كنا نحن فقط الذين نعرفها.

كان بجانبى واحد يقول:

– هؤلاء الديوثون! حتى الماء يبخلون به علينا.

يهمهم آخر بقوله:

– ماء، ماء .. ماذا لو زادوا فى الخبز قليلا؟

– منذ ستة أشهر وجلدى يغذى القمل، يا أخ .

– آه ، هل سيأتى يوم وأستحم فيه، بماء ساخن؟

– سواء أكان جسمك نظيفاً أو قذراً. وقذفوا به فى الحفرة، فما الفرق؟

– لو شبعت مرة واحدة فقط، أرضى بعد ذلك بأن أظل قذراً حتى نهاية عمرى.

دخلنا المطبخ. القدور الضخمة كانت مصطفة بشكل متوالٍ. يقف طباخ وشرطى بجوار كل قدر. أبحث عن اسكندر بحماسة واضطراب. أنظر بين الحين والآخر إلى وجه الأذرى. وكان الأذرى يبدو وكأنه يقرأ رغبتى من عينى:

– لا تقف بجوار القدور يا أخ. إنه رئيس الطباخين. يرتدى حذاء فى قدميه. يداه فى جيبيه، والحذاء الضباطى فى قدميه بلمعته وموسيقاه، وهو كالمدير يذهب ويأتى من أول المطبخ إلى آخره.

لم أكن أرى القدور الأخرى، سمعت من خلف البخار والدخان شتائم وصيحات. الأذرى فى الأمام، وأنا فى الخلف وعلى ذلك اقتربنا من القدر. قال الأذرى شيئاً للطباخ أثناء ما كان يمد يده إليه بعلبته الصفيح، أسأله عن اسكندر ياترى؟.. لا إنه كان يستجديه أن يكون نصيبه من الخبز من النوع الأفضل، فقال له وهو يضحك ضحكات قبيحة، قائلاً:

– من الوسط، من الوسط!.

ألقى الطباخ نصيب الأذرى من الخبز تحت قدميه، وتزامن انحناء الأذرى على الأرض لأخذ نصيبه من الخبز، مع تلقيه ضربة من عصا الشرطى نزلت على رأس هذا الأذرى المسكين. خر الآن على ركبتيه ورأسه بين كفيه، ويقول بصوت يسمع به نفسه... آه، ياظالم! آه يا ظالم!.

أمسكته من وسطه وأقمته على ساقيه، عندها هم الشرطى بضرب الأذرى، عندما رفع عصاه لينزلها عليه، سمعت صوتاً غليظا يقول:

– يا ولد، يا أذرى: هؤلاء الشرطة سيقتلونك يوماً ما من كثرة ما يضربونك.

أجاب الأذرى قائلاً:

– وأى ذنب ارتكبته يا اسكندر بك؟ ما هو الذنب الذى ارتكبته حتى ضربنى ابن الكلب هذا؟

– هيا! هيا! لا تقف هكذا لتنقنق، ألم تأخذ خبزك؟ هيا، اذهب! اخرج!

سكت الأذرى. نظرت إلى اسكندر. كان يتحدث مع الشرطى وظهره لى. وقبل أن أصل إليه، فحصته من أعلى إلى أسفل، كان أكمل من عرفت من مواطنى جسداً، فى أفظع فترة من حياتى. لكن لا أدرى هل هو أحسنهم؟ أم

أسوأهم؟ كان رجلاً أسمر اللون عريض المنكبين، كأنه قد من شجرة صنوبر. مقطب الحاجبين دوما، عيناه واسعتان جميلتان، هاتان العينان مفتوحتان متسعتان جداً، وكأنما كان يبحث عن شىء، كان أنفه جميلاً متناسقاً وكأنه قد خرج من بين يدى مثال، لكن شفتيه دقيقتان باردتان وكأنهما لم يتذوقا شيئاً قط، ولم تضحكا من الأعماق قط، أحسست فيه - من أول نظرة - بقوة لا تهتز. ولكن كيف يستخدم هذه القوة. وكيف يستثمر استعداده وطاقته، وعلى الأصح، لم يبق فى قلبى مكان لحب اسكندر عندما علمت كيفية استخدامه وتطويعه لقوته واستعداده. ذهبت إليه وسألته:

- هل أنت اسكندر القرمى؟

وباختصار وبرود، قال:

- أنا.

- هذا الشرطى، ضرب الأذرى دون وجه حق ، أليس هذا ذنباً؟

صمت، ثم بعد لحظة سألنى بشك:

- هل أنت قرمى حقيقة؟

- قرمى أنا، ومن آق مسجد، ألا تصدق؟

- صدقت.

صمت، وبعد فترة، داوم حديثه بلهجة سكان السواحل.

- لكن بالأمس، جاء روسى وقال إنه قرمى.. خدعنى. وطلب خبزاً.

- لست روسياً، كما أنى لا أريد خبزا.

ضحك وهو يهز سوطه وقال:

- ضربته على كيس مخه. هذا الكافر، ضربته بالعصا بدلاً من أن أعطيه الخبز. أنسيته بالضرب، الخبز حتى يوم القيامة، خر أمام قدمى كأنه روث البهائم.

وبسرعة خطر فى بالى وتصورت أسيراً مسكينا يرقد تحت أقدام

اسكندر، استدرت، وعندما هممت بالخروج من المطبخ أمسكني اسكندر من كتفي وقال:

– تعال! واشتغل معي. سأعطيك الخبز، كما أني سأحطم رأس الروسي الذي يريد أن يضربك، وأدفن جثته في الروث.

وكما أن كل شيء من عند الله، فإن مقابلتي لاسكندر كانت أيضاً من عند الله. سرت خلف اسكندر ولم أعرف أنني في نقطة تحول في حياتي، عبرنا من بين القدور التي تغلي بما فيها. ودخلنا غرفة دافئة في نهاية المطبخ، وفي المكان الأوسط من الغرفة كان ثلاثة من رجال الشرطة يأكلون الطعام، ضرب اسكندر السوط الذي في يديه على السرير وصاح بصوته الأجش لرجال الشرطة الذين يأكلون الطعام:

– سأحطم رأس أي ديوث يمد يده على هذا الولد.

نظر رجال الشرطة إلى اسكندر أولاً ثم إليّ .. يبدو وكأنهم خافوا من كلام اسكندر . قال واحد منهم :

– كلام الطباخ في السقيفة (٥) له قوة كلام الشبرطة فلماذا لا تعينه هناك؟

– قال اسكندر للشرطي الذي اقترح عليه هذه التوصية:

– يا ايفان، خذ أنت هذا الولد إلى رقم (٥) وقل للطباخين هناك إنه تابع لي. قل لهم إنه أخي! هل فهمت؟ وإذا مسه أي ديوث بشيء فسأقذف بمن يتعرض له إلى حفرة غائط.

– وهل أستطيع أن أعمل طباخاً، يا اسكندر بك؟

وإذا به ينتفض فجأة ويقول:

– يا ولد لا تضايقني، ألا تعرف أن توقد ناراً تحت القدور؟ مالك ولأعمال المطبخ؟

خرجنا مع الشرطي ايفان من المطبخ، تساوت معرفتي باسكندر من

عدمها، فلم أره مرة أخرى، من هو؟ وأين هو الآن؟ لا أدرى، نحن ثمانية طهاة فى السقيفة رقم (٥) أكثريتهم من أوكرانيا، لم نعد نقيم مع الأسرى الآخرين إنما نعيش فى سقيفة خشبية صغيرة جانبية، وأمام سقيفتنا ثمانية قدور. تسع كل منها مائة لتر. السقاؤون يملأون القدور بالماء كل مساء. ونحن الطهاة نستيقظ كل يوم صباحاً مبكرين، نوقد النيران تحت القدور، وننتظر عربات البطاطس، وحوالى التاسعة تفتح أبواب السقيفة وتدخل العربات إلى الميدان، وكل عربة لها شرطى ممسك عصا على يمينها، وواحد على يسارها، وخلفها واحد. وعلى البطاطس التى فى العربة أسير ممسكاً بكوريك؛، يأتون نحو قدورنا، وبعيدا عن العربة بثمانى أو عشر خطوات مجموعة من الأسرى زرق الوجوه من تأثير البرد فيهم، عظامهم بارزة، يمدون أيديهم إلينا وهم يتوسلون إلينا قائلين:

– ارم إلينا بواحدة يا أخى الكبير، قطعة واحدة من البطاطس يا أخى! ارمها إلينا.

تقوم كل عربة بالاقتراب من كل قدر. كل عربة على قدر معين، وبعد إلقاء خمسة عشر كوريكاً من البطاطس يسوق العربة حصانها إلى السقائف الأخرى. وبمجرد ابتعاد الشرطة والعربات من عند قدورنا، يقوم بعضنا بإخراج كمية من البطاطس من الماء المغلى، وننظفها ونعمل منها حساء بطاطس «مخصوص» لنا. وبينما يكون بعضنا مشغولاً بهذا العمل الخاص يقوم العمال الآخرون بالصعود على الصناديق الخشبية وفى أيديهم العصى، ويقلبون الحساء حتى لا تلتصق البطاطس فى قعر القدر. الطهاة هم أغنى الناس فى المعسكر وأكثرهم احتراما، يرتدى كل منهم إما بذلة ضابط أو بذلة جنرال. أصبحت أنا أيضاً، بعد يوم أو يومين، وفى مقابل كبشة من الحساء، صاحب بذلة ضابط من الرتب الكبيرة.

استمر عملى فى الطهى ثلاثة أسابيع كاملة، وفى أحد الأيام جاء جاويش

يبلغ من العمر حوالى خمسة وثلاثين عاماً، تجول فترة حول القدور، ونظر إلينا جميعاً بدقة ولقد خفت قليلاً من هذه الزيارة غير المتوقعة. اختبأت بين القدور حتى لا أظهر، لم يكن يبدو أنه سيىء إلى الحد الذى يخُشى منه، لحيته التروتسكية السوداء ووجهه الطويل الذى يبدو متعباً. عيناه، بنظراتهما الحلوة من خلف نظارته ذات الزجاج السميك، شكله أقرب إلى الاشتراكيين الديمقراطيين أو النصارى المتدينين، منه إلى عسكرى ظالم كالألمان، اقترب منى ورمقنى بنظرته، حدجنى بعينيه الأخاذتين كما تبدوان، نظر طويلاً إلى البذلة التى ارتديتها على جسمى وأخيرا سألنى:

– كم عمرك؟

– ثلاث وعشرون.

ضحك وسألنى مرة أخرى:

– هل أنت جنرال؟

– لا . إنى ملازم.

– هل البذلة التى ترتديها بذلة ملازمين؟

خفت، ولم أدر بماذا أجيب عليه، كان يبدو أنه فهم مدى خوفى من الألمان، فسألنى وهو يضحك، قائلاً:

– هل تدرى بأى قصد أتيت أنا إلى هنا؟

– لا ياسيدى.

– يلزمنى عسكرى خدمة، هل تستطيع القيام بهذا العمل؟

أفقت عندما فهمت ماذا يريد الألمانى، ولكن ماذا على أن أقول؟ عسكرى خدمة! ربما يكون أفضل من العمل فى المطبخ، وقد يكون أسوأ، لو رفضت طلبه، ألا يغضب منى؟ سألنى عن رتبتى ضحك على بذلتى وإذا رفضت، يمكن أن يلقينى فى السجن؟ سأذهب معه سأذهب وأعمل خادماً عنده:

قلت:

- نعم، أعمل.

سألنى عند خروجنا من السقيفة رقم (٥) عن اسمى، وكان يكرر اسمى بين الحين والحين، أثناء سيرنا فى الطريق، وكأنه يحفظه:

- صادق .. صادق..

اقتربنا من أبواب المعتقل. الجندى الديدبان فتح الباب بعد أن أدى سلاماً عسكرياً قويا للجاويش. خرجنا. كنا نسير - أنا والألمانى - جنباً إلى جنب كصديقين ولم أكن أعرف أننى لن أعود إلى المعتقل مرة أخرى.

انتهى الشتاء وجاء الصيف، وأنا منذ شهر أعمل «جندى خدمة» تحت إمرة الفيلد فيبل (الباشجاويش) شولتس، كم كان هذا أمراً طيباً، وكم هى أيام مريحة! فبعد المآسى التى شاهدتها وعشتها فى المعتقل أبدو وكأننى أتذوق طعم الحياة. أنا سعيد وأبدو كطفل يتيم وجد فجأة منزلاً وسريراً دافئاً، كان الباشجاويش يبتسم لى فى رحمة عندما يخرج صباحاً، يربت على ظهرى، وإلى وقت الظهر أقوم بكنس غرفته وتنظيف حذائه وبذلته، ثم أحضر له من المطبخ العسكرى طعام غذائه، يأكل هو طعامه، ويترك لى فى الطبق طعاماً قليلاً، ثم يخرج. ثم أجلس حتى المساء وأقرأ الصحف الألمانية، كنت أنام بالليل بين الرومانيين المكلفين برعاية جياد الألمان، كان هؤلاء أيضاً مثلهم فى ذلك مثل الأسرى فى كيوفجراد أسرى لدى الروس ، أسرهم الألمان لكنهم لم يأخذوهم إلى المعسكر لأنهم حلفاؤهم، لم أكن أفهم لغتهم إلا أنهم يتميزون بطيبة القلب، وفيهم بساطة، يكرموننى بإعطائى السجائر، ويغنون حتى وقت متأخر، قالوا إن ضابطاً رومانياً سيأتى من رومانيا ليأخذهم ويعود بهم إلى وطنهم وهم فى انتظار هذا الضابط منذ ستة أشهر.

وكان شولتس، فى بعض الأمسيات، يتصنع أنه يريد رؤية الجياد فى الإسطبل، وعندما يمر بجانبى يدس فى يدى خبزاً ملفوفا فى ورقة، خبزاً

أبيض بدون تبن وبدون حصى، خبزاً ناعماً وآخذ الخبز وآكله، وأتذكر جودت وعثمان ومصطفى. تتراءى أمام عينى أشباحهم بيضاء، غير واضحة، أنا آكل خبزى والخبز يأكلنى، تتجمع الآلام فى داخلى، وينسد فى حلقى شىء ما، وببطء آكل الذى أعطانيه الباشجاويش شولتس فى الظلام، وكأننى لص، كأنى آكل من نصيبهم. الشىء الذى انسد فى حلقى كأنه يخنقنى، لا أستطيع أكل الخبز، أمسكه بيدى حتى الصباح، فربما أرى أحدهم، ربما يخرج أحدهم أمامى غداً. ربما أجد أحدهم ربما!.. وأخبىء الخبز فى كيس تحت رأسى.

وقبيل ذات مساء، بينما كنت أذهب إلى الإسطبل مع الجاويش شولتس رأيت الأذرى فى الطريق يحمل الماء، وبجواره جندى ألمانى مسلح، الأذرى يحمل جرادل المياه وحبالها فى نيره، يجمع يديه على صدره، ويسعل بشكل متقطع. عبرنا من جواره ومضينا. خفت من التحدث مع الأذرى، ترى هل رآنى؟

ملأت جيوبى بالخبز فى اليوم التالى، على أمل أن أصادف الأذرى مرة أخرى. لم أصادفه فى الطريق لكنى رأيته وهو يقوم بدور السقاء طوال اليوم بجوار مبنى القيادة وقبيل المساء لم يكن له وجود فى المكان أيضا. وفى اليوم التالى أخذت أنظر من النافذة حتى المساء لعلنى أراه. لكنى لم أتمكن من رؤيته هل هو مريض؟ كان فى الطريق سقاؤون آخرون، لكن الأذرى لم يكن بينهم.

مر أسبوع، وعندما كنت أنظف غرفة الجاويش شولتس صباحا إذا بى أسمع فى الممر أصوات وقع أقدام وصياحا، رأيت أسيرا نحيلا جدا أشقر اللون مستندا إلى الحائط بين جنديين ألمانيين، وقد غطى وجهه بيديه، كان يبكى بصوت مختنق ويقول:

- أنا لست يهوديا! أنا لست يهوديا!

لم أستطع رؤية وجه الرجل لكن ذراعيه البيضاوين النحيلتين اللتين تبدوان كالعصا كانتا ترتعشان بشكل ملحوظ، كان بكاؤه غريبا حتى إننى كنت أرى آثار الرحمة فى وجوه الألمان الذين كانوا يشاهدونه من الأبواب، وبعد قليل فتح باب. وظهر فى الممر اليوزباشى بوخ قائد المعتقل (الشتالاك) وكان اليوزباشى بوخ ضابطا سليم البنية، طويل القامة، أحمر الوجه، عيناه نوما متقدتان، وكان متغطرسا، انحنى الأسير فجأة على قدمى اليوزباشى بوخ وعانق حذاءه اللامع النظيف، وقال له بنفس الصوت المخنوق، ومتوسلا:

- لست يهوديا، صدقونى، لست يهوديا.

ولا أدرى هل لأن الأسير تشبث بيديه المتسختين على الحذاء النظيف أم لأنه يهودى؟ سحق اليوزباشى بوخ الأسير تحت قدميه، ثم عاد بسرعة وكأنه يهرب من مرض معد، ودخل حجرته، أغلقت أنا الباب، لكن مازال صياح الأسير حتى الآن يرن فى أذنى وهو يقول:

- لست يهوديا، لست يهوديا.

وبعد حوالى عشر أو خمس عشرة دقيقة دخل الباشجاويش شولتس الحجرة ونظر إلى بعينيه الضيقتين، بنظراتهما الحلوة الطيبة وبينما هو يجلس على الكرسى، قال:

- قبضوا على يهودى فى المعسكر.

لم أنبس ببنت شفة، وتظاهرت بعدم الفهم، ذلك لأننى لم أكن أريد فتح هذا الموضوع لكن الجاويش كان يريد التحدث عن اليهود، فقال:

- فى المعسكر يهود كثير.

سألته بلغتى الألمانية الضعيفة:

- من أين علمت أن هذا الرجل يهودى؟ ربما لا يكون يهوديا. إنه يقول لست يهوديا.

ضحك الجاويش شولتس ضحكة أبانت عن أسنانه اللامعة، وقال:

– إن اليهود هم الذين يقولون لنا هذا؟

– اليهود أنفسهم!

وضع إصبعه على شفتيه، وقال:

– اقترب منى. احذر أن تقول هذا لأحد.

وبنفس الصوت قال:

– نعم، اليهود أنفسهم، ألا تعرف أن اليهود الذكور مقطوعون، ولم نكن نعرف هذا، القائد أيضا لم يكن له علم بهذا، المترجم «يان» هو الذى أفهمنا هذا، وهو نفسه يهودى، والواقع أننا نعرف أن «يان» أيضا يهودى، لكننا نحتاج إليه. وفى الوقت الحالى فى كل سقيفة عدد من اليهود ثلاثة أو خمسة، يمدوننا بالمعلومات، وهم يظنون أننا سنمنحهم الحياة، لكن بعد الفراغ من اليهود الآخرين سيأتى الدور على هؤلاء.

بعد أن قال شولتس هذا، بدوت كأنى لم أفهم شيئا قط، سألته عن معنى مقطوعين، ضحك شولتس مرة أخرى، وقال بإشارة من يده أن اليهود يختتنون.

– هؤلاء اليهود عملاؤنا يتجولون طوال اليوم بجوار الحفر، فإذا وجدوا «مقطوعا» يبلغون الشرطة سريعا، وتقوم الشرطة بإحضار اليهودى إلينا.

عندما فهمت كلام الجاويش شولتس، أحسست برعشة تصيبنى فى عمودى الفقرى وتناولت حذاءه سريعا لأنظفه، كانت يداى ترتعشان، وكنت حريصا على ألا أظهر هذا لشولتس، وبعد قليل، نهض هو على قدميه، وتأهب للخروج إلى الممر، وقبل أن يفعل هذا، قال:

– هذا الرجل يقول الآن إنه ليس يهوديا، على ذلك أرسل القائد المترجم يان إلى المعتقل، وسيأتى اليهود ليشاهدوا الرجل، ربما يكون فى الأمر خطأ ما، قال هذا وخرج.

يا إلهى! ماذا لو كان هذا الرجل مسلما! كيف يمكن إثبات عدم يهوديته؟

لو كنت شاهدا قد لا يصدقنى الألمان، فيسحبوننى إلى حافة الحفرة ويضربوننى. كنت مازلت أسمع بكاء الأسير وهو يقول: «لست يهوديا». آه لو كان مسلما، كيف يمكنه فى هذه الحالة إثبات أنه ليس يهوديا، إذا لم يستطع إثبات هذا فسيقتلونه «جهارا نهارا»، ولو قمت أنا وقلت إنه ليس يهوديا، ثم اتضح أنه يهودى؟ ماذا سيكون موقفى؟ ماذا لو قاموا بعد ذلك بإعدام اسكندر والأذرى وبإعدامنا كلنا بدعوة أننا يهود!!

استغرقت فى هذا التفكير، وبينما أنا على ذلك إذا بى أسمع وقع أقدام ى الممر ثم نحيبا. بعد نصف ساعة، كانوا يأخذون الأسير أمامهم، يسوقونه سوقا إلى الحفرة وكان مثل الجمل، برك على ركبتيه. وعلى بعد ثلاث خطوات إلى الوراء، كان ألمانى يوجه مسدسه نحو قفا المسكين، وقد أخذ الجندى وضعه بحيث لم يكن هناك أى فاصل بين إطلاق المسدس ووقوع الأسير على الأرض، ولم يكن هنا أى شىء فى الإمكان، غير الدعاء لهذا المسكين الذى أسلم روحه فورا.

وبعد قليل، فتح الباب، ودخل شولتس إلى الغرفة، أدرت أنا ظهرى حتى لا تبدو عيناى دامعتين، قال الجاويش وهو يجلس على الكرسى:

– جاء اليهود ونظروا إليه فاتضح لهم أنه يهودى.

قررت بعد هذه الحادثة أن أعود إلى المعتقل، ولكن ماذا لو اشتبه فىّ شولتس! قضيت ليلتى ساهرا. وفى الصباح جاء شولتس إلى الإسطبل. وذهبنا معا إلى القيادة. لم أجرؤ ونحن فى الطريق أن أطلب منه إرسالى إلى المعتقل. افترقنا بعضنا عن بعض بجانب الباب. وقفت أمام النافذة حتى الظهر عسى أن أرى الأذرى. لكن الأذرى لم يكن فى أى مكان. وبينما كنت أخرج من الغرفة لتناول طعام الظهر سمعت فى الممر وقع أقدام ونشيج بكاء يشبه ما سمعته بالأمس. نظرت من فتحة الباب فوجدت أسيرين بين جنديين ألمانيين مسلحين. لم أتمكن من رؤية وجهيهما لأنهما كانا يقفان وظهراهما

نحوى. كلاهما أيضا كان حافى القدمين. وكان بعضهما يمسك أيدى بعض كطفلين يتيمين ويرتعشان. شعرهما الأسود الطويل كان متسخا بالتراب وبالتبن وعلى ظهر كل منهما قميص يبدو وكأنه قطعة قماش متسخة تتدلى على ركبتيه.. من هما؟ أحاول النظر إلى وجهيهما، ولم أستطع رؤيتهما. لماذا أحضرهما الألمان إلى القيادة؟ وبعد قليل خرج شولتس من إحدى الغرف. الألمانيان اللذان بجانب الأسيرين، أديا فى حركة قوية السلام للجاويش، نظر شولتس إلى الأسيرين، بنظرة بدأت من قمة رأسهما وانتهت بأخمص أقدامهما، ثم سار إلى غرفته دون أن يقول شيئا قط، وكنت قد أغلقت الباب، ففتحه هو، وقال:

- يا صادق! تعال معى.
- إلى أين يا هرفيلد فيبل؟
- ذهب المترجم «يان» إلى المعتقل، تعال أنت وتكلم مع هؤلاء الرجال.
- سمعاً وطاعة ياهرفيلد فيبل.

خرجنا معا إلى الممر، وقفنا أمام الأسيرين المرتعشين بين الألمانيين. فهمت فورا أنهما من الأوزبك. مسكينان، كأنهما خرجا من نطاق كونهما من البشر، قال لى الجاويش شولتس، وهو ينظر إلى الأسيرين:

- سل هذين الرجلين باللغة الروسية. هل هما يهوديان أم لا؟

سألتهما بالروسية:

- يريد الجاويش أن يعرف من أى الشعوب أنتما. وهل أنتما يهوديان؟

نظر كل منهما للآخر، هز الأكبر سنا فيهما رأسه. سألتهما مرة أخرى بالروسية:

- هل تفهمان اللغة الروسية؟ هل أنتما يهوديان؟

مرة أخرى، هز أكبرهما سنا رأسه، وضحك ضحكة بلهاء، وقال:

- نعم يهوديان.. يهوديان.

تأملت كثيرا لصوت هذا المسكين وابتسامته هذه. ينظر الآن الجاويش إليّ. أما أنا فكنت لا أستطيع أن أبعد عن عينى الأوزبكى المنطفئة. وبدأت أحدثهما باللغة التتارية:

- انظر إليّ أيها العجوز! لا تكذب. أنت لست يهوديا، ولو قلت إنك يهودى فإن هذا الألمانى لن يعطيك خبزا، بل سيأخذكما إلى حافة الحفرة ويقتلكما. والآن افصح لى: أأنتما من الأوزبك أم من التركمان؟

فى البداية نظر كل منهما إلى الآخر، ثم نظر كلاهما فى نفس الوقت إليّ. انحنى كل منهما فجأة على قدمى وبدآ فى البكاء بصوت منتحب مخنوق :

- إننا من شعب الأوزبك آغا.. من الأوزبك. نحن من فرغانة. فرغانيان.

سألنى الجاويش وقد نفد صبره:

- يهوديان؟

- لا يا هرفيلد فيبل، إنهما آسيويان، يبدو هذا من ملامحهما.

وقبل أن أنتهى من كلامى ، ظهر اليوزباشى بوخ فى الممر مع ضابطين برتبة كبيرة. أصدر شولتس أمرا، فإذا بالألمانيين قد انتصبا وهما يمسكان أنفسهما فى صدورهما المنتفخين، وعندما اتجه الجاويش شولتس نحو اليوزباشى بوخ لتقديم إيضاحات، هز اليوزباشى يده وكأنه يقول إنه يريد أن يسمع ما يقوله الجاويش. وقبل أن يتكلم الجاويش عن الشخصين الأوزبكيين، اندفع اليوزباشى بوخ فجأة يسب ويشتم، كان الألمان يقفون دون صوت منتصبى القامة كأنهم تماثيل. أما أنا فكنت أريد أن أهرب وأختبئ قبل أن ألفت انتباه أحد. ولكن كيف؟.. الضابط أمامى، والألمانيان من الخلف، ولم يكن اليوزباشى بوخ قد رآنى بعد. ماذا لو رآنى. ماذا لو سأل عمن أكون. كنت بين الأوزبكيين. لم يكن المسكينان يعرفان أن الموت ينتظرهما. والآن سيقتلونهما، وربما يقتلوننى معهما. كنت أحاول الاختفاء،

وكنت أدعو أن أوفق، يصيح بوخ وكأنه يريد أن يسمع العالم كله. وجهه الأحمر القانى يتغير إلى اللون الأزرق، ودوما كان يشتم اليهود. وفجأة نظر بدقة إلي الأوزبكيين. كان الهدوء يخيم على المكان لدرجة أن لو طارت ذبابة فى الممر لسمعناها. وعندما بدأ الجاويش شولتس يتشجع للتحدث عن الأوزبكيين، أزبد بوخ مرة أخرى، ودخل إلى غرفته وهو يسب ويشتم، هرولت أنا سريعا، هاربا، واختبأت، ومن خلف الباب استمعت إلى صوت اليوزباشى بوخ، الشديد، وأنا أرتعش، مرت ساعة لم يعد الجاويش شولتس، وبين الحين والآخر كنت أفتح الباب فتحة خفيفة لأنظر من خلال فتحته هذه إلى الممر. لم يكن الأوزبكيان فى الممر. لم أكن أعرف إلى أين أخذوهما. لابد على كل حال أنهما سيقا إلى الموت. وبين الحين والحين يدخل جاويش بوجه صارم، أو أومباشى أو ضابط إلى غرفة القائد ويخرجون بعد حين منها وكلما يفتح الباب كان صوت اليوزباشى يهز المبنى كله، هناك بالتأكيد شيء يحدث فى الغرفة. هل كانوا يذبحون الأوزبكيين؟ لا.. فالأصوات ألمانية.. ماذا كان يحدث؟ لماذا اليوزباشى بوخ يصيح طوال هذه المدة الطويلة؟ وفجأة فتح الباب ودخل شولتس، كانت عيناه تخلوان من تلك النظرات القديمة الحلوة، بل كان فيهما نار خائنة، يداه خلفه، وكأنه لا يرانى، كان يأخذ الغرفة جيئة وذهابا من أولها إلى آخرها. كان ينظر بين لحظة وأخرى إلى البندقية المعلقة على الحائط، كنت أفهم أنه سيقتل أحدا ولكن من؟ وكم؟ وفجأة انطلق فى الممر صوت ضجة، انطلق الجاويش شولتس إلى سلاحه، صوت كلام فى الممر، أصوات أسلحة، وصوت أوامر، نظرت من النافذة. خمسة وثلاثون، وربما أربعون جنديا كلهم مسلحون، وعلى رأسهم اليوزباشى بوخ. صوته مؤلم، يقول:

- إلى اليمين.. تحرك!

- إلى الأمام.. تقدم!

يتقدم الجميع نحو المعتقل، أصوات أحذيتهم ذات النعال الحديدية، بعد قليل أخذت أصوات الأقدام المرعبة تنوب، ولم تعد تسمع، الميدان، الممر، الغرف، اندفنت جميعها فى سكون المقابر. وفى هذا السكون، أخذت أدعو الله قائلا:

- يا إلهى! إننا نحبك ونؤمن بك وننتظر العون منك، حتى فى الدقائق التى نزلت علينا فيها أفظع ستارة من ستائر الحياة والموت، بسبب ما ارتكبنا من ذنوب.

بعد ساعة كاملة، عاد اليوزباشى بوخ والجاويش شولتس وعدد من زملائه، عادوا إلى القيادة، لم أعرف ماذا حدث فى المعتقل، إلا أن شولتس قال وهو يضع البندقية على الحائط:

- طهرنا المعسكر من اليهود.

لا أستطيع النظر إلى وجهه، لكنى من ناحية أخرى كنت أريد أن أعرف كل شىء.. لذلك سألته بخوف:

- كانوا كلهم من اليهود؟

- كلهم يهود.. كذب علينا أولاد العاهرات. قالوا «إن اليهود مختونون» لكن ليس كل مختون يهوديا، فالمسلمون أيضا مختونون، شرح هذا لليوزباشى بوخ، الضباط الذين جاءوا هذا الصباح من القيادة العامة، إن العالم لن يعيش فى راحة إلا إذا تطهر من اليهود. اليهود هم أعداء الإنسانية.

وبينما يحدثنى الجاويش بهذا، إذا بنا نسمع صوت وقع أقدام فى الخارج وسمعنا أصوات صياح مقطعة. والآن، وأنا أنظر من النافذة إلى اليهود، إذا بشولتس أيضا وقد أصبح ككل الألمان: قطب حاجبيه. واكتسى وجهه الرعب، وكان يضغط على ظهر الكرسى وكأنه يريد أن يفصله منه، وقال من بين أسنانه، وكأنه يسب ويشتم:

– يوديشى شفاينه هوند، يوديشى شفاينه هوند.

كان ظلام رهيب قد دخل من النوافذ، عندما عاد الجاويش شولتس إلى غرفته، والآن كانت عيناه الصغيرتان تنظران براحة وسكون كعادتهما من خلف الزجاج السميك، جلس وقص علىّ كيف قتلوا اليهود. وقفوا بالدور. يقوم خمسة أشخاص من اليهود الأحياء بدفن خمسة من اليهود الذين يعدمون. ثم يسلمون ملابسهم الدامية إلى المعسكر لكى تعطى للأسرى الذين لا ملابس لديهم.

مر أسبوع، وخيم النسيان على هؤلاء اليهود، ذهب كثير من الألمان فى القيادة إلى الوحدات المرابطة فى الجبهة، وبقى اليوزباشى بوخ والجاويش شولتس، قال الجاويش: إن حدث هجوم كبير على الروس، فإنه سيذهب بدوره إلى الجبهة. وهو ينتظر الأمر بذلك. لكنه لايدرى متى يصدر هذا الأمر. يقول إن الحرب تنتهى وهذا الأمر لم يصل بعد. كان مقتنعا بأن الحرب لن تدوم طويلا. أريد أن أصدق كلام الجاويش، ليت الحرب تنتهى! ليت! وليت الرومانيين أيضا يغنون فى الليل أغنياتهم فى الإسطبل، إنهم أيضا يقولون إن الحرب تنتهى هذا الصيف، وأنا أدخن سيجارتى بهدوء وأفكر. الحرب تنتهى! عيناى مغلقتان وأتخيل مستقبلا سعيدا. الحرب انتهت! هيا اذهبوا. التقوا بأهلكم وأولادكم وآبائكم. أنتم أحرار.. أنتم مطلقو السراح اذهبوا.. هيا.. إلى بيوتكم.. إلى بيوتكم.. كل شىء راح وانتهى الاضطراب والدم والأنات والدموع. كل شىء راح وانتهى. هيا إلى بيوتكم. ونعود إلى منازلنا من الطرق الدامية من السهول التى مررنا بها بالأمس. وتخرج الفتيات أمامنا. من الحدائق المغسولة بأشعة الشمس الذهبية، تضحك الفتيات لنا، ونحن نضحك للفتيات، يقترب بعضنا من بعض. يمسك بعضنا بأيدى بعض. لا أحد يصرخ فينا. لا انفجار صوت بندقية، ولا سباب ولا شتائم. لا مستغيث ولا باك! كل شىء راح وانتهى. وأنا؟ لن أجد سببا

لاخبىء البقسماط ولا الخبز فى الكيس الذى أضعه تحت رأسى. كم تبعد القرم عن أومان؟ أربعمائة كيلو متر. ربما أكثر. أتستطيع الوصول إليها ماشيا على الأقدام فى أسبوعين؟ ربما أقل من أسبوع. اليوم هو الأحد. إذا انتهت الحرب اليوم فالأحد القادم أكون فى وطنى، أمى المسكينة! ترى هل تعلم أمى أننى مازلت علي قيد الحياة؟ ترى كيف ستحتضننى أمى وهى تقول: ابنى! ابنى! كيف ستقبلنى؟! فما بالك إذن بأبى؟ أبى لن يستطيع تمالك نفسه من البكاء. كلنا سنبكى لكن دموعه ليست حزنا وإنما هى دموع الفرح.

ثم.. ثم الأسرة، والموقد، وضيافة الشاى، والأحاديث المطولة. ثم مرتبة وعليها ملاءة بيضاء نظيفة كأنها الجليد، وذلك اللحاف الأطلس. وعندما أجلس منفردا فى الحجرة مع أمى لابد أن تحدثنى عن زكية بنت أرسلان بك الأيواصيلى، ستحدثنى عن ضفيرتيها الممتدتين حتى كعبيها وهما فى سماكة المعصم، وعن جبهتها البيضاء وحاجبيها القلميين وعن جمال رموش عينيها. ستقول لى إن زكية بنت عائلة طيبة. كم أنت مسكينة يا أمى.. كم كنت أبذل كل جهدى لكى أبعد الدموع عن عينيك والاضطراب عن وجهك! سآخذك إلى منزلنا فى وسط حدائقنا ذات الرائحة العبقة الجميلة فى السفوح القطيفية فى الجبال وفى الجوانب الزمردية الجبلية، وأنت هناك، أيضا تغطين رأسك بغطاء الرأس الأبيض واقرئي سورة يس، التى تحبين قراءتها، واهتمى بأولادك فهم صغار، وهذا منزلى، والروس! ألن يخرج الروس من بيتنا؟

ورويدا رويدا، يسقط خوف فى قلبى، هل يخرج الروس من البيت؟ يجب أن يخرجوا. فهذا الوطن وطننا كما أن هذا البيت بيتنا، أجدادنا وآباؤنا ولدوا فى هذه الأرض. وهناك عاشوا. جدنا السابع هناك.. وهذا الوطن وطننا ونحن أولاده، لابد للروس أن يخرجوا.

وبينما أفكر فى كل هذا، لا أدرى كيف تراءى لى أمام عينى جريشة الألوشتاوى، جريشة نو الرأس الأشقر المقطوع الساقين فى الحفرة التى حفرتها القذيفة. كم مثل جريشة أشقر الرأس هكذا يعيش فى القرم؟ آه لو قام كل تتارى وتناول سلاحه وقال سننظف القرم من الكفار؟ لو تمرد التتارى أمام الدماء النازفة ودموع العيون المسكوبة؟ يا أيها التتارى! إن الدماء تستنزف منك منذ مائة وسبعين سنة، فهل بقى فيك بعد ذلك قوة؟ ها هو لون القرم قد تغير. لقد عشت أيها التتارى مائة وسبعين سنة فى اضطراب دائم. عش! ولا تهدر دمك! فلم تعد بك قوة، لا تُسل دماءك عبثا. هل تعلم أن هذا الوطن لا يستطيع العيش بدونك؟ بدونك سيسيل السم بدلا من العسل فى حدائقك. لن يستطيع أحد اجتياز الجبال ولا عبور الطرق، وستتحول هذه الجبال إلى جهنم.

وذات صباح جاء الجاويش شولتس إلى الإسطبل مبكرا جدا، أخذنى وذهبنا إلى القيادة. كان الميدان الواقع أمام القيادة ممتلئا بالعساكر المسلحين. أوامر شديدة صدرت إلى الجنود، أصدرها لهم الجاويشية، حمل الجنود، عقبها، بنادقهم على أكتافهم وخرجوا فى مجموعات من الميدان مبتعدين عنه. لم أهتم كثيرا بالجنود لأنهم غير ذاهبين إلى المعتقل. وجه شولتس يظهر فيه الفرحة والرحمة كما لو أنه لا يتوقع حادثة سيئة قط. كانت أعماق عينيه الصغيرتين تضحك فرحا. ولأول مرة يعطينى علبة سجائر بها ثلاث سجائر، عجبت لكرمه هذا. بعد دخوله الغرفة تحدث لى عن الجنود الذين كانوا فى الميدان. ولم يمكث طويلا فخرج، ولأننى لم أفهم شيئا قط، اتجهت نحو النافذة ونظرت إلى الميدان. كان الميدان قد خلا وغشيه صمت خلال نصف ساعة. لكن هذا الصمت لم يستمر طويلا. فالجنود والأوامر والأصوات، عادت مرة أخرى، اليوزباشى بوخ على درجات السلم الخارجى للقيادة. وقف هو والجاويش شولتس وبعض الضباط الآخرين، وقلق ممتزج

بالخوف يلفنى، أنظر تارة إلى صفوف الجنود، وتارة أخرى إلى الضباط الذين يقفون على الدرجات الحجرية في سلم القيادة. وبعد حوالى عشر أو خمس عشرة دقيقة اندفعت كتلة شعبية هائلة من الناس إلى الميدان، القادمون جميعهم يرتدون الملابس المدنية. على كتف كل واحد منهم ربطة قماشية، وجوههم وعيونهم يعرفها التراب. لكن حالتهم ليست هابطة بدرجة ملحوظة. يدخنون السجائر وكانوا يتكلمون بأصوات عالية. هل هم أسرى؟ لكنهم لا يشبهون الأسرى كثيرا. لم أكن أرى أحدا بينهم يرتدى بذلة رسمية. أغلبهم يشبهون القرويين. لماذا يسوقون هؤلاء الناس إلى المعسكر؟ كان الجاويش شولتس يدخل الغرفة ويخرج منها وفى يده مجموعة أوراق. كان يبدو سعيدا ومتحمسا. يزحفون بأقدامهم المتعبة نحو المعتقل. ويأتى غيرهم من خلفهم. واستمر هذا العرض حتى المساء. وعندما عدت إلى الإسطبل، شرح لى شولتس أن الأوامر صدرت باعتقال الرجال من سن السابعة عشرة وحتى الخامسة والخمسين من القرى والقصبات الواقعة حول أومان، كل هؤلاء كانوا فى وقت ما جنودا، وعندما انكسرت الجبهة هرب معظمهم واختبأوا فى القرى. يجمعهم الألمان الآن ويدخلونهم المعتقل. وسيأتى العمد من القرى ليستعرضوا هؤلاء. ويفرز كل منهم القرويين الذين من قريته. وهؤلاء سيأخذون ترخيصا من اليوزباشى بوخ وسيطلق سراحهم. كان شولتس يشرح لى هذا بحماس وانفعال.

وفى اليوم التالى، أيقظنى شولتس ولم يكن الصباح قد أصبح بعد. عجبت لمجيئه مبكرا إلى هذا الحد. لبست بسرعة وخرجنا. على جانبى الباب الخارجى جنود مناوبون مسلحون. فتح واحد منهم الباب. وعلى بعد خطوتين من الباب، على جانبى الطريق الإسفلتى كانت مجموعة من النساء والفتيات وكبار السن يرقدون فوق لفافاتهم القماشية، وقبل أن نصل إلى جانبهم أشار إلى الجاويش شولتس أن أقوم بدور المترجم. بدأ الناس الذين فى

الخارج ينهضون رويدا رويدا. اقترب منا منهم حوالى ثمانية أو عشرة من كبار السن. وقفوا على بعد ثلاث خطوات . أمسكوا بأغطية رؤوسهم فى أيديهم وسلموا علينا.

قال شولتس:

– من العمدة فيكم؟

سألت أنا بدورى هذا السؤال باللغة الروسية.

تقدم ثلاثة من كبار السن هؤلاء. وتحدث منهم واحد، فقال:

ـ نحن، أيها المترجم المحترم، ثلاثة عمد كل منا عمدة على قرية. لم يبق فى القرى أحد من الذين يستطيعون العمل. فى البيوت كلها نساء وأطفال لا عمل لهم إلا البكاء. توقفت الأعمال فى الحقول. وهؤلاء الأطفال فى الخامسة عشرة من أعمارهم والسادسة عشرة، لا ذنب لهم، أيها المترجم المحترم. إنهم لم يؤدوا الخدمة العسكرية.

كانوا يتوسلون بحزن، ويتصورون أننى شخص مهم، كما أنهم يضيفون إلى عملى كمترجم لفظة المحترم عندما يخاطبوننى. لم يكن الجاويش شولتس يريد أن يسمع ما يقولونه. انحنى على وهمس فى أذنى قائلاً:

ـ اسحب واحداً منهم على جنب، وحادثه، وتحدث مع واحد منهم فقط. ثم اسألهم عما فى عرباتهم.

وقبل أن يتم كلامه، كان يتلفت حواليه، أفهم أنه لا يريد أن يتكلم بصراحة عما يفكر فيه. نحيت عمدة واحداً منهم جانباً. شولتس الآن يسأل، وأنا أترجم.

ـ كم أسيراً خرج من قريتك؟

ـ سبعة وخمسون، أيها المترجم المحترم.

ـ هل كلهم من قريتك؟

ـ كلهم من أبناء قريتنا يا سيدى، قبل عدة أشهر كان يظهر هنا وهناك

قليل من الغرباء، لكنهم عندما يعلمون أن الجنود الألمان وصلوا هنا، سرعان ما يختفون.

مازلت أترجم كلمات شولتس إلى الروسية:

ـ هل قريتك بعيدة كثيراً من هنا؟

ـ حوالى خمسة عشر كيلو متراً أيها المترجم المحترم.

ـ هل تعرف أسماء السبعة والخمسين؟

ـ أسماؤهم كلهم مكتوبة هنا، أيها المترجم المحترم. انظر إلى شعرى الأبيض أيها المترجم المحترم. أأنا إنسان يكذب؟ إن كل القرية اختارتنى بالإجماع وأرسلونى إلى هنا إليكم. قالوا لى: اذهب إليهم واشرح لهم الموضوع كما هو، قالوا لى إن الألمان والمترجمين سيصدقونك.

الجاويش يقول لى، وأنا أنقل ما يقول إلى العمدة العجوز:

ـ هذه مسألة صعبة للغاية .. صعبة للغاية .. صعبة جداً..

صمت قصير..

ـ قد نعطى ترخيصاً لرجالك ونطلق سراحهم. لكن عندنا فى المعسكر جياع كثيرون وينبغى أن ترسل بعض الطعام لهم.

وفجأة قال العمدة العجوز وهو يضرب الأرض بالعصا التى فى يده:

ـ أرجع حالاً إلى القرية، وحتى وقت الظهر أكون قد أرسلت إليكم عشر عربات خبزاً، عشر عربات، سينفذون ما أقوله لهم وسيعطونكم عشر عربات خبزاً! سينفذون أمر المترجم المحترم! سأشرح لهم الأمر جيداً.

وسريعاً ترجمت كلام العمدة إلى اللغة الألمانية، سحبنى شولتس إلى جنب وهمس فى أذنى قائلاً:

ـ قل للعجوز أن لا لزوم للعربات العشر.. نريد أشياء أخرى مثل السمن والجبن والبيض. أفهمت؟ هيا اشرح للعمدة هذا جيداً.

ابتسمت فى داخلى لأن الجاويش سيطعم الأسرى البيض والجبن سألته

قائلاً:

ـ بيض وجبن؟

ومرة أخرى قال بهدوء، لكن بانفعال:

ـ نأكله نحن .. أنت .. أنا.. اليوزباشي بوخ.

إذن، فقد اتضح سبب مجيء شولتس إلى الإسطبل في الصباح الباكر وأخذه لي، ومعنى الفرحة والانفعال في عينيه. شرحت المسألة للعمدة وتفاهمنا مع زميليه الآخرين. وعدنا أدراجنا إلى المعسكر. وعندما كان الجاويش يدخل غرفته بحماسة كان المساء قد بدأ يحل. وصل العمدة. عرباتهم في الخارج. قال لي: هيا سريعاً إلى معاونتي. خرجنا وحملنا مع العمد الذين تحدثنا إليهم صباحاً البقج والربطات والأكياس والعلب من العربات. وبعد إفراغ حمولة العربات استدعى شولتس العمد إلى غرفته. وأخذ أسماء الأسرى الموجودين في المعتقل وخرجوا من الغرفة. لم أذهب في تلك الليلة إلى الإسطبل، فقد كتبت أسماء مائة وخمسين شخصاً على تراخيص بالتسريح وقعها بوخ، ثم أفرغنا الجوالات وغيرها، ثم علبنا الأشياء التي ستذهب إلى عائلتي اليوزباشي بوخ والجاويش شولتس وأقربائهم.

وفي اليوم التالي، تم إطلاق سراح المائة والخمسين أسيراً المكتوبة أسماؤهم على التراخيص. وبعد يومين خرجنا مرة أخرى، الجاويش شولتس وأنا، إلى الطريق الإسفلتي. ولابد أن القرويين قد عرفوا طريقة إطلاق سراح الأسرى وحصولهم على حريتهم، لأننا عندما ذهبنا إليهم، كانوا يشيرون إلى عرباتهم بالعين والحاجب، كان اليوزباشي بوخ يأتي إلى القيادة كل صباح ويوقع على مائتي ترخيص ويذهب. وأنا أجلس في غرفة بوخ حتى المساء أكتب الأسماء على التراخيص التي وقعها بوخ. ثم كنت أذهب إلى غرفة الجاويش شولتس. ومرة أخرى، وحتى منتصف الليل، كنا نعبىء العلب إلى

ألمانيا. واستمر هذا حتى نهاية شهر مايو وكان لابد أن يكون لهذا نهاية وقد جاءت.

ذات يوم، رأيت من النافذة، الرجل الأذرى الذى يعمل بالسقاية، يحمل الماء كان يمر من الطريق الذى بجانب القيادة. توقف. يده اليمنى على الحبل الذى فى رقبته. كان ينظر إلى سلالم القيادة الحجرية، كم كانت حالة هذا المسكين تدعو إلى الرثاء. كان يبدو وكأنه قد طال أكثر من ذى قبل. وكان حافى القدمين، ظهر فى وجهه الذى كان جميلاً يوماً ما كما يبدو آثار عميقة لمرض ثقيل. الألمانى بجواره، يقول شيئاً، لكنه هو ينظر ويطيل النظر إلى سلم القيادة، ويبدو كأنه يسمع ذلك الألمانى، ثم انحنى وحمل جرادله، وأخذ يسير نحو المعتقل ونظراته مازالت ملتفتة نحو القيادة. منذ ذلك اليوم وأنا أحمل الخبز فى جيبى. وأخيراً، وذات قبيل مساء، وبينما أنا فى طريقى مع الجاويش إلى الإسطبل قابلت الأذرى فى نفس الطريق وكان كما كان فى نفس الوضع. قلت له:

ـ مرحباً يا آغا.

جفل فجأة، ثم أجابنى بعد أن بدا كأنه يريد قراءة ما فى عينى وفى قلبى:

ـ مرحباً يا أخ.

ـ عرفتنى. أليس كذلك؟ أنا كنت مع اسكندر..

وقبل أن أنهى كلامى، قال الأذرى بذلك الصوت الأجش المبحوح:

ـ اسكندر هرب.

أحسست بهبوط الخوف فى نفسى. سكت.

ـ هرب بمساعدة أصدقائه من رجال الشرطة. كان ظالماً جداً. لكنه كان شهماً.

عندما كنت مع الأذرى كان شولتس يتجه إلى الجندى الألمانى المسلح.

التفت الأذرى برأسه نحو القيادة، كأنه يريد الابتعاد عن التحدث فى موضوع اسكندر. قال وهو ينظر إلى السلم:

- طوال يومين وأنا أقف هنا على هذه الأدراج وأنظر هنا وهناك بغية رؤيتك يا أخ.

- وأنا أيضاً انتظرتك كثيراً.

- مرضت ثلاثة أسابيع لازمت فيها الفراش. كان السعال الشديد ينتابنى ليلاً، وكنت أبصق دماً، كان حالى صعباً يا أخ، ولا أدرى لماذا لم يقذف بى العاملون فى الوحدة الطبية إلى الحفرة ويتخلصوا منى. مازلت أعجب لهذا يا أخ. كم كانت أياماً سيئة!

وإذا بالأذرى يشد حبال الجرادل، ويبكى، ويقول بصوت كالمخنوق:

- لم أعد أستطيع المقاومة يا أخ، لم يعد فى إمكانى التحمل. مددت الخبز إليه. خبأها تحت إبطه.

- لا تبك يا آغا، كلنا فى الهم سواء.

رفع رأسه، ونظر إلى، يبدو أنه كان يريد أن يبتسم، لكن طرفا شفتيه تحركا قليلاً:

- ولكنك كبرت كثيراً يا أخ. اسمك على كل لسان فى المعسكر.

- اسمى أنا؟ ولماذا؟

- آه! لقد أنقذت كثيراً من الناس ومن الأرواح بتلك التراخيص.

- كان هؤلاء أسرى، تم إطلاق سراحهم بموجب أمر القائد، وليس لى دخل فى هذا.

- نعم! ولكن يدك كانت فى هذه التراخيص يا أخ، لك كلمة الآن، أهذا مزاح؟!! أنت رجل متعلم. تتحدث الألمانية كالألمان.

ثم اقترب منى قليلاً، نظر إلى الجندى الألمانى، ثم إلى شولتس الذى كان يتحدث معه، ثم إلى. ثم تحدث بإيجاز، وكأنه يريد أن يلخص شيئاً على

درجة كبيرة من الأهمية فى عدة كلمات:

ـ تكتب اسمى أنا أيضاً على ترخيص من هذه التراخيص، وتعطينى إياه غداً، قبيل المساء، مع الخبز.. أيمكن يا أخ؟

تراجعت إلى الخلف خوفاً مدركاً بسرعة الخطر الذى ستلقينى فيه كلمات الأذرى:

ـ لا يكن مزاحك ثقيلاً هكذا، يا آغا، لقد أرعبتنى.

ـ ولماذا يا أخ؟ أنا مريض، وليس فى مقدورى التحمل.

ـ إذا تحدثت فى هذا الموضوع، ثانية، فلن ترانى.

تغير وجه الأذرى فجأة، أصبح جاداً. نظر إلى وجهى نظرة حركت قلبى:

ـ لا تخف. لن أتحدث فى هذا مرة أخرى. أنا لم أطلب ميراثاً. كل ما أطلب: قطعة ورق، يقولون فى الأمثال «طالب الحاجة له وجه واحد أسود، والذى لا يعطيه له وجهان أسودان» تقول لى لا يكن مزاحى ثقيلاً، يعنى أن المسألة بالنسبة لك مزاح. أما بالنسبة لى فهى إما الموت أو الحياة. ولابد أن تعلم هذا. على كل حال علينا أن ننسى هذا أيضاً.

أمسك بحبل الجرادل وعاد إلى الخلف، كان ينظر إلى الألمانى. كان يريد أن يذهب. أدهشتنى رغبة هذا الأذرى المسكين، لا أستطيع النظر إليه نظرتى إلى إنسان مذنب. كنت لا أدرى ماذا يمكن أن أقول له. اتجهت إليه بأمل أن أطيب خاطره وقلت له:

ـ أتدرى خطورة اقتراحك هذا يا آغا؟

ومرة أخرى، نظر إلى عينى طويلاً، ومرة أخرى، أجد فى عينيه ذلك المعنى الرهيب، هز رأسه وقال:

ـ أنا مريض.. ألا يعرف الإنسان نفسه؟!!

ـ ماذا سيكون مصيرك ومصيرى إذا ضبطوك بترخيص؟

انطلق قبل أن أنهى كلامى، قائلاً:

ـ أنا فقط يا أخ، أنا فقط، أقسم إن أحداً لن يعلم بهذا.

عينا الأذرى كانتا تدفعانى إلى تصديقه بنفس القدر الذى تدفعنى إليه كلماته. هل هو أمل استيقظ فى قلب المسكين؟ لا أدرى. رقت قسمات وجهه. استمر فى حديثه بصوت بطىء لكنه منفعل:

ـ إنى أعرف القرى المجاورة جيداً. لقد أديت الخدمة العسكرية هنا ثلاث سنوات وكثير هنا الذين يعرفوننى. حتى نساء القرية وبناتها.. وكم شربت شراب الراقى هنا آه لو تعرف. أخرج من هنا. فقط أخرج، يا أخ. وإذا خرجت فلن يجدنى أحد.

وافترقنا. وأصابنى الأرق ليلتها. والحق أننى ندمت ألف مرة على مقابلتى للأذرى، والتحدث معه، لم يعد هناك مكان فى قلبى للأذرى، هل يمكن مصادقة رجل لا يتورع عن دفعى إلى الخطر؟ تذكرت الأيام التى قضيتها فى السقيفة رقم «٢»، عندما كنا نتحدث عن اسكندر، فقد كان دائماً ضده. وكنت أنا فى ذلك الوقت أجد اسكندر رجلاً سيئاً، هل هو بالفعل سيىء؟ والآن يطلب منى هذا الرجل ترخيصاً. من يدرى ماذا طلب من اسكندر عندما كنا فى السقيفة رقم «٢»، قد يكون اسكندر قد رفض. وسيغضب منى مثلما كان غاضباً من اسكندر. لكن ماذا عساه أن يفعل! إن الرجل يحاول إنقاذ روحه. ما كان يجب على أن أغضب من هذا. لكننى بعد الآن، لابد أن أكون بعيداً عن الأذرى. إن هذا أفضل شىء. نعم، واتخذت قرارى: سأكون بعيداً عن الأذرى. كنت أريد العيش بسلام فى غرفة شولتس حتى نهاية الحرب. والحرب لا تستمر طويلاً، ستنتهى والنسيان مصير كل شىء. وهكذا كنت أفكر.

كنت فى الصباح أكتب الأسماء على التذاكر فى غرفة اليوزباشى بوخ. وفى المساء كنت أعد أنا والجاويش شولتس العلب المرسلة إلى ألمانيا، ولكن، يبدو أننى كنت أخادع نفسى عندما قلت أن لا مكان فى قلبى للأذرى، إنه

كان دائماً معى فلم أكن أستطيع الهروب منه. لماذا كنت أفكر كثيراً فى إنسان صداقته لى لا تبدو متبلورة؟ لا أدرى. أنا هكذا دائماً أتناقش مع أكثر الأشياء التى أكرهها فى الحياة. ومع أكثر الأشياء التى أخاف منها. كنت قررت فى ذلك اليوم أن أبعد نفسى عن الأذرى ولم أكن، لذلك، أنظر إلى النافذة. لكن قلبى لم يسترح لذلك مطلقاً. واستراحة قلبى لن تحدث إلا إذا عثرت عليه وشرحت له المسألة. ورأيت الأذرى بعد يومين، رأيته بجانب مبنى القيادة. عيناه على سلم القيادة الحجرى وكان يحمل الماء.

وقبل الذهاب إلى الإسطبل، قال الجاويش شولتس إن على أن أكتب ثلاثمائة ترخيص فى اليوم التالى. خرجنا معاً، وكل ما فى ذهنى دائماً: الأذرى وشولتس وبوخ والتراخيص. ثلاثمائة اسم! ثلاثمائة إنسان!.

كان شولتس يطلب دون أن ينظرْ لوجه واحد من العمد: البيض والجبن. والعمد يريدون كتابة الأسماء التى يريدونها على التراخيص، والأسير الذى يحصل على واحد من هذه التراخيص، يضمن سلامته، وكنت أعرف هذا جيداً، وكان الأذرى أيضاً يعرف هذا جيداً. هل من اللائق أن أخاف من تقديم معروف؟ إنسان أمامى يقول إنه يموت. وفى إمكانى إنقاذه. ترخيص! ترخيص واحد ماذا يعنى؟ بالنسبة لى لا شىء إطلاقاً. إن هذا لمن الصدقة التى يتصدق بها الإنسان! وهى له تعنى التحرير. وهو اليوم، عيناه على سلم القيادة الحجرى يحمل الماء. وأنا لم أكن أريد حتى النظر إليه، ذلك لكى لا أراه. ترى هل ما أفعله صحيح؟ وماذا إذا مات؟! وأنا، كنت أستجدى النجدة من شرطى كافر عندما هربت من السقيفة رقم «٢»، ثم كيف أخذنى الشرطى الذى فى المستشفى إلى السقيفة رقم «٢» مع أنه يعرف أننى من السقيفة رقم «٥»، وعندما كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت، ألم يساعدنى الطبيب الأرمنى؟ ثم بعد ذلك أتغاضى عن مساعدة الأذرى!!!.

غداً سأكلمه. ماذا لو أخذت تذكرة ترخيص معى، وأعطيتها للأذرى مع

الخبز؟ أفكر فى كل شىء وأستعرض أمام عينى كل شىء.. ولكن عندما تخطر على بالى كلمة ترخيص أجد ركبتى ترتعشان.

كنت ذات صباح بمفردى فى غرفة اليوزباشى بوخ. كنت أكتب الأسماء على التراخيص فخطر فجأة على ذهنى ذلك الأذرى، فاندق كالمسمار فى تفكيرى، لم أستطع خلعه وإلقاءه كتبت اسماً آخر تماماً محل اسم كان من المفروض أن أكتبه على ترخيص من التراخيص ولا أدرى أنا نفسى كيف حدث هذا. وعندما فطنت إلى ما فعلته بدأت أرتعش خوفاً. عرقت عرقاً بارداً، وأصبحت لا أدرى ماذا أفعل. انفتح الباب ودخل شولتس، قال:

ـ هيا يا صادق، أسرع فى الكتابة.

وبالعرق المتجمع على جبهتى خرجت، لأدخل بعد ذلك غرفة شولتس، ومرة أخرى أعددنا العلب المرسلة إلى ألمانيا، كان الجاويش يتحدث بسرعة وكنت كالطفل الذى لم يحمل معه نقوداً فى حياته أكثر من خمسة قروش، فأصبح معه الآن فجأة خمس ليرات كاملة، سرقها من محفظة أبيه. أتذكر الترخيص الذى فى جيبى فأرتعش. لم أستطع طوال اليوم أن أنظر فى وجه شولتس، يومان والترخيص فى جيبى، أذهب به إلى الإسطبل وأعود منه. وأرى الأذرى، ولا أجسر أبداً أن أعطيه الترخيص. وأخيراً، اتخذت قرارى الحاسم عندما رأيته فى نفس الطريق. انتظرت المساء بفارغ الصبر، كنت أنظر بين الفينة والفينة من النافذة. كان فى نفسى ضيق لا ينتهى. بعد أن اتخذت قرارى لم أكن أفكر حتى فى الأذرى. كنت أريد فقط أن أعطيه الترخيص ولا أراه مرة أخرى. كنت أرغب فى الحياة فى سكون فى غرفة شولتس ليهرب الأذرى. ثم ليحدث له بعد ذلك ما يحدث، فلا شىء بعد ذلك يهم. ألم أقل له لا تهرب؟ وإذا هرب، فسأستطيع أن أعيش كسابق عهدى. إنى اليوم أخاف من كل الناس لا أستطيع النظر إلى الجاويش شولتس ولا إلى وجه اليوزباشى بوخ. وإذا حدث ونظر أحد إلى وجهى، ارتعشت خوفاً،

إلا أن هذا لن يستمر إلا إذا هرب هذا الرجل.

يبدأ المساء. لم أعد أخاف. لم أعد أفكر فى شىء، ولا حتى فى الأذرى. كل ما كنت أريده ألا أقابله وجهاً لوجه مرة أخرى. وأخيراً، طرق الباب، ودخل شولتس الغرفة، خرجت معه دون كلام ودون أن ينظر أحدنا إلى وجه الآخر. قطرات المطر المتساقطة من سحابة سوداء تمر من فوق المعسكر. هدأت حدة التراب فى الميدان. الجاويش شولتس يتوقف. نظر أولاً إلى السحابة، ثم إلى وجهى. وقال وهو يضحك:

ـ أليست لديك نية فى الهرب من الأسر يا صادق؟

حدث شىء فجأة فى أعماقى لأننى لم أستطع فهم ضحكته، فأجبته قائلاً:

ـ لا، يا هرفيلد فيبل.

ـ إنى واثق من هذا. كنت أمزح. كما أن لا أحد يستطيع الهروب من هنا. اذهب بمفردك هذا المساء إلى الإسطبل، لأنى إذا جئت معك فإن المطر يفسد على ملابسى الرسمية، قال هذا، وعاد، ودخل مبنى القيادة.

تقدمت أنا نحو الإسطبل، كنت أسير بمفردى لأول مرة وأنا فى الأسر. كنت سعيداً وقبل أن أصل إلى الطريق رأيت الأذرى يأتى نحوى والجرادل على كتفيه وبجانبه جندى ألمانى. نظرت نحو القيادة لأرى إن كان شولتس قد دخل غرفته أم لا. لم يكن أحد فى المكان غير الأذرى. وبجانبه الألمانى، وصلت إلى جهة الأذرى، رأيت فى وجهه التعبير الدائم عن نفس الاضطراب. ينظر إلى عينى، وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ودون أن أترك له وقتاً للكلام مددت إليه الخبز الذى فى يدى، وقلت له:

ـ خذ يا آغا. وأظن أننا سوف لن نلتقى ثانية. كان الله فى عونك.

وبينما كنت أمد له الخبز امتلأت عيناه بالدموع. نظر تارة إلى الخبز، وتارة إلىّ وبدأت عيناه تدمعان. أمسك يدى. قلت له:

ـ في داخل الخبز.. أعانك الله.
وافترقنا.

لا أدرى ماذا فعل الأذرى فى تلك الليلة، ولا فى اليوم التالى، ولا أين هو. أما فى صباح اليوم الثالث فقد حدث ما لا يمكن أن أنساه طوال عمرى.

كنت أكتب الأسماء على التراخيص فى جناح اليوزباشى بوخ. وكان كل من بوخ وشولتس يجلسان فى مواجهة كل منهما للآخر. كان فى الغرفة هدوء بارد. وبين الحين والحين كانت صفحات دفتر أو كتاب تفتح وتغلق. فتحدث صوتاً كصوت الأغصان الجافة المكسورة فى غابة كثيفة. أحياناً، كان اليوزباشى بوخ، يخرج من جيبه علبة دخان فضية، وفى تلك اللحظة، ينطلق الجاويش بسرعة ليشعل الكبريت ويقدمه لليوزباشى بوخ ثم ليعود ليجلس مرة أخرى على مقعده. كان هناك جندى آخر على منضدة فى مكان قريب من النافذة، مضى يومان على مجيئه إلى القيادة. كان يبدو عليه أنه مغتاظ لجلوس أسير مثلى فى نفس الغرفة مع الألمان. كان يمر من جوارى فينظر إلى وجهى نظرة خائنة. ويتكبر. ماذا علىّ من نظراته! لينظر ما شاء له النظر! لم أهتم به. هذا العمل إنما هو مسئولية اليوزباشى بوخ. إنه هو الذى يجعلنى أعمل هنا. أحاول من ناحية أخرى كالطفل مع هذا الرجل. كان له وجه يثير العجب. فقد كان يشبه الخنزير بملامحه. جبهة ضيقة بارزة العظام. عينان زرقاوان صغيرتان. جسم طويل نحيل، أنف مدبب، لحية قصيرة وتحت لحيته لغدان. شعر مقصوص قصير فى شقرة تقرب إلى البياض. حاجباه بيضاوان، رموشه بيضاء، إن خالقى وخالق كل الناس هو الله. ولكن عند النظر لشكل هذا الإنسان، يقفز إلى الذهن فوراً نظرية درسناها فى المدرسة قلت لنفسى:

ـ ... لو رأى داروين، هذا المغفل، لاعتقد أن أصل الإنسان خنزير وليس قرداً.

ولو يكن الأذرى يعيش الآن فى داخلى، هذا الأذرى، ذو قد السرو ونظرة الصقر، لما تحدثت عن هذا الرجل.

كان نفس الهدوء الممل يسود الغرفة، ومنذ ساعات وشولتس صامت مع أنه يحب الكلام. يبدو أنه ينتظر خروج اليوزباشى بوخ من الغرفة. حان الآن وقت الذهاب إلى المطبخ لإحضار طعام غذاء الجاويش.

وفجأة سمعنا أصوات وقع أقدام فى الممر، وأصوات صياح، اتجهت نظراتنا نحن الثلاثة: أنا وشولتس والألمانى الجالس بجوار النافذة، نحو الباب، قال اليوزباشى بوخ - وهو فى مقعده - شيئاً للجاويش شولتس دون أن يرفع رأسه. نهض شولتس، وبينما يهم بالخروج إلى الممر انفتح الباب و.. دخل الأذرى وهو عارى الجسد تماماً، بين جنديين ألمانيين مسلحين، ودماؤه فى وجهه الأبيض تسيل حمراء، حمراء. لكن كانت جبهته عالية وفى عينيه نظرات مرعبة. واحد من الألمانيين ألقى التحية العسكرية بشدة على اليوزباشى بوخ، ثم بدأ يفصل فى المسألة تفصيلاً، كان الأذرى ينظر إلى سقف الغرفة، وهو مفتح عينيه الكبيرتين أكثر، ويبدو وكأنه لا يرى خطراً قط. لم يكن يدير رأسه حتى لى، يبدو كأنه ربط قلبه بسلاسل، ولم يعد يمت فى الحياة بصلة إلى البشر. أما أنا، فكنت أفكر فى نفسى أكثر ما كنت أفكر فيه. كنت أريد أن ينتهى الأمر سريعاً بأى شكل، ليس بالنسبة لى وإنما بالنسبة له، لكنى كنت أرتعش من أجل سلامة نفسى. من أجل سلامتى. لم أكن أستطيع النظر إلى صورة الدامى العارى.

الجندى أمام اليوزباشى بوخ، يشرح له الأمر، واليوزباشى يستمع بدقة واهتمام لكلامه، ويبدو أنه يريد أن يفهم كل شىء. وكان أيضاً ساكناً هادىء الأعصاب. كان الجندى يشرح بتفصيل دقيق وبحماسة، عملية القبض على الأذرى بحماسة تظهر بطولته أمام ضابط من رتبة كبيرة يستمع إليه، وربما يأمل أن يمنحه قائده ميدالية. وفى وسط كلام الجندى ضرب اليوزباشى

بوخ، فجأة، المنضدة بيده، ونهض واقفاً، وعند رؤيتي لليوزباشي بوخ التقت عيناي على غير قصد مني بعيني الأذري. يبدو أنه يريد أن يقول لي بنظراته من بعيد «لا تخف يا أخ». تحركت أطراف شفتيه، وضحك بشكل غريب. في تلك الأثناء، قام اليوزباشي بوخ يضع قبعته على رأسه وقال شيئاً ثم خرج من الغرفة.

والآن.. ماذا سيحدث للأذري؟ كان مازال حتى الآن، يقف منتصب القامة كأنه تمثال أحد الأبطال. كان بين الجنديين الألمانيين. أمسك الألمانيان بكتفي الأذري. في الغالب، سيأخذانه ويقتلانه في الحفرة.. لا.. إنهما حلا يديه المربوطتين خلفه. ماذا سيحدث؟ قام الألماني ذو الوجه الخنزيري الذي بجوار النافذة.. واتجه نحو الأذري، وكان في يده مفتاح مربوط إلى سلسلة. في الغالب، سيدخلون الرجل المسكين إلى السجن. حلا يديه. لماذا؟ ماذا يفعلون..؟ لا أستطيع فهم هذا. مازال الأذري ينظر بتلك النظرات الخالية من الخوف. وعندما صعد الجنديان على المنضدة وأدخلا طرف الحبل المربوط برسغيه، بالحلقات الموجودة في السقف، فهمت مرادهم. الألماني ذو الوجه الخنزيري، بجوار الأذري، ينظر إليه وإلى عينيه الممتلئتين إيماناً. يهز المفاتيح الموجودة في يده، ربما كان مستاءً من موقف الأذري الهادئ الوقور، فكان يسبه. كان يزعق على الألماني الذي يدخل الحبال في الحلقات، على المنضدة.

سحبوا الأذري بالحبال حتى منتصف الغرفة. كنت أرتعش، مع أنه لم يكن قد قال آه بعد. وقفت، واتجهت نحو الباب. الألماني الخنزير يصيح كالمسعور. ويضرب الأذري على رأسه وعلى وجهه بالمفاتيح الموجودة في يده، وأثناء خروج هذه الشتائم والسباب والصياح والزعيق الموجه إلى الأذري، كانوا يسحبونه إلى الحلقات الموجودة في سقف الحجرة. جسد الأذري الأبيض الطويل يهتز في الفضاء. رأسه يتدلى خلفه. والدماء تتسرب مز

رأسه ومن كتفيه إلى أسفل. كاد الإغماء يصيبنى إلا أنى تمكنت من الذهاب إلى غرفة الجاويش شولتس وأنا ممسك بالجدران. والأصوات الآتية من غرفة بوخ تنغرس فى قلبى كالخنجر. ثم يسود الهدوء. هدوء أصم مخيف كأن لم يعد فى الدنيا غيرى. وعواء غريب يأتى من تحت الأرض. انتظرت مقدار ساعة وأنا أستند إلى الحائط وأخيراً.. فتحت الأبواب فى الممر.. صريرها مسموع ثم.. مناقشات وصياح.. كان الألمان يخرجون إلى الميدان.

نظرت من النافذة، رأيت الأذرى بين الألمانيين المسلحين وقد أصبح جسده أحمر شديد الاحمرار، من جراء الدم السائل عليه، وكان ممسكاً ببنطاله لكى لا يقع ولم تكن هذه أول مرة أرى فيها أحد أفراد أمتى يساق إلى الموت فيسير فى عزة وفخار هكذا.

قتلوه.. وعاد الألمان والدماء حتى أذرعهم ومعاصمهم، بعدها أقسمت ألا أخاف من الحياة، ومن الموت والبشر.

وبعد يومين من قتل الأذرى، استدعانى اليوزباشى بوخ إلى غرفته، ولم يكن بى أدنى خوف، كنت مستعداً لكل شىء. إذا كان الترخيص الذى أعطيته للأذرى هو موضوع الحديث فمعنى هذا أننى ميت. لقد أقسمت ألا أخاف من الموت. لم أستطع أن أتمالك نفسى من التفكير فى الترخيص، قبل أن أدخل الغرفة كنت سأتقدم بمجرد أن يفتح اليوزباشى بوخ الموضوع إلى الألمانى الخنزيرى الوجه وأبصق على وجهه.

فتحت الباب، دخلت الغرفة. حييته بتحية جادة، بادلنى اليوزباشى بوخ السلام واستقبلنى بلطف وأشار إلى بالجلوس. جلست. عيناه التى أراها عدة مرات تقذف شرراً وأخاف منها أجدها الآن فى هذا الصباح ذات نظرات هادئة سألنى قائلاً:

ـ أى علف يقدمونه للجياد فى وحدات مدفعية الجيش الأحمر؟

كان هذا سؤالاً غريباً. ترى هل لليوزباشى قصد خفى، فبدأ بهذا

السؤال؟

هكذا كنت أفكر، ثم إننى تعجبت لاهتمام الألمان بمثل هذه الأشياء، كنت لا أدرى كيف أجيبه عن هذا، فقلت له:

ـ لم تكن لى علاقة بالجياد فى الجيش يا هرهاوبمان (١). أعرف أنواع البترول المستخدمة فى الدبابات. إذا كان هذا يهم سيادتك، فإنى أستطيع قوله:

ـ أى نوع من الدبابات كنت تقود؟

ـ ب ٢٧ وب ٢٨ وب ٢٩.

ـ وهل كانت هذه أفضل الدبابات؟

ـ لا، إنها أكثرها سوءاً.

ابتسم:

ـ إذن ما هو أحسنها؟

ـ ت ٣٤، لكنى لم أدخلها، وإنما رأيتها من بعيد.

انتهى حديثنا. هناك ضابط آخر لا أعرفه. يقف على قدميه بجوار شولتس وبوخ. كل واحد الآن مشغول بعمله. ولا أحد ينظر إلىّ. كنت أنتظر عسى أن يسأل اليوزباشى بوخ أسئلة أخرى. لكنه كان يصمت. وبعد قليل قال لى، وهو ينهض على قدميه:

ـ نحن ذاهبون إلى الجبهة، وستأتى وحدة جديدة إلى المعسكر.

عجبت لأنهم يقولون لى أنا، هذا. لكنى لم أتكلم. أما هو فقد استمر قائلاً:

ـ وأنت. ينبغى أن تعود إلى هناك. إلى المعسكر.

وسار نحو الباب، لكنه، وقف قبل أن يدلف إلى الممر، واستغرق فى التفكير ثم قال:

---

(١) اليوزباشى

ـ أنا لا أريد لك أن ترجع إلى المعسكر، وسأرسلك إلى القيادة العامة. وهناك ربما تحصل على تزخيص، وتسترد حريتك.

وخرج من الغرفة، ولم أر اليوزباشي بوخ بعد ذلك مرة أخرى. تركنى فى حيرة وطوال اليوم وأنا أفكر: إلى أين سأذهب، وكيف سأتحرر؟ وقبيل المساء، قال لى الجاويش شولتس إنه هو الآخر قد عين فى إحدى الفرق الموجودة فى الجبهة. سألته عن سبب سؤال اليوزباشي بوخ واهتمامه بالعلف الذى يقدم للجياد فى الجيش الأحمر فهز كتفيه، واكتفى بقوله:

ـ ربما لأنه هو شخصياً من فرقة مدفعية الجياد.

وكانت هذه المحادثة هى آخر عهدى بالجاويش شولتس، وفى صباح اليوم الواحد والثلاثين من عام ١٩٤٢، فى ساعة مبكرة جداً منه، خرجت من أبواب معسكر الأسرى رقم «٢» فى أومان، وفى ذراعى صرة صغيرة، وبجوارى جندى ألمانى شاب، مسلح.

نسير عبر طريق يؤدى إلى المدينة، وهو طريق موحل محدب، كانت شمس فى لون الدم ترتفع من خلف كنيسة فيها برج جرس دقيق جداً وكان فى أعلاه إبرة، أسمع أصوات حيوانات فى الحدائق، نوافذ المنازل تتفتح، رجل فى طريقه إلى عمله، وأحياناً يمر قروى شارد الذهن، بجوارنا، فى عربته، الشمس ترتفع، وكلما ابيض لونها، يترك سكون الصباح مكانه للحياة المليئة بالضوضاء، الحياة أيضاً هى نفس الحياة القديمة. لم يتغير فيها شىء. وأنا أيضاً نفس الإنسان، كل ما هنالك أن جندياً مسلحاً يسير بجوارى، ولولا وجوده، لأخذت دورى أنا أيضاً فى الحياة أختلط بالناس وأصبح واحداً من هؤلاء الناس.

قال لى اليوزباشي بوخ: ربما يطلقون سراحى.. ربما.. بيد أن تصديق هذا صعب ولكن من يدرى؟ ربما.

قبل ثمانية أشهر عندما كنا ذاهبين إلى معسكر أومان مسوقين فى هذا الطريق طمعت فى المدد من تلك الأكوام الأرضية. ما أعجب هذا! لقد فقدت

الأومباشى مصطفى عليه رحمة الله فى هذا الطريق. لا أذكر كيف فقدت مصطفى؟ كم كانت تلك الأيام رهيبة، إنى حتى الآن أتطلع إلى الأكوام الأرضية هذه فتتولانى الرعشة، ماذا لو عاد الألمانى الذى معى فجأة من حيث أتى ليسلمنى إلى المعتقل!

الألمانى لا يتكلم. وأنا بدورى أتقدم وأنا بجواره، بهدوء. لا أدرى إلى أين نذهب كل ما أعيه أننا نبتعد عن أكوام الأرض وعن المعتقل. قال لى اليوزباشى بوخ: ربما يطلقون سراحك، وكأنى أريد الآن قياس الفرق بين الحرية والأسر، فأنظر إلى الحدائق الشديدة الخضرة، وإلى النساء أمام البيوت، وإلى الأطفال يجرون فى الشوارع.

كنت أرى أن أتكلم، وأنهى حالة الأسر. ولكن لن أطيل الكلام، نطلق نحن أهل القرم على الذين يطيلون الحديث ويستطردون فيه ويمطونه، إنهم يأتون بالماء من ألف جدول ماء. فكرت أن ذلك يمكن أن يقال عنى عند قراءة هذه السطور. عندما كنت طفلاً، كنت أريد أن أصبح شاعراً، حتى إنى كتبت الشعر فى دفاتر زملائى فى الفصل الدراسى، لفنى شعور ورغبة فى أحد الأيام أن أصبح روائياً. وكان ذلك بعد قراءتى لرواية هزتنى كثيراً. كنت سأكتب حكاية بعنوان «القاتل الأبيض» وجدت العنوان. وحول هذا العنوان أرسلت خيالى أسبوعين كاملين. كم كنت أفكر بعمق. كم كنت أفكر بسعة! فكرت كثيراً ولكن ما العمل؟ ليس فى تفكيرى شىء، ولم أستطع كتابة شىء إلا عنوان الرواية.

والآن، عندما أقترب نحو حدود حريتى، وكلما أطلت قصة «المذكرات» أريد أن أطيلها أكثر. هل مازالت الرغبة فى الكتابة كامنة فى ذهنى؟ أعرف أن النفس تتضايق من الكلام الطويل، ولكن ما الضرر فى ذلك؟ إن هذه القصة خاصة بى شخصياً، وهى بنفس القدر أيضاً تخص من أحب.

ندخل المحطة، فى المحطة جمع غفير من الجنود الذين ينتظرون إرسالهم إلى الحرب. قطار مملوء يستعد للتحرك. تتدلى رؤوس أغلبها شقراء إلى

خارج النوافذ. عند المرور من جوارهم أشار واحد علىّ، بأصبعه، إنه غالباً يتحدث عن البذلة التى كنت أرتديها.

وبينما أركب القطار. أنظر نظرة أخيرة إلى الأكوام الأرضية، وإلى المعسكر المعتقل وإلى أبراج الحراسة، وإلى أسقف السقائف. ها هى ذى أفظع بانوراما فى حياتى! وفى لحظة برز إحساس بكل الطرق التى سرت فيها. وبالناس الذين عرفتهم وفقدتهم وبكل ما قاسيته. وبصوت أسير مسكين يصيح ويئن تحت عصا الألمانى. هذه النظرة كانت هى النظرة الأخيرة. وهذه الستارة هى آخر ستائر حياة الأسر التى عشتها. وربما آخر ستارة للحياة التى عشتها حتى تلك اللحظة، ثم، بقيت خلف ستارتين أو ثلاث وخرجت خبيراً بالدور الذى يمكن أن ألعبه فى الحياة الجديدة التى بدأت أعيشها.

وعندما أفكر، الآن، فى كل هذا الذى مضى، أقول لنفسى: ترى هل كان هذا حلماً؟ لا، لم يكن حلماً، كان كله حقيقة، وأشعر بالأسى لأننى لم أستطع كتابة هذه الحقيقة بأسلوب راق.

ذهب بى الجندى الألمانى الشاب، إلى ديوان نصف مظلم فى نهاية القطار. وكان هذا الديوان خالياً. نوافذه مغلقة بالخشب، والخشب قد ضربت فيه المسامير وليس فيه فتحة ولو صغيرة يمكن النظر منها إلى الخارج. تعجبت، ولكن هذا كان أمراً بسيطاً، فمنذ متى وأنا أعيش فى الظلام قبل هذا، ماذا سيحدث فى رحلة ساعة أو ساعتين فى ديوان، فى قطار مظلم، ولم يكن هذا المكان بأسوأ من السقيفة رقم «٥»، أليس كذلك؟ وأخيراً تحركنا. وتحت الضوء الضعيف فى مصباح كهربائى فوق رأسينا، جلسنا أنا والألمانى جنباً إلى جنب. لم نكن نتكلم. ولم يكن فى ذهن الألمانى، ولا فى ذهنى ذلك الموضوع الذى يجعلنا نتكلم فيه. أفكر بالماضى أكثر مما أفكر فى المستقبل، لم أكن أستطيع أن أنسى الأذرى. وكل الطرق التى مررت بها، تأتى أمام عينى، وفى نهاية كل الطرق كان الأذرى بوجهه الدامى

يتراءى لى، ألم أتسبب أنا فى موته؟ كنت أقول: لا. لكن خروجى من الغرفة، عندما كانوا يسحبونه بالحبال المربوطة برسغيه إلى الحلقة الحديدية.. خروجى هذا، ألا يعطينى الإحساس بالذنب؟ كان الألم يعتصرنى فى ذلك الوقت، لا أستطيع إبعاد هذه اللوحة من أمام عينى.

نزلنا من القطار فى منتصف الليل. المكان معتم والمطر يهطل.. ابتعدنا عن القطار. الألمانى الشاب بجوارى. يبدو أننا فى سهل. لماذا نزلنا من القطار هنا؟ أين المحطة؟ ضوء خافت يظهر من بعيد. الرياح تأخذ المطر لتدفعه إلى وجهى وأذنى. خرجنا إلى الطريق الإسفلتى وتقدمنا نحو الضوء الظاهر. لاحظت وجود بيت صغير على الجانب الأيمن وعربة نقل كانت تقف بجوار البيت. اقتربنا من سيارة النقل هذه، رأيت فى الظلام شكل رجلين. أشعل واحد منهما مصباحاً كهربائياً فجأة. تقدم الألمانى الشاب الذى بجوارى نحو الضوء بسرعة. وألقى تحية عسكرية قوية، وقال شيئاً، ثم سلمنى لهذين الرجلين ثم عاد إلى القطار.

اللذان تسلمانى، جنديان.. كلاهما يحمل رتبة جاويش. كانا طويلى القامة سليمى البنية. كل منهما يرتدى جاكتة مبتلة بالمطر، جلدها لامع. قابلانى وكأنهما صديقان قديمان. أعطانى أحدهما سيجارة، وأشعل الآخر لى قداحة. وركبنا سيارة النقل سريعاً. أريد أن أعرف إلى أين سنذهب وأسأل إلا أن الشجاعة لم تواتنى. ذلك لأن هذين الجاويشين لم يبديا اهتماماً بى. وصلنا إلى المكان الذى سنصل إليه بعد منتصف الليل، وتوقف المطر. وفى ضوء القمر الذى يتحرك بين السحب المرتفعة رأيت بناء كبيراً أبيض اللون، فى وسط أشجار السنط. والشىء الذى لا يمكن أن أنساه أن أومباشى ألمانياً كان ينتظر سيارة النقل، على درجات سلم البناء وعند نزولى من هذه السيارة أسرع وصافحنى شاداً على يدى بحرارة، وأظهر لى احتراماً وأدباً ملحوظين.

تحدث معى بلغة روسية عذبة تتحدثها الطبقة الروسية الراقية. وقال:

ـ إنها لعادة، أن نستقبل ضيوفنا هنا، ليلاً.

واعتذر لى. نعم لى. اعتذر عن التقصير الذى يبديه فى استقبالى. لم أصدق أذنى، وأخذت أشك فى هذا الأومباشى وكأنى فلاح ساذج فقير يتعجب ويقول لنفسه أى عيب يمكن أن يكون فى بضاعة رخيصة رخص التراب بل أقل منه قليلاً؟ وبعد المطر كان فى الجو طراوة ذات رائحة طيبة. وكان الأومباشى يتحدث بنفس الصوت وبنفس الأدب. سرنا معاً نحو منزل صغير ملاصق لمبنى أصفر. غرفة صغيرة، نظيفة، دافئة، فى وسطها مقعد وثير مغطى بالجلد، ومنضدة، فى الجانب الأيمن باب.. أشار إلى الأومباشى بالجلوس على المقعد وغاب هو خلف الباب الذى فى الجانب الأيمن. خفت قليلاً من الأدب والاحترام اللذين لاقيتهما. وكان لدى إحساس بعدم الراحة. جدران الغرفة وكل أثاثها ينظر إلى، وكأنها تراقب كل حركاتى وسكناتى، وكان كل شىء فى الغرفة له عيون وآذان لا بد أن هذه هى القيادة العامة. ترى هل يرخصون لى بانتهاء الأسر؟ هل سيسلمون إلى الترخيص غداً صباحاً؟.. ربما.

عاد الأومباشى الذى يتحدث الروسية وفى يده ملابس نوم نظيفة وبشكير أبيض كبير. وقال:

ـ الحمام جاهز يا سيدى. وسأعد لك الشاى أثناء وجود سيادتك فى الحمام. وأرجو المعذرة، لكن غداً سيكون كل شىء على ما يرام. بعد إذن سيادتك.

فتح أحد الأبواب الموجودة فى الممر الطويل، وأشار إلى غرفة الحمام، بعد الحمام شربنا الشاى معاً فى حجرة صغيرة. لم أكن أتحدث. عن ماذا أتحدث؟ كان هذا الرجل ينظر إلى وجهى وكأنه صديق، بنظرات لا معنى لها. لكن البراءة ظاهرة فيها سألته لكى أفتح موضوعاً للكلام، أثناء تناولنا الشاى، فقلت له:

ـ هل سيادتك روسى؟

قال:

ـ لا. أنا ألمانى.

وابتسم. ابتسم كأنه يخفى شيئاً عنى.

ـ أنا ألمانى. ولكن هنا كثير من الأصدقاء الروس مثل سيادتك، غداً تتعارفون وتتصادقون.

ثم قال:

ـ ستسر سيادتك بالإقامة هنا. نستيقظ فى الثامنة، نتبع شيئاً من النظام العسكرى ولكن لا تنزعج. على كل حال إنى أجد سيادتك الآن متعباً. استرح سيادتك وسيستقبلكم القائد فى الساعة العاشرة.

نهض وفتح الباب الموجود على الجانب الأيمن. خرجنا. سرنا عبر ممر طويل. ثم فتح باباً آخر. ودخلنا حجرة على امتداده. مصباح كهربائى متقد، أحمر، ذو ضوء ضعيف، على الباب، وفى الداخل حوالى ثمانية أسرة أو عشرة، أخاف بلا سبب ظاهر. لماذا؟ لا أدرى. كنت أتذكر وبشوق، سرير التبن الذى كنت أنام عليه فى أومان، والرومانيين الذين كانوا يشربون الدخان. من هذا الرجل المغفل الذى معى؟ لماذا يبدى كل هذا الاحترام لأسير مثلى؟ أين أنا؟

أشار الرجل إلى سرير فارغ. قال شيئاً بصوت خفيض، لكنى لم أعره انتباهاً. تركنى بمفردى، أخيراً. وفى الضوء الكهربائى الضعيف الذى فوق الباب نظرت إلى النائمين على الأسرة. الغرفة صامتة، صمت يخيف الإنسان. وأخيراً، قررت أن أدع كل مخاوفى وشكوكى، إلى اليوم التالى. فلكل ليل نهار، ولابد أن كل شيء سيتضح صباحاً. من يعلم؟ لعل القائد يسلمنى غداً بعد التحدث إليه الترخيص فى يدى ليطلق سراحى على الفور!!

مددت جسمى على السرير الأبيض النظيف، الطرى، وأغلقت عينى. تداخل فى رأسى كل من الأومباشى الرقيق، وأومان، والجاويش شولتس، واليوزباشى بوخ، والأذرى. تداخل بعضهم فى بعض، ونمت.

يرى الإنسان فى نومه أحلاماً مزعجة، فيستيقظ عرقان. ينهض هارباً من السرير ويعيش فى خوف غريب حتى يطمئن إلى أن ما رآه، إنما هو حلم فعلاً. إنى أعلم مثل هذه المخاوف. إنها كانت مخاوف طبيعية أما خوفى فى ذلك الصباح، فكان بالنسبة لى خوفاً مختلفاً تماماً، خوفاً مستمراً يأخذ عقلى من رأسى، كان هو الخوف الحقيقى. لا أعرف من حولى، ولا أين أنا. كان هذا كابوساً احترت فيه، مر بى وأنا بين الحياة والموت. استيقظت ولم أستطع التخلص منه.

فى تلك الليلة نمت فى السرير النظيف نوماً مريحاً. وكان عقلى نشطاً عندما استيقظت كنت أفكر فى الأمس. لكن كان فى الغرفة حركة. التفت يمنة ويسرة و..تجمدت فجأة. إن الذين يتحدثون بين الأسرة وهم يقهقهون. هؤلاء الذين يتمازحون كانوا روساً. كانوا جنوداً من الروس يحملون فى وسط بزاتهم العسكرية الرسمية، مسدسات، نعم، عساكر روس! ضباط روس! هل ما أراه حلماً. أغلقت عينى وفتحتهما. لم أكن أستطيع تمالك نفسى. ضابط بملابس بكباشى جلس على حافة سريره يتكلم مع الملازم. وعلى صدر الملازم ميداليات لينين، والعلم الأحمر والنجمة الحمراء. كنت أفكر. لكنى لم أعد أتمالك نفسى بوسيلة أو بأخرى.. أين أنا.. ماذا فعلت بالأمس؟ أين نزلت من القطار؟ هل كان الأومباشى الذى تحدث معى بالأمس روسياً!! كلّت عيناى ولم أستطع النظر إلى الضباط ذوى الملابس الرسمية البراقة من حولى. وفجأة، رأيت بين جمع من الضباط الأومباشى المهذب الذى كان معى بالأمس. تقدم نحوى وكنت كمن يستجمع نفسه، أرتدى ملابس النوم المعروفة. يعنى هذا أن ما أراه ليس حلماً. لكن لماذا يرتدى هؤلاء الناس، الملابس الرسمية الروسية! بعد قليل فهمت المسألة.

نظر الأومباشى ـ وهو بجوارى ـ إلى ساعته، وقال ضاحكاً:

ـ أظن أن سيادتك قد تناولت قسطاً من النوم. الساعة الآن العاشرة. وسيكون القائد فى انتظار سيادتك فى الحادية عشرة. وإذا أحببتم،

فتفضلوا بتناول الإفطار.

قال هذا، وخرج، إن مجيء هذا الرجل وتحدثه معى، مع غموضه هذا، يعطى إحساساً بالحياة، فى نفسى، قمت وارتديت ملابسى سريعاً، وخرجت وفى الخارج: الضباط الروس من مختلف الرتب، يتجولون فى الحديقة، تحت أشجار السنط، يداً بيد، وذراعاً بذراع. وفى سقيفة فى طرف المكان، كان «يوزباشى» يرتدى بذلة رسمية ألمانية، يلقى دروساً على ضباط روس، أمامه. عند مرورى بجانب السقيفة توقفت، وأعطيت أذنى لما يقوله اليوزباشى. كان الرجل يتكلم باللغة الروسية. لم يعد لدى إذن أدنى شك فى أن هذا المكان عبارة عن مدرسة جاسوسية، وأننى موجود بين جواسيس يعملون ضد السوفييت. وبعد ساعة أخذنى الأومباشى إلى غرفة القائد. وكانت حجرة مؤثثة بأثاث غال. قابلنى القائد وهو يوزباشى وبجانبه روسى أشقر عريض المنكبين طويل القامة يرتدى ملابس بكباشى روسى. استقبلانى بوجه باسم ورقة حاشية، صافحانى، وأشارا على بالجلوس على مقعد وثير بجانب المنضدة، وسريعاً، اختفت الرقة التى كانت فى وجه الألمانى، وسريعاً أصبح هادئاً ولا يرتسم على وجهه أى تعبير. بدأ الروسى وفى يده قلم، وأمامه دفتر، وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة، بدأ فى التحقيق:

- اسم سيادتك؟

- صادق.

- لقبكم؟

- طوران.

- الرتبة؟

- ملازم.

- الوحدة؟

- دبابات.

- رقم الجيش واللواء والكتيبة؟

ـ الجيش السادس، اللواء السابع والخمسون، الكتيبة الرابعة والتسعون.
ترك القلم والدفتر، ونظر إلى عينى، ودائماً بنفس الابتسامة الزائفة:
ـ أولاً، تفضل سيادتك واختر لك اسماً.
ها هى ذى نقطة فاصلة أخرى فى حياتى. هذا الرجل يريد منى بوضوح أن أعمل جاسوساً. وكنت بدورى سأتحدث معه بصراحة، لم أكن خائفاً. لم أكن مثلما كانوا يظنون بى. أنا رجل مختلف عن الرجال الذين حولى. بسيط، لكنى جسور، أحسست بهذا فى داخلى عندما كنت أنظر إلى الروسى الذى يجلس أمامى. أنظر إلى عينيه الثعلبيتين. فهمت هذا أول مرة هنا. كنت سأنطلق وأصبح وأنا أضرب المائدة بقبضة يدى، وأنا أقول: «لا» وألف مرة لا! لمصلحة من تريدون دفعى إلى النار؟ أنا لست منكم أنا.. أنتمى لأمتى أنا.
كان البكباشى ينظر إلى وجهى وكأنه يقرأ ما يدور بخلدى. كان الروسى يقول لى:
ـ أى اسم تختاره؟ وكيفما كان: ايفانوف، بتروف، فيدوروف، اختر سيادتك اسماً لنفسك أولاً..
أدور فى المقعد أجيب جواباً، لكنى لم أكن جباناً ولا أبكم. قبل كل شىء، استطعت أن أسيطر على الحدة التى فى نفسى. سألنى البكباشى قائلاً:
ـ هل عثرت على اسم، أيها الملازم؟
أقول من المكان الذى أجلس فيه:
ـ لا. إن اسمى صادق طوران، أنا رجل أفتخر باسمى.
يبدو أن الإجابة لم تكن مأمولة ولا متوقعة. نظر البكباشى إلى اليوزباشى. نظر الروسى إلى الألمانى ثم اليوزباشى إلى البكباشى، ثم نظر كلاهما فجأة نحوى وبدأ البكباشى الروسى الكلام:
ـ حسناً جداً، إذن ماذا تريد أن تعمل وكيف ستعيش؟
ـ كما عشت حتى الآن.

ـ يعنى أتعود إلى البلشفيين وتحارب ضد ألمانيا؟

ـ أنا لم آت هنا من بين البلاشفة وإنما من معسكر الأسرى فى أومان، المعسكر رقم «٢» وأريد العودة إلى هذا المعتقل مرة أخرى.

ساد الغرفة سكون عميق. ليس هناك أى تغيير على وجه البكباشى حتى الآن، لكنه يبدو أنه يمكن أن يكون مخيفاً بنفس القدر الذى يمكن أن يكون رقيقاً. أما أنا، فلم أكن أهتم، لم يكن الذى يسيطر على هو عقلى، وإنما إحساسى. وكنت سأقول كل ما أريد قوله:

ـ أرسلونى، أرجوكم، إلى المعتقل، مرة أخرى.

ـ انحنى البكباشى على أذن اليوزباشى وهو يقول شيئاً، ثم التفت إلى، وقال:

ـ اسمع يا ملازم، لا يمكن لأحد هنا أن يذهب إلى حيث يريد. وليس لأحد أن يعمل ما يرغب فى عمله، لا تنس هذا، إن أصل ما أريد أن أقوله لك، لشىء آخر، أنا لست ألمانياً. كما أننى لا أعمل لمنفعة ألمانيا فقط. كل الذين رأيتهم هنا، مثلى.. ونحن أيضاً لنا وطننا ولسنا سيئين، كما تظن بنا. إن حكومة ألمانيا ستعطيك مقابل أعمال بسيطة ستقوم بها، مالاً كثيراً. واعلم أننا نرسلك إلى البلشفيين، سنعيدك بعد شهر أو شهرين إلى هنا. مرة أخرى وفى ذلك الوقت، ستعيش بهذه النقود كما ترغب، وفى أى مكان من ألمانيا تحبه.

قلت مقاطعاً كلام البكباشى الروسى:

ـ إذا استخدمت الحكومة الألمانية هذا المال، فى مكان آخر، فسيكون أكثر نفعاً.

نهض البكباشى فجأة واقفاً على قدميه، وقال وهو يضرب المنضدة بيده، صائحاً:

ـ بلشفى، بلشفى أحمر! إننا نعلم كيف نتحدث مع أمثالك.

كنت أعلم أن الأمر سيصل إلى هذا الحد. لكنى كنت أتوقع هذا من

الألمانى أكثر مما أتوقعه من الروسى. فأجبت من حيث أجلس وبنفس الصوت:

- لست بلشفياً، إنى أشمئز من البلاشفة، لكنى لست مجبراً على العمل فى سبيل منافعكم.

ضحك ضحكة خبيثة وقال:

- لا! أنت مجبر بالفعل، مجبر لإنقاذ حياتك. هل تعرف أن هذه الحياة تكلف كثيراً.

- ومن قال إنى أريد إنقاذ حياتى.

- بالطبع، إن قيمة الساق الخامسة فى جسم كلب، تعادل قيمة الروح فى إنسان يعيش فى الأمن والسلامة.

وفجأة، ارتفع صوته وقال:

- لكن إذا وقعت الروح فى خطر، فإن المسألة تختلف كلية.

سألته وأنا أقف فى مواجهته كالحجر:

- ماذا تريد أن تقول؟

لوى طرف شفتيه بضحكة قبيحة، وومضت لمعة من عينيه الخضراوين وعاد يتحدث بصوت هادىء:

- ألم تفهم بعد أيها الملازم؟ إنى أثق وأؤمن بقول: «بقدر ما تدخل الغابة بقدر ما تجد من حطب».. تعال ولنتحدث قليلاً. لنتحدث بتفصيل أكثر. أنا واثق أننا سنصبح صديقين. أنا لست خائناً ولست إنساناً سيئاً كما تظن.

أخرج من جيبه علبة سجائر. وقال:

- ليدخل كل منا سيجارته من هذه العلبة، هل تعرف اسم هذه السجائر؟ أقول لك أنا: اسمها: قاى بك. منذ متى ولم تدخن القاى بك يا ملازم؟

وكان هذا أيضاً سؤالاً. فقلت له باختصار:

- لم أدخنها قط.

- يعنى ألم تدخنها قبل الحرب، فى روسيا، أو بتعبير الحمر، روسيا

السوفييتية؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لأن ميزانيتى لا تسمح بذلك.

ضحك وقال:

ـ بعد ذلك يا ملازم ستدخن السيجارة التى تحبها وستشرب الشراب الذى ترغبه ومن يدرى أيضاً، ربما ستلهو أيضاً مع المرأة التى يرغبها قلبك.

ـ كل هذا سيكلف ألمانيا كثيراً.

ـ أنت ترفض حياة هانئة.

ـ نعم.

ـ تريد أن تعود إلى المعتقل والقمل والعذاب والاضطراب.

ـ نعم.

ـ عصا الشرطة وخمسون جراماً من الخبز الملىء بالتبن والحصى والزلط. لن تستطيع التحمل يا ملازم. لن تستطيع التحمل.

ـ هذه مسألة خاصة بى. أريد أن ترسلونى مرة أخرى إلى المعسكر.

ـ اطلب ما تريد. لكننا سنطلب حقنا منك.

صمت . وقال بعد قليل:

ـ ليس فى هذا إجبار أيها الملازم. ربما نعيدك كما ترغب إلى المعتقل.. إلى المعسكر .. ولكن..

ـ ولكن ماذا؟

ـ عليك أولاً أن تدفع الدين الذى عليك.

لم أنبس بأى صوت عقب هذا، فكرت أنه يسخر بى. نهض البكباشى بهدوء من على مقعده، ونظر بضع ثوان إلى السقف، ثم ركز عينيه على عينى. وقال:

ـ لم تسألنى أى دين هذا؟

فهززت كتفى.

قال:

ـ أذكرك إذا أردت.

– ليس عيباً تذكير المدان بدينه.

– أخاف أن تكون نسيت. استمع: عندما كنت فى السقيفة رقم (٥) كنت تعرف عقوبة الأسير الذى يهرب من المعتقل. أو الذى يريد الهرب. أليس كذلك؟ أنت هربت وقبضوا عليك. ولكن لم يأخذك أحد إلى حافة الحفرة ولم يسدد أحد الرصاص إلى رأسك. كل ما هنالك أنك نمت فى السجن ثلاثة أيام فقط. ما أتفه هذه العقوبة. ثم أيضاً وأنت فى السقيفة رقم (٥) وبينما كان عزرائيل يمسك برقبتك. أنقذك أحد أصدقائنا. أخذك إلى جواره وقدم لك الطعام والشراب وأعطاك عملاً. هل تذكرت ذلك الطبيب؟!

كان الروسى يقول هذا وأشعر كأنه يثقب داخلى بمثقاب. كنت أسمعه لكن من ناحية أخرى كنت أرى الطبيب الذى كان فى السقيفة رقم (٥) بعينى المغلقتين.

– هذا الكلام هزك قليلاً على ما يبدو. لم تكن تتوقعه. أليس كذلك؟

لم أجب جواباً. قال:

– آه. هذا شيء بسيط، أتحدث به إليك كما يتحدث الصديق إلى صديقه. أعلم أنك رجل طيب. ولو لم تكن كذلك لما أخرجك الجاويش شولتس من المعتقل. ولم يكن اليوزباشى بوخ، ليرسلك إلى هنا. هذه أمور هينة.

كادت مرارتى تنفجر خوفاً من أن يتحدث عن الأذري.

– هل هناك شيء أكبر من هذا؟

وبلمعة خبيثة فى عينيه قال:

– أكبر من هذا وأهم هو: الحرب. سينتهى الألمان من هذه الحرب خلال شهرين أو ثلاثة، لكن هذا يمكن أن يحدث فقط بمساعدة منا نحن الروس.

سكت، ومرة أخري، لف الغرفة صمت عميق. كنت أنتظر لعل الألمانى

يتكلم. كنت أريد أن يتكلم. كنت أنظر إلى وجهه وكأننى آمل منه العون.

استأنف البكباشى كلامه قائلاً:

– ولهذا، فإنك فى هذا المكان.

صحت به قائلاً:

– لست أنا بالرجل الذى تبحث عنه، أيها البكباشي!.

لم أستطع أن أفهم كيف خرجت من فمى هذه الكلمات. لذلك دهشت. لكن البكباشى لم يتأثر بكلامى هذا. واستمر بصوته الطبيعى وكأنه يتحدث إلى صديق من أصدقائه وقال:

– لا تجب هكذا كالأطفال أيها الملازم! إنى أتحدث إليك حديثاً جاداً.

إذا قلنا إن الحرب ستستمر، فلن تستمر أكثر من شهرين، لكن لابد من عوننا فى هذا. هل فهمت؟!. مساعدتنا واجبة. اليوم، ايفان فقط هو الذى يحارب ضد المدافع والطائرات والدبابات الألمانية. ايفان هو مفتاح كل الجبهة، بل ربما إن الحرب كلها هى ايفان. افصل ايفان وأبعده عن ضابطه وكوميسيراته، فسترى أن مئات الآلاف سيسلمون إلى الألمان فوراً. والكرجى أبو شنب يدفع بملايين الروس إلى ميادين الحرب ويتصور أن الألمان لا يستطيعون قتلهم جميعاً. الجندى الروسى جسور. وهذا معلوم والروس يحاربون فى سبيل الوطن. ولكن هل حقيقة أنهم يحاربون من أجل الوطن؟ ايفان المسكين ليس أحمق. وليس لديه أيضاً أيمان باطلة. يجب أن ندخل بين شعبنا. علينا شرح الحقيقة لأتباع ايفان المسكين. فإذا شرحنا الأمر للجنود، وإذا بعد هؤلاء الجنود عن الكوميسيرات، فإن روسيا فى ذلك الوقت..

– حسناً جداً! يا سيدى البكباشي، ولكن ما دخلى أنا بكل هذا؟

– ما دخلك؟ مسألة بسيطة للغاية. رتبتك اليوم ملازم، أليس كذلك؟ أنت فى بلادنا روسيا بكباشي، ربما أيضاً جنرال.

– شكراً، فأنا لست روسياً.

– وما الضرر فى هذا؟ انظر كيف يعانى الأوزبك وهم فى أسر الروس.

ستبدأ حياة جديدة للأقليات مثلكم فى بلادنا روسيا..

- إنى لا أستطيع مشاركتك فى أحاسيسك هذه يا سيدي، بعد هذا، كلانا: يعنى أنتم ونحن، كل منا سيريق الدماء فى سبيل وطنه. ما عاد كلامكم ولا لونكم يدفعاننا إلى تصديقكم يا سيدى البكباشي.

كنت أنا قائل هذا الكلام. لكنى لم أكن وحدي. بل كانت أرواح الموتى أيضاً تجرى على لسانى فى صوتى امتقع وجه البكباشي. نظر إلى الألمانى ودون أن يتكلم. وبماذا كان الألمانى سيجيب؟ قلت ما كنت أريد قوله، وليحدث بعد ذلك ما يحدث. لماذا سمح الألمانى أن أتكلم بحريتى كل هذا الوقت؟ هل لأنه فكر فى عقوبة ينزلها بى بحيث توقفنى عند حدي؟ انحنى الألمانى على المائدة ليتحدث مع البكباشى الروسى وسريعاً خرج الروسى من الغرفة ووجهه مازال ممتقعاً. وبقيت بمفردى مع الألمانى. كان هذا اليوزباشى يتفحص الأوراق فوق المنضدة بهدوء، وكأنه يكرر فى داخله ما سيقوله. وكان حاجباه مقطبين، وأخيراً، نظر إلى وجهى وهو يرفع وجهه من على الورق، سألنى قائلاً:

- لماذا تكره الروس؟

أيمكن للألمان أن يفهموا أحاسيسى الوطنية؟ أيمكن أن يفكر هؤلاء فى أمتي؟

قلت له ببساطة:

- ولم أحبهم؟

لم يجب. وكأن محادثتنا قد انتهت. لم يعد إلا طريق آخر كان لابد من طرقه وقد فعل. تكلم وهو يقف على الكلمات، تكلم رويداً رويداً، كأنه يزن بدقة، فى الميزان، كل كلمة من فمه. قال:

- ألمانيا تنتهج سياسة خاصة تجاه روسيا. إننا ننظر إلى الروس نظرة معينة وننظر إليكم نظرة مختلفة.

صمت برهة. إن هذا الذى تكلم به إنما هو مقدمة لما سيقوله على ما

يبدو. كنت أستمع بدقة.

- إن الحكومة الألمانية، ترغب في أن تنفصلوا عن روسيا، ويكون لكم وطنكم المستقل. لَمَسَتْ هذه الكلمات التي فاه بها اليوزباشي نقطة حساسة في نفسي. لم أتمالك نفسي فسألته قائلاً:

- وكيف؟

- تفكر حكومتي - كخطوة أولى في هذه الطريق - في تكوين جيش من التركستانيين المعتقلين في معسكرات الأسري.

سم ساد الصمت مرة أخري. ثم سألني:

- ما قولك في هذا؟

- لا يملك الإجابة عن هذا - إلا أمتي - سيدى اليوزباشي. لابد أن تجيب أمتي كلها عن هذا.

قال بصوت حاد قليلاً:

- أنا لا أوجه هذا السؤال إلى كل شعبك. أنا أوجهه إليك أنت فقط. أجب عن هذا.

- أنا شجرة في كل الغابة. إذا انحنت الأشجار أمام الرياح، انحنيت أنا في نفس الاتجاه.

- كل التتار في القرم اشتركوا في الجيش ويحاربون ضد الروس. إن الأمة التتارية أمة فدائية حقاً. لقد قدموا الضحايا بالآلاف في سيفاستبول. افترض أنك اليوم في القرم وشعبك يحارب في سبيل استقلاله، فماذا يكون موقفك أنت؟

- أحارب كما يحارب شعبي ضد أعدائنا.

- إن الأمة التي تستطيع حمل السلاح، هي الأمة التي تعيش مستعدة للدفاع عن وطنها أيها الملازم.

مد يده وشد على يدي، ثم قال وهو يغوص في مقعده:

- لن أرسلك بين الروس. عد إلى المعسكر والمعتقل. ولكن باسم جديد

وبشرط ألا تحدث أحداً عما رأيته هنا. وسيبقى ما رأيته هنا سراً حتى آخر حياتك. والذى لا يعرف كتمان هذا السر يجب أن يعرف أن ألمانيا حكمت عليه بالإعدام.

قال ما قاله، تناول قلمه، وانحنى على المنضدة وسألني:

- اسمك الجديد؟

- كمال. صادق كمال.

كتب اليوزباشى أشياء كثيرة وطويلة على الأوراق التى أمامه؟ هل ما كتبه يعتبر أول أسطر فى رواية حياتى الجديدة؟!

خرجت من الغرفة وأحسست فى نفسى بعد هذه المحادثة بأننى مسكين جداً. وفى اليوم التالى وقبل أن أعود إلى الأسر، قابلت البكباشى فى الحديقة توقف وهو يمر من جانبي، وقال:

- رفضتنا. سترتدى بعد ذلك بذلة العدو وتحارب.

ولم أستطع فهم ما أراد قوله، إلا بعد أسبوعين.

خرجنا من مدرسة الجاسوسية فى منتصف الليل، وبعد ثلاث ساعات نزلنا من سيارة نقل، لنركب القطار. كل ما كنت أطلبه هو ألاّ أظهر أمام الجاويش شولتس واليوزباشى بوخ.

وصلنا إلى «فينتسا» قرب المساء. كنت سعيداً لأننا غير ذاهبين إلى أومان. وقفنا بجانب الأبواب ذات الأسياخ الحديدية. سلمنى الألمانى الذى بجواري، إلى الحارس الذى يقوم بالمناوبة أمام الباب. كان الجندى المناوب هذا، ينظر إلى بين الفينة والفينة، نظرات شديدة، لكنه لم يكن يتكلم، عاد الألمانى الذى أحضرنى من هناك. عاد بعد نصف ساعة. فتح الحارث المناوب الأبواب. دخلنا المعسكر. وكما هو حادث فى معسكرات أومان وكيوفجراد: أغلب الأسرى فى الميدان خلعوا ملابسهم وأصبحوا عراة تماماً أمام الحفر. كانوا مشغولين بقتل القمل الموجود فى قمصانهم. اجتزنا الميدان. مازال الألمانى يسير معى. دخلنا معاً إلى سقيفة نظيفة. سقيفة شرطة. أشار نحو

سرير. قال لى ألا أبتعد عن السقيفة وإنه سيلقانى هنا صباح الغد. قال هذا ثم ذهب وتركنى فى حيرة. كلماته أشعرتنى بالأمل كما أشعرتنى بالاضطراب فكرت طويلاً عما سيحدث غداً. ولماذا سألتقى بالألمانى مرة أخرى.

نمت تلك الليلة مع الشرطة الأوكرانيين فى السقيفة. جاء الألمانى فى الصباح التالى مبكراً، وأخذنى إلى المطبخ، قدم لى طعاماً. ثم خرجنا من المعسكر واتجهنا إلى محطة القطار.

دخلنا «فلاديمير فولينك» ليلاً، سرنا إلى المعسكر سيراً على الأقدام. حدثنى الألمانى الذى معى قائلاً: إننا سنبيت هنا، ليلة واحدة فقط، وغداً سنواصل الحركة إلى مكان آخر. وعندما سألته إلى أين، اكتفى بهز كتفيه. نمت فى هذه الليلة فى سقيفة الشرطة. وفى الصباح الباكر تركنا فلاديمير فولينك، وقضينا يومنا كله فى القطار.

كان الجو على وشك الاكفهرار عندما دخلنا معسكر أوستروف. الأنوار الكاشفة فى أبراج الحراسة خارج المعسكر، تمشط أسقط السقائف كأنها أيد طويلة مرعبة. ولم يكن هناك صوت غير صوت هطول الأمطار المستمر بلا توقف. هناك عدة عربات بدون جياد، وعدة براميل فارغة خلف السقيفات الخشبية وهذا ذكرنى بنهاية يوم السوق فى آق مسجد. دخلنا إحدى السقيفات. نظر الألمانى الشاب المسلح إلى وجهى، وصافحنى يداً بيد، بمودة صديق، وخرج من السقيفة.

كانت السقيفة ضعيفة وطويلة. وهناك ثلاثة أسرى أو خمسة يلعبون الدومينو، على منضدة موجودة فى نهاية السقيفة. على أشعة ضعيفة صادرة من شمعة الأسرة على اليمين وعلى الشمال، فارغة. تقدمت نحو الضوء، كان أربعة من القيرغيز يجلسون. يقول واحد منهم للرجل الواقف على قدميه، دون أن يرفع رأسه عن اللعب:

– ألا أشرت لهذا الرجل، إلى سرير، يا آق صقال!

سألته:

ـ ألا يوجد بينكم أحد من التتار، يا عزيزى؟

قال القيرغيزى الذى يقف على قدميه:

ـ لا أحد من التتار هنا.

وقال الرجل الآخر دون أن يرفع رأسه أيضاً من على اللعبة:

ـ كل الموجودين هنا تركستانيون يا أخى. لا يوجد تتارى ولا قيرغيزى. فالكل تركستانى من الآن فصاعداً. ألم يقل هذا، طوقاى بك الذى جاء يوم أمس من برلين؟ أين كنت؟ قال لنا، وما أجمل ما قال: «كلنا تركستانيون»، «إخوة فى الدم» إنه رجل محبوب. وسترى أنه ذات يوم سيحرر الشعب من البؤس، ولن يترك فى أرض تركستان أى أثر لقدم كافر روسى.

ابتعدت أنا وآق صقال عن اللاعبين، قال آق صقال وهو يجلس على سرير من الأسرة:

ـ الأسرّة كثيرة يا أخ، نم على أيها.

كررت سؤالى قائلاً:

ـ هل كل من فى السقيفة، تركستانى؟

ـ المعسكر، معسكر تركستانى، كان عددنا قبل ثلاثة أشهر، يزيد على الستين ألف رجل. أما الآن فبقينا ثلاثمائة.

ـ ماذا حدث للآخرين؟

ـ أصبحوا جنوداً.

ـ جنوداً؟؟

ـ نعم جنود. هل أنت جديد؟

ـ نعم جديد. جاءوا بى من أوكرانيا. الوضع هنا؟

ـ لا بأس به.

ـ الآخرون: أى جند أصبحوا.

ـ جند تركستان. أظننت جنداً روساً؟ بالطبع جند تركستانيون يرتدون

ملابس عسكرية ألمانية، لكنهم تركستانيون. منذ شهر جاء رجال من برلين. كان بينهم من يعرف الألمانية ويتكلمها بطلاقة. جمعونا فى الميدان، وخطبوا فينا خطباً نارية. دعونا إلى السلاح للحرب فى سبيل حرية تركستان. ونحن بدورنا أقسمنا على تطهير بلادنا من الكفار ومنذ ذلك اليوم والمعسكر بدأ يقل يعنى يقل عدد من فيه. ونحن، سنسافر اليوم أو غداً لنفس المهمة.

وحتى الصباح، كنت أفكر فى حياتى الجديدة، الأماكن التى سأذهب إليها والأشخاص الذين سأراهم. أحسست فى نفسى بالمعنى المقدس العظيم لاستقلال تركستان، فسرت كلمات آق صقال، كنت أريد أن أجده وأتحدث معه عن استقلال تركستان. إلا أننى فى صباح اليوم التالى وجدت أنه لم يبق فى نفسى مكان للسياسة، عندما رأيت أمام باب المطبخ رجالاً مساكين نحيفى الأجسام، ينتظرون وفى أياديهم علب صفيح قديمة صغيرة. إن الأيام التى عاشوها جعلت الحياة حملاً ثقيلاً لا يقدرون عليه. كانوا يسيرون بين السقيفات وكأنهم خرجوا من القبور يبحثون عن آثار حياتهم التى فقدوها فى الدنيا. هل يمكن أداء عمل عزيز لشعبنا بواسطة هؤلاء الناس؟ أقول: لايمكن. ولكن كم كنت ضيق الأفق لم أكن أثق بالغير لأنى كنت لا أثق بنفسى. لأنى حتى الآن لم أر غير ظلم الحياة ومجموعات من المساكين سحقتهم الحياة، ومضغتهم بين زوايا السقائف وفى الطريق وفى الوديان. جاء يوم ولم أصدق أبداً أن نفس هؤلاء الناس سينهضون ذات يوم لينثروا النار على الأماكن التى مروا بها، ورقدوا فيها يئنون. لم أصدق البتة أن هؤلاء سيسحقون الحياة، كما تسحقهم الحياة اليوم، ولا أنهم سيهزون الأرض وأجواء الفضاء بأناشيدهم:

إلى الأمام .. إلى الأمام
يا جنود تركستان
نموت فى سبيلك
يا أرض تركستان

هل استمر هذا حتى الآن. لا أعرف. لكننا سنفعل هذا. سنحققه، سنلقى بالحياة تحت أقدامنا، ندوس عليها ونسحقها، نحن سنعرف كيف نحتقِر الحياة! سنموت. ولكن ما الضرر؟ فمن يأتى بعدنا سيفعل نفس الشىء، وسيسير فى نفس الطريق سيخلد اسمنا. ولو توقفت الدنيا فسنحيا نحن. كم كنت قصير النظر؟

سأغير عقلى بعد الآن، أبدأ مع هؤلاء الناس حياة جديدة، حياة تحيى أرواحنا إلى الأبد. سأنسى آلام الحياة التى عشتها حتى الآن. سأعيش من أجل تركستان وفى سبيل استقلال تركستان. سأحارب. وسأموت. وستلمع هذه الغاية المقدسة ـ من الآن ـ فى آفاق حياتى كالنجمة. متعب أنا، لكنى حتى آخر نفس فى حياتى وحتى آخر نقطة دم فى جسدى.

ـ كيف؟ ومع من؟

ـ مع هؤلاء.

ـ أمع هؤلاء الأوزبك الذين يقفون على أبواب مطبخ المعسكر يمدون أذرعهم الشبيهة بالعصى؟ هؤلاء الجهلاء وأنصاف المقعدين الذين يبكون طلباً للخبز؟!

ـ نعم. مع هؤلاء.

ـ بالبذلة العسكرية الألمانية؟

ـ من أجل تركستان.

ـ ما هى تركستان؟

وطننا الجميل الذى يئن تحت أقدام أعدائنا.

ـ هل تسمى الأوزبك والقيرغيز والقازان والتركمان: تركستانيين؟

ـ فلتوقظ أكاذيب أعدائنا الفظيعة الوحدة فى قلوبنا بدلاً عن الشك.

ـ من الآن، لكم ما لكم، ونحن سنقدم دماءنا فى سبيل تركستان.

ـ ستخنق روسيا المستقبل ـ أياً كان لونها ـ كل أفكارنا فى الاستقلال.

ـ ولأننا ندرك هذا، فسنتحرك واضعين كل شىء نصب أعيننا.

- استقلال تركستان! هل فكرتم فى معناه ونتائجه؟

- لم نفكر. إننا أحسسنا بهذا فى قلوبنا، ونشعر به.

- إن الظن بأن بضعة آلاف من القيرغيز وثمانية آلاف أو عشرة من الأوزبك، يمكن الحصول بهم على الاستقلال، أليس هذا خيال الشباب السذج مثلك؟!

- ربما.

- هل يمكن لخيالكم هذا أن يحقق الاستقلال أمام جيش روسيا الذى يدهش العالم اليوم؟

- اسكت! فليكن هذا خيالاً! ليكن ما يكون. ما الضرر منه؟ أليس من أجل تركستان؟

خرجنا من استروفا بعد أسبوع. ومنذ ذلك اليوم بدأت التعبئة فى سبيل الاستقلال الذى سيطر على تفكيرنا ومن يدرى فربما أيضاً الاستقلال الذى تخيلناه. مثلما قال لى ذلك الصوت الذى كان يحادثنى.

يتقدم الألمان المسلحون عن يميننا وعن شمالنا. يصيحون أحياناً. لكنا كنا نتقدم دون أن نسمع شيئاً، سعداء، تحوطنا الآمال.

كان يسير بجانبى آق صقال الذى تعرفت عليه أول ليلة قضيتها فى أوستروفا. عرفت اسمه بعد ذلك، اسمه خوشنود. وكان طويل القامة، عريض المنكبين، كبير العظام ، قوياً، شديداً، أثق أننى لو نسيت كل شخص فى الدنيا، فإنى لن أنساه أبداً. كان أصدقاؤه يطلقون عليه - أى «خوشنود» - لقب آق صقال بمعنى صاحب اللحية البيضاء، لأنه كان أكبرنا سناً، كان فى الخمسين من عمره. لكنه كان يفتخر بعمره إلى درجة ملحوظة. عندما كنا نسأله عن عمره، كان يقول ضاحكاً:

- أحمل فى قفاى بلطتين.

يعنى أنه كان يريد أن يعلى سنه من خمسين إلى سبع وسبعين.

لا أدرى لماذا أحسست أن خوشنود قد أصبح فى هذا الوقت القصير،

قريباً إلى نفسى، كنا دائماً معاً ولأنى كنت أعرف الألمانية، ولهجتى التركية القرمية تشبه اللغة التركية فى تركيا، ولارتباط أتراك القرم إلى آخر درجة باستقلالهم، كنت أشرح بفرحة وبفخر تاريخ القرم وماضيه العظيم وكان خوشنود ينظر إلىّ نظراته إلى مثقف وإلى شخص من النخبة الممتازة بسبب استخدامى تشبيهات براقة.

كان يتحدث عن نفسه قليلاً، علمت بعد ذلك أنه سمرقندى، خرج من بلاده قبل خمس عشرة سنة، أو على الأصح أخرج من بلاده. لايتحدث عن عمره وأين قضاه، لكنه كان يقول إنه عاش منذ خمسة عشر عاماً فى سبيل هذا اليوم.

كان ينتظر فى المعسكر بنفاد صبر، يوم التحرك إلى الجبهة، كان يجلس بعد التدريب فى أيام الجمع، تحت ظل شجرة صنوبر، وفى يده مسبحته، يدعو كثيراً وطويلاً. كان فى نفسه ألم دفين وعميق. ولم يتحدث لى قط عن ألمه هذا. افترق بعضنا عن بعض شتاء ١٩٤٤. من يدرى أين هو الآن؟

عندما كنا ندخل ليجيونوفا، كنت فى نهاية الطابور، ليجيونوفا قصبة تقع على بعد عشرين كيلو متراً من وارسو. وفيها خرج جمع من الناس أمام محطة القطار، وفى الدكاكين والمنازل وأمام الأبواب.. كان الناس ينظرون إلينا نظرة عداء، كان الأطفال الحفاة الأقدام ببناطيلهم الممزقة، يجرون خلفنا. كنا نتقدم فى شارع إسفلتى فخم يتجه إلى الشمال، مفترقه معبد بالأحجار، وبعد قليل ظهر أمامنا جنود يتجهون نحونا. كل بندقية من بنادقهم يعلوها سلاحها الأبيض، يحملون البنادق على الأكتاف، كانوا وحدة منتظمة مكونة من جنود منتصبى القامة، سليمى البنية، سمر اللون. وبينما يمرون من جانبنا إذا بهم ينطلقون وينشدون فى نفس واحد نشيداً يقول:

وطنى حبيبى
بالروح نفديك

أثارنى كثيراً هذا الإحساس بالوطن، أثارنى حتى لم تعد عيناى تريان

شيئاً. وأصبحت وكأنى اختلطت وامتزجت بهذه الأصوات. وبعد قليل أحسست بيد خوشنود على كتفى وكان يقول:

- انظر ياصادق بك! انظر أخيراً. لنا جنود. جنود تركستان. لا أدرى كيف أشكر الله على منحه لنا نحن أسرى الأمس، شرف رفع أعلامنا.

مرت من جانبنا وحدات أخرى. كنا وكأننا ولدنا من جديد. كنا نهز أيدينا نحو الجنود. أما هم فكانوا وكأنهم لايروننا. وجوههم متشددة، يتقدمون دوماً دون أن ينظروا إلى ما حولهم. صاح واحد بجوارى بحماسة وانفعال قائلاً:

- ياجنود تركستان ياجنود الاستقلال.

فقال قيرغيزى ذو رأس كبير:

- أى استقلال هذا الذى تقول به؟ إن عقلى فى بطنى. أشبعنى، وسترين أيتها الرؤوس الصفراء.

- ما هذا الخلط: هل أنت كافر؟ أليس عيباً هذا الذى تقوله؟

أجابه القيرغيزى:

- ولم العيب؟ هل يطعمنا الألمان مجاناً؟ بالتأكيد لهم منفعة.

كانت السماء عالية وزرقاء. أصوات التدريب العسكرى وأصوات السلاح. والأوامر الصارمة من خلف السياج الحديدية الممتدة من جانبى الطريق. ومازال الجنود يخرجون من الأبواب الموجودة على الجانب الأيمن. الجنود الذين ولدوا من الدم والنكبة. الجنود الذين ولدوا بين أحضان الموت. إنى أقسمت على الحرب معكم فى سبيل وطننا. عشت مع بطولاتكم ومع سيئات أعمالكم. لكنى مؤمن اليوم إيماناً صادقاً أن كل ماقمتم به كان فى سبيل وطننا.

دخلنا ميداناً واسعاً. دخلناه من الأبواب الحديدية اليمنى. كان فى طرف الميدان مبنى من الطوب اللبن. وكانت وحدة عسكرية ألمانية بجانب المبنى تنظر إلينا. يبدو أنهم كانوا ينتظروننا. توقفنا عندما اقتربنا من الألمان.

صاح واحد من بينهم قائلاً:
- اخلعوا الملابس التى ترتدونها، واتركوها على الأرض.
- وهل نخلع ساتر عوراتنا أيضاً؟
- نعم، وساتر عوراتكم أيضاً. لا نريد قمل روسيا أن يوجد فى جيش تركستان هيا تحركوا كجنود.

تركنا على الأرض ملابسنا القديمة المقملة، ودخلنا الحمامات. وبعد الاغتسال وزعوا علينا الزى العسكرى الألمانى. يبدو أننا كنا مضحكين كثيراً ونحن نرتدى هذا الزى دون أن نقيسه على أجسادنا. لكنه أيضاً لم يكن أسوأ من الزى الروسى. أليس كذلك؟..أشعل الجنود الألمان، بعد قليل، النار وسط الميدان، أصدر الضابط الذى يعرف الروسية أمره بالوقوف بجانب الزى العسكرى الروسى الذى تركناه على الأرض ولا أدرى لماذا، وحدث ذلك بين ضحكات الألمان الشباب، نفذنا ما أمر به، وبدأ الضابط فى كلامه:

- انتهى أسركم. ونحن نؤمن بأنكم معنا. ستطهرون بلادكم من أعدائكم. إننا نثق بأنكم ستحمون شرف هذا الزى الألمانى الذى ترتدونه والذى أودعناه أمانة لديكم. ستحمونه كالألمان تماماً.

كان الضابط يتحدث وسط سكون عميق. أتذكر أيامى القديمة وأنا أنظر إلى بذلتى العسكرية القديمة وهى تحت أقدامى. ترى هل يمكننى أن أطرح ماضىّ من نفسى مثلما خلعت هذا الزى وطرحته أرضاً؟..فى تلك اللحظة مر أمام ناظرى كل من : كرانسوى وسليمان ، وجريشة المضرج فى دمائه فى الحفرة، وكيوفجراد، ومصطفى، وعثمان، وطريق كيوفجراد - أومان، والأذرى، نعم!! انتهيت من قسم فى كتاب حياتى وبدأت قسماً جديداً فيه.

انتهى الضابط من كلامه. نظر أولاً إلى النار المتقدة فى وسط الميدان، ثم نظر إلينا، وأخيراً نظر إلى ساعته وقال:
- والآن: سنجرى ! كل واحد منكم يأخذ الزى البلشفى فى يده، ولنر من

منكم سيلقى هذا الزى فى النار أولاً، هل أنتم مستعدون؟

ألقينا بملابسنا الموجودة تحت أقدامنا إلى النار. وكان الألمان ينفجرون من القهقهة. كان لابد أن تسعدنى هذه الحادثة. لكن الذى حدث أنها أصبحت وكأنها مست جرحاً فى نفسى. هل لأن جريشة وسليمان تراءى لى أمام عينى؟ هل لأن الألمانى الذى أعطى إشارة بدء السباق ذكرنى باليوزباشى بوخ وإصداره للأوامر أمام مبنى القيادة فى أومان؟..لا أدرى.

- ٩ -

روما، فى ١٩٤٦/٨/١

روما، فى هذه الأيام حارة. حارة مثل جهنم، واليوم خانق وطويل. والشمس فى السماء المبيضة، تبدو وكأنها تريد أن تذهب بحدتها، الأرض والحجر. أخرج من غرفتى لأذهب إلى الطبيب أريد أن أصدق أن حرارة الجو هذه الأيام، هى السبب فى تعبى. الليل يضايق كثيراً. لكنى أستسلم رويداً رويداً للأرواح الطلسمية لهذه الليالى. لا أستطيع أن أشرح ما يدور بذهنى، حتى الطبيب. قال الطبيب إن هذا شئ مصيره الانتهاء. ربما..

عندما كنت أنزل من على أدراج السلم أمس، رأيت اثنين من الشرطة العسكرية الأمريكية، ارتعشت من خوفى، وكأنى طفل صغير. جريت نحو غرفتى واختبأت بها. بل وأغلقت الباب علىّ بالقفل. وأخذت مكانى أمام النافذة. إذا أراد أحد دخول غرفتى عنوة فإنى كنت سألقى بنفسى من النافذة. إنى أعرف سبب هذا الخوف. لم تستمر ارتعاشتى طويلاً، بل إنى ضحكت. إنى أخاف كلما رأيت واحداً يرتدى بذلة رسمية. وكأن الحكومة الأمريكية قد أمرت كل جندى فى الشرطة العسكرية الأمريكية بأن يقبض على صادق طوران، لأنه أدى الخدمة العسكرية فى الجيش الألمانى، حتى يسلمه للروس! ومع كل ذلك أخاف ولا أستطيع النظر إلى وجوه الناس خوفاً.

رأيت الليلة الماضية – فيما يرى النائم – أنى تجولت فى الظلام حتى الصباح فى مقبرة، والمقبرة جديدة والقبور جديدة، والمقبرة قاحلة لا خضرة فيها، والقبور بلا شواهد. ويأخذ شيشكوف من جانب كل قبر، زياً عسكرياً، ويمده إلىّ ثم ولا أدرى كيف حصل هذا، اختفى فجأة من أمام عينى. أخذ قلبى يضرب بشدة، وأخذت فى البحث عن شيشكوف جرياً من قبر إلى قبر. ولم أجده. ثم، إذا بى وكأنى أرى ضوءاً بعيداً فجريت إلى هناك. أخذ

الضوء يتحول إلى شجرة ،شجرة جافة بلا أوراق ، وشيشكوف يقف تحت الشجرة وقد وضع ذراعيه على صدره. يقف صامتاً بلا حركة. كان ينظر إلى ساقى عيسى عليه السلام وهو مصلوب على الشجرة. وينزف دماً أحمر من عينى سيدنا عيسى المفتوحتين الكبيرتين المضطربتين، ثم ينزل هذا الدم وبسيل على رأس شيشكوف الحليق.

كان الطبيب يقول: إن الأحلام مهمة جداً، يقول لى تذكر ما تراه فى حلمك. واحكه لى فربما نفهم شيئاً عن السر في خوفك. ولكن هل أقص عليه حلمي؟ ماذا لو كان هو نفسه رجلاً من رجال الروس! لا. إنه طيب القلب، رجل نظيف. إنه يستمع إلى أحلامى وحكايات حياتى منذ وقت طويل، لماذا لايستطيع أن يجد حلا لتعب ذهنى ولارتعاش جسمى؟ يقول لى الطبيب لابد أن تثق بى. فأنا طبيبك.

يقول إنك تعيش اليوم داخل خوفك، يقول: ولكن لا تبال! لا تقلق فكل شئ يمر مثل الحكاية، مثل الحلم، ثم ينسى، يقول لى الطبيب: أقبل على الحياة كما هى. وأنا بدورى أريد أن أقبل على الحياة كما هى. لم أنس بعد الحياة التى عشتها حتى الآن. أتذكر جيداً كل شئ وأرى كل الطرق التى مررت بها بل إنى أحب الحياة! أنا تتارى وطنى القرم. هناك ولدت. وهناك كبرت وأصبحت عسكرياً. حاربت ضد ألمانيا وفى أحد الأيام وقعت أسيراً. أسرت مدة عام. والحياة صعبة فى الأسر. والحياة فيه كانت عذاباً. ومع ذلك تحملت وصبرت ولم أرفض الحياة! ثم أطلق الألمان الذين كنا نحاربهم سراحى، وتحالفنا معهم وارتدينا البذلة العسكرية الألمانية. أقسمنا قبل كل شئ أن نحارب لحساب الألمان ضد الروس. أكان هذا صحيحاً؟ لا أدرى . لقد فعلت ما أملاه على قلبى. ربما لأنى رأيت الحياة وقتها كما هى . ولكن للحياة طرق أخرى. هكذا يقولون ولكن أنّى لى أن أعرف هذا؟

سرت فى طريق الحياة التى اختارها لى تاريخى. وهذه الطريق هى

التى أتت بى إلى هنا. والآن أنا هنا. وهنا النهـاية. نعم، هنا النهـاية. داخلتنى الطمأنينة إلى هذا بعد لأى. ليس أمامى طريق آخر. مستقبلى فى ظلام، ظلام سجن. لا أستطيع الانتظار هنا. ماذا يجب أن أعمل؟ لم أعد أستطيع العيش هنا بعد. لابد من ذهابى من هنا. ولكن كيف؟ وإلى أين؟.. وحتى الآن فالأفكار الطيبة فى ذهنى والآمال فى نفسى. عشت بالأمل، وسرت بالأمل. وتحطمت آمالى، الأمل بعد الأمل. كيف سأعيش بعد ذلك. لا أستطيع أن أقتل نفسى. آه ليت قبرى يكون فى تلك الأرض، وفى سفوح تلك الجبال.

كنت أفكر فى هذا مساء الأمس، وطال الوقت، أقول إننى سأرجع ولا أستطيع تنفيذ أحلامى. سأقابل غداً، أيضاً، الطبيب ، حتى أرى ماذا سيقول لى ؟ يقول إن مخاوفى ستزول ، ربما تزول. ولكن ماذا لو استمرت؟

خرجت أمس من عيادة الطبيب، وأحس بورم خانق فى حلقى، وفى داخلى عذاب عميق . تحدث الطبيب طويلاً . وذكر أثناء الكلام اسم مرض نطقه باللاتينية ورغم أنها أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة الصعبة، إلا أنى ارتعشت فجأة. كنت سأبحث فى القاموس عن معناها ماذا لو كانت شيئاً خبيثاً ، قال الطبيب إن هذا الأمر لبسيط، لاتقلق. أما أنا، فكنت أفكر بطريقة أخرى. يعنى أن هذا مرض له اسم وعنوان. أمسكنى الطبيب من كتفى عندما كنت أهم بالخروج من الغرفة قال لى:

– يجب أن تتعود تدريجياً على الحياة بلا طبيب.

عدت إلى غرفتى في الفندق بالورم الموجود فى حلقى. كنت أردد وأنا فى السرير، وإلى وقت متأخر من الليل، اسم ذلك المرض، وهو اسم صعب أردده فى ذهنى، لم أكن أستطيع النوم. وفى لحظة جاءت أمى المسكينة. أرادت أن تضع يدها على رأسى. وفى نفس تلك اللحظة امتلأ ما بين أهدابى بالدموع.

يبدو أن النوم غالبني. وعندما استيقظت فى منتصف الليل، كنت كمن لا يعرف أين يوجد. وفى صمت عميق أخذت أكرر لنفسى كلمة «أنا فى روما» «أنا فى روما» . وكنت فى ذلك متابعاً لصوت حركة ساعة الحائط الموجودة فى الممر الأسفل ولكن مالى ولروما! ذهنى دائماً فى الطريق التى مررت بها. هذه الطريق على ما يبدو هى صاحبة شخصيتى بل وصاحبة عقلي، مع كل كوارث هذه الطرق الدامية، مررت أمس بأزمة، بعدها فكرت ساعات وساعات فى وطنى الأخضر. فمن خلف جبل آيى داعى كانت الشمس تشرق. ومن سواحل البحر الأسود كانت الحدائق الشديدة الخضرة تعلو وتعلو حتى تصل إلى قدميّ. التلال ومآذن مساجد القرية، كانت تظهر بين الضباب، ووطنى الجميل كأنه ينبسط أمام ناظري. أغمض عينى بشدة حتى لا أفقد رؤية هذا المنظر الجميل. هل بعث الله فى قلوبنا مرة أخرى نشوة الإعجاب بجمال هذه الأرض؟ أصبحت هذه الأرض كل وجودى ستخلد هذه الأرض.. وبدونها..

يقول الطبيب لى أن «لابد أن ترى الحياة كما هي!» وهل حياة كل الناس على نفس الشاكلة؟ لو كنت طبيباً لكنت أقول «لا تنتظر شيئاً من الحياة، أغلق عينيك وارضَ بنصيبك». نعم كنت أقول «أحن هامتك لقَدَرِك. قَدَرِ أمة مهانة، أنّت تحت سياط الظالمين. أمة مسحوقة، أمة تنزف دماً.. إنه الحظ التعس».

إنه القدر. قدر النساء اللاتى نُفى أزواجهن، ونشبت حراب الأعداء ببطون أولادهن. قدر الكهول الشيوخ الذين قُبض عليهم من لحاهم البيضاء، وجروهم منها. قَدر شبابنا الذين سالت دماؤهم مثل سبيل الماء، من أجل منفعة أعدائنا. هؤلاء الأعداء الذين شتمونا فى الجبهة وبصقوا على وجوهنا.

رأيت هذه الليلة شيشكوف مرة أخرى فى الحلم. ومرة أخرى أيضاً

يأخذنى إلى المقابر وهو يشير إلى الملابس العسكرية للجنود الموتي. يقول: «أنت، أنت! يا صادق طوران لبست زى الأعداء وحاربت ضد روسيا». تصببت عرقاً بارداً، ترى إلى أى حال سيصير حالي؟! يقول: زى الأعداء.. من هو عدوي؟

أليس عدوى هو أنت يا شيشكوف؟ أخذتَ منى بلادى بالكذب والخداع. والذين جاءوا قبلك وعدونا وقالوا اقْبَلوا حمايتنا لكم وسنحمى أراضيكم وأموالكم ودينكم. وما تملكون فسلمنا لكم. سلمت هذه الأمة أرضها وهى أغلى ما تحب، وتركنا أسلحتنا. آه.. ومنذ اليوم الذى دخلتم فيه بلادنا وأرضنا تنزف دماً. هدمتم مآذننا، حولتم قنوات الماء وعيون الماء فى بلادنا، وتماثيلنا وقصورنا الرخامية إلى حظائر وإسطبلات. وعندما كان مؤذنونا يصعدون إلى المآذن لرفع الأذان، كان جنودكم السكارى يتخذون من قلوب هؤلاء المؤذنين هدفاً يتدربون على إصابته وهم يلهون.

يا شيشكوف! يا شيشكوف! تقول: «ارتديتم زى الأعداء وحملتم السلاح ضد روسيا». وعدونا الأصلى هو أنتم، أليس كذلك؟ ألستم أنتم الذين ملأتم عربات السكة الحديد المخصصة لشحن الحيوانات ملأتموها بجداتنا اللاتى يبلغن التسعين من أعمارهن وبكبار السن من رجالنا الذين أرادوا قضاء آخر أيام حياتهم فى الصلاة والدعاء والتسبيح؟ وحملتم كل هؤلاء إلى سيبيريا فى سفر استغرق عدة أسابيع بين قذارة الغائط والبول.. ثم تقول زى الأعداء!

كان ذلك فى صيف عام ١٩٣٢، الدماء تسيل فى قرى ساحل القرم. قام جنودكم السكارى باعتراض آبائنا الذين يفلحون بساتينهم وحدائقهم وبعض حقولهم. ثم أخذوا يضربونهم ببنادقهم ويسوقونهم إلى يالطا. ولن أنسي، وكنت صبياً فى ذلك الوقت، فى الثالثة عشرة من عمري، عبرت الجبال خلسة مع أبي، وذهبنا إلى يالطا. كنت أنظر من بعيد، فأرى شعباً

أبعدوه عن أرضه. هذا المنظر يقشعر منه بدن كل من يراه. حتى لو كان متوحشاً أو زنجياً من أواسط أفريقيا. لقد مزّق هؤلاء الروس، ملابس نسائنا وفتياتنا الشريفات اللاتي أصبحن يخجلن من النظر إلى وجوه أمهاتهن وآبائهن ورجالهن.

عندما كانوا يسوقون امرأة ليركبوها السفينة، اختل عقلها، وأرادت أن تلقي بطفلها على سواحل وطنها الحبيب.

ما في داخلي، ليست الطرق التي مررت منها، ولا الزى العسكرى الألماني. بل كان الصياح المر الذى أطلقته النساء والأطفال. يا ربي! لماذا لم تقم الدنيا وتقعد؟ لماذا لم يحدث زلزال يهز الدنيا عندما أبعدوا شعبى عن أرضه؟ ولماذا لم تبتلع البحار ذلك الوطن وشعبه معاً؟ لماذا كان التتار بهذا القدر من طيبة القلب والسماحة والعفو. ألا نملك حق الحرب ضد أعدائنا وحقنا في الموت في سبيل الأرض؟!

*

روما ، في ١٩٤٦/٨/٧

في روما شاب من آق مسجد اسمه جنكيز. وقد علمت بذلك بالأمس. جاء إلى إيطاليا من معسكر اللاجئين في تيرول، قبل شهر. أريد رؤيته كان يتقصى أخبار محمد. أريد أن أخبره بأن محمداً ترك روما. أخشى على نفسي من المرض ولكن لابد أن أجده.

*

روما ، في ١٩٤٦/٨/١٠

علمت بالأمس بأن جنكيز غادر روما وسافر إلى تورنتو. عنوانه يوحي أنه في معسكر جنود بولندا. شيء عجيب.. ربما يكون الآن مرتدياً ملابس عسكرية إنجليزية. أصابني الضيق كثيراً لأني لم أجده. فقد كنت أحب التحدث إليه. لكن ذهابه.. مع كل هذا.. أيقظ في نفسي أحاسيس الحرية

الكامنة فيها.

سيعود إلى روما مرة أخرى بعد حوالى شهرين. ربما تزول مخاوفي إلى حين عودته فأصبح آمناً من الخوف.

أنا الآن مستريح. أحس بأننى سعيد. الجو فى الخارج ندي. خرجت فى الصباح لشراء سجائر. أرى الناس فى الشوارع كأنهم مثلي. وكأنى مثلهم. ولكن يالفظاعة ذلك الضيق الذى مر بى فى هذا الأسبوع الأخير. ماذا هناك حتى يتضايق الإنسان هكذا؟! بعد أن اشتريت السجائر رأيت رجلاً ضريراً مسكيناً، فى يده عصا، ويضع على عينيه نظارة سوداء، كان يريد أن يعود إلى حجرته فى الفندق، جريت سريعاً إليه، وأمسكته من ذراعه. عاونته فى عبوره إلى الرصيف الآخر من الشارع. أحسست بالسرور؛ وكأنى قمت بأجمل حركة فى حياتي. إنى جلست فى مجموعة هذه الحدائق العامة عدة مرات من قبل، ورغم هذا فإنى أشعر بأننى أرى جمال المكان لأول مرة. كنت أحب أن يكون أحد بجانبي. مخلوق حي، كلب أو قطة على الأقل.

أتطلع إلى الأمام. كنت أحاول أن أرى آفاق الحياة. وأصبحت الآن كأنى أراها. معنى هذا أن الحياة ليست مظلمة إلى هذا الحد!

أفكر قائلاً لابد أن أجد جنكيز. وبينما كنت أقوم من المكان الذى كنت أجلس فيه تذكرت ماريا، وكنا معاً ذات يوم فى سفح جبل فى تيرول. وكان جسمها بارداً. مسكينة ماريا. كانت تقول:

– صادق! لا تتركني! سأذهب معك إلى أى مكان. فحياتك حياتي.

مسكينة ماريا! لكنى لم أشعر بالأسى من تذكرها؛ بالقدر الذى ظننت. وعند عودتى إلى الفندق، قررت استئناف كتابة مذكراتى مساءً. ويبدو أننى – ومرة أخرى – أهرب من الحياة. لا. لا أهرب. فالمذكرات حياة. المذكرات حياتى..

جنكيز ضاغجى

مؤلف هذه الرواية، كاتب من تتار القرم، وهو تتارى تركى اسمه بالكامل جنكيز أمين حسين ضاغجى، ولد فى قرية تسمى قيزيل طاش تابعة لـ «يالطا» فى القرم. ولد عام ١٩٢٠م، وكان الوقت وقت مجاعة .

كبر جنكيز ضاغجى وبلغ الثانية عشرة من عمره وشاهد بنفسه احتلال الروس لأرض أبيه الفلاح المتوسط الحال، وتحويل أصحاب الأراضى الكبيرة إلى (عبيد) فى المزارع التعاونية، وألقى القبض عليه ونفى مع مجموعة كبيرة من أهل قريته، كان بينهم أعمامه. وبموجب قرار حكومى حرم بقية أفراد أسرة جنكيز من العمل (١) .

وكان جنكيز قد تلقى تعليمه الابتدائى فى قريته قيزيل طاش، ثم تعليمه الإعدادى فى مدينة آق مسجد (الجامع الأبيض) والتحق بمعهد التربية ولم يكمل الدراسة به نظرا لتجنيده فى القوات المسلحة الروسية عند قيام الحرب العالمية الثانية .

حارب جنكيز فى جبهة أوكرانيا ضد الألمان. ثم أدخله الروس مدرسة الضباط فى أوديسا وتخرج فيها برتبة ملازم دبابات عام ١٩٤١م . وفى نفس العام أسره الألمان. وفى السنوات الأخيرة من

(١) Osman Koca Kaplan. Gengiz, Dagci nin Siirlerine dair, Hareket Dergisi, S. 6, Istanbul

الحرب تخلص من الأسر ولجأ إلى الحلفاء واستقر فى انجلترا مع زوجته البولندية وابنته الوحيدة، ثم افتتح مطعما فى لندن .

وتدور روايات جنكيز ضاغجى حول مأساة وطنه السليب، القرم، وأحلام شعبه فى العودة إلى بلادهم. وله عشر روايات هى مع تاريخ صدورها :

١ - السنوات الرهيبة (١٩٥٦)
٢ - الرجل الذى فقد وطنه (١٩٥٧)
٣ - هم أيضا كانوا بشرا (١٩٥٨)
٤ - سنوات الموت والرعب (١٩٦٢)
٥ - هذه الأرض كانت أرضنا (١٩٦٦)
٦ - الحياة فى الكولخوز (١٩٦٦)
٧ - العودة (١٩٦٨)
٨ - الشاب تيموجين (١٩٦٩)
٩ - الأطفال المشنوقون على أغصان شجر الزيتون (١٩٧٠)
١٠ - الشارع المصاب بالبرد (١٩٧٢)

وقبل أن يكون جنكيز شخصيته الأدبية المستقلة كان متأثرا بكل من : تولستوى، وديستويفسكى ونكرا سوف وتورجنيف من الروس، وبكل من جويس وبروست وشتاينبك من الغرب.

إن فى روايات جنكيز ضاغجى «أبعادا عالمية مثل اكتساب صفة الثورة على الظلم وبحث الإنسان عن نفسه» كما أن الواقع الذى عاشه جنكيز ضاغجى وعبر عنه فى رواياته «يضفى على أعماله الأدبية قوة، ويدفع القارىء دفعا إلى الإيمان بها» (١) .

محمد حرب

---

(١) عبدالله بزدن، المرجع السابق، نفس الصفحات، وعثمان قوجه قابلان، مرجع سبق ذكره.

المترجم في سطور

الدكتور محمد حرب:

– دكتوراة فى التاريخ العثمانى الحديث – جامعة استانبول.

– أسس مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى بالقاهرة .

– أول من طرح فكرة الاستشراق الجديد فى محاضرة ألقاها فى الأكاديمية النمساوية وكتب عنها .

– حاضر فى أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية بالقاهرة فى ملفات تركيا القوة الشاملة ، وملف الاكراد .

– ألقى عدة محاضرات فى عدة مدن أوروبية وعربية .

– اشترك فى عدة مؤتمرات دولية فى قيرغيزستان وقازاخستان وروسيا وتركيا وهولندا والمانيا والسعودية .

رأس عدة مؤتمرات دولية فى آسيا الوسطى.

– عضو شرف بجامعة الاستشراق فى ألما أطى فى قازاخستان .

– أشرف على عدة رسائل جامعية: ماجستير ودكتوراة .

من أعماله:

– الصراع بين الفكر المادى والإسلام فى تركيا المعاصرة .

– المثقف وتغيير نظام الحكم؛ نموذج أتاتورك .

– تاريخ مصر العثمانية، مخطوطة جورجى زيدان . تحقيق ودراسة .

من ترجماته:

حرب الاستقلال ملحمة ناظم حكمت ،ومذكرات السلطان عبد الحميد.

أشرف على إصدار:

موسوعة الحرمين الشريفين وجزيرة العرب (٥ أجزاء) ورحلة اوليا جلبى الى مصر (جزآن) .

من كتبه الموجهة إلى المثقف العام:

– العثمانيون فى التاريخ والحضارة .

– المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان .

أحدث إصدارات روايات الهلال ٢٠١٠، ٢٠١١

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
يوم الزينة	د. مرعى مدكور	سبتمبر	٢٠١٠	٧٤٢
قمر فى الظهيرة	بشرى أبو شرار	أكتوبر	٢٠١٠	٧٤٣
الخروج من القوقعة	علي ماهر عيد	نوفمبر	٢٠١٠	٧٤٤
حياة عادية	عاطف فتحي	ديسمبر	٢٠١٠	٧٤٥
صخرة في الأنفوشي	محمد جبريل	يناير	٢٠١٠	٧٤٦
قبل الأبد برصاصة	أنيسة عبود	فبراير/ مارس	٢٠١١	٧٤٧
جناح واحد وفضاء	محمد الفارسي	ابريل	٢٠١١	٧٤٨
الأرملة السوداء	صبحي فحماوي	مايو	٢٠١١	٧٤٩
ما فهمتكم	د. مرعي مدكور	يونيه	٢٠١١	٧٥٠
الحب والزمن	سعيد سالم	يوليو	٢٠١١	٧٥١
فى انتظار النور	سناء أبوشرار	أغسطس	٢٠١١	٧٥٢
ذكريات منسية	حمدى البطران	سبتمبر	٢٠١١	٧٥٣

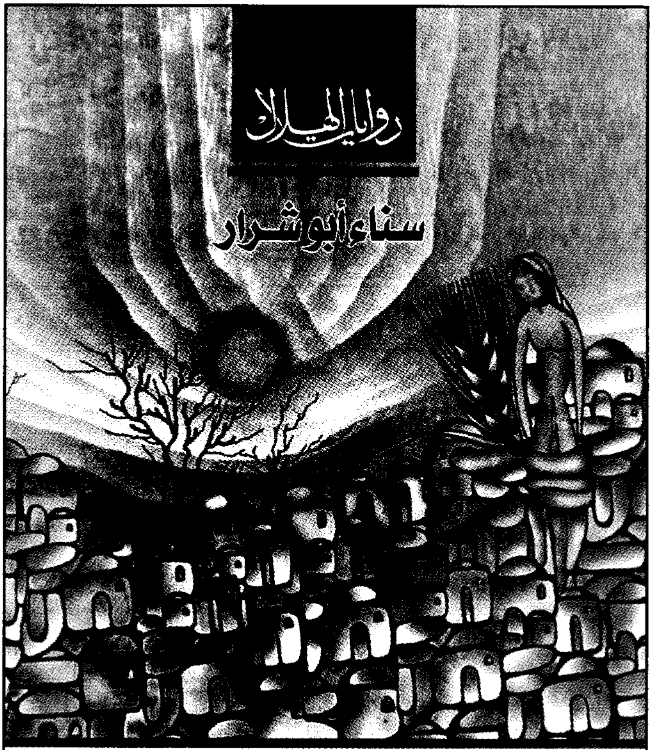

فى انتظار النور

محمود درويش

هذه الرواية

رواية من روائع الأدب العالمى ، كاتبها جنكيز ضاغجى وهو أديب من أتراك القرم، ألقى عصا التسيار فى لندن حيث يقيم فى الشتات كبقية قومه، منذ مطلع القرن العشرين ، وإلى أن توفى .

تصور هذه الرواية مأساة المسلمين فى شبه جزيرة القرم – شمال البحر الأسود – وتروى تفاصيل «السنوات الرهيبة» التى عاشها المؤلف وأسرته وأمته منذ الثورة البلشفية – الروسية – وحتى الحرب العالمية الثانية .

وهى إحدى القضايا العالمية المأساوية المتكررة للمسلمين، ولكافة الشعوب المستضعفة وتتشابه إلى حد بعيد مع مأساة الفلسطينيين ، لكنها لم تحظ بالانتشار فى منطقتنا العربية إلا فى نطاق المهتمين بالتاريخ . وهاهى تدلف إلى المكتبة العربية من الباب الملكى (الأدب) عبر ترجمتها إلى السلسلة التى قدم لها الدكتور / محمد حرب بمقدمة ضافية تؤرخ للقضية وللأديب .

الهلال

أكتوبر 2011 - الثمن 6 جنيهات

سيناء

العبور إلى المستقبل

عدد خاص

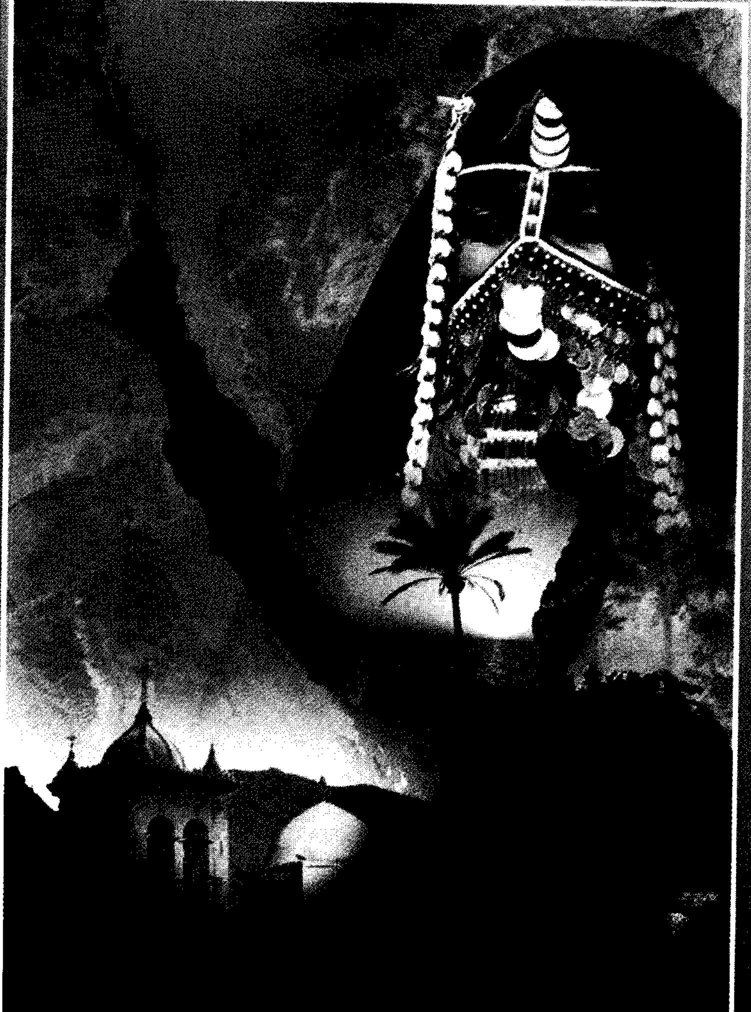

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع

روايات مصرية للجيب

معشوقة شباب
العالم العربى
من مشرقه
إلى مغربه

شلال متدفّق من الروايات لا يهدأ ، ولا يخمد .. يستولى على ألباب القراء ، ويبحر بهم إلى آفاق رائعة من الثقافة ، والمتعة ، والإثارة .

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقى الفجالة ،
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850